الباب الثالث

النقائض فى العصر الأموى

الفصل الأول

عصر النقائض الأموية

— ١ —

حينما نتقدم إلى العصر الأموى لنتبين الجوانب التى لابست النقائض وكانت بيئاتها العامة ، ومقوماتها العتيدة ، نجد هاجوانب شتى: سياسية واجتماعية واقتصادية وشخصية وفنية وغيرها .

ولنأخذ فى الإلمام بهذه الجوانب أو ـ على الأصح ـ بما كان منها متصلا بفن النقائض مؤثراً فيه تأثيراً مباشراً أو غير مباشر .

وربما كانت السياسة أول هذه المقومات وأهمها لما لها هى نفسها من آثار واضحة ، ولأنها شديدة الأثر فى العوامل الأخرى الاجتماعية والاقتصادية والفنية ، فكانت أولى بالتقديم فى الذكر .

هناك فرق واضح بين السياسة الإسلامية أيام بنى أمية و بينها فى عهد الرسول وخلفائه الراشدين من وجوه كثيرة . والأصل العام فى ذلك أن السياسه قبل عهد معاوية ، قامت على أساس ديموقراطى شورى قدر المستطاع ، ظهر ذلك فى اختيار

الخلفاء وفى سياستهم الرعية سياسة عادلة حازمة لا تفضل جنساً على آخر ولا طبقة على أخرى ، ولا امتياز لأسرة أو فرد ؛ فالناس أمام الدين سواء لا مفاضلة بينهم إلا بمقدار ما يتفاوتون فى الأخذ بأصول الشريعة فى العبادات والمعاملات ، كان ذلك أيام الرسول وخلفائه الأولين وإن أخذ الناس على عثمان أموراً جعلته فى رأى بعضهم دون زملائه تحرجاً والتزاماً للمثل الإسلامية العليا[١] معنى ذلك أن المقاييس السياسية كانت مرتبطة بالمقاييس الدينية والخلقية لا تنفصل عنها ولا تتخذ الدين وسيلة للغايات السياسية العملية ، أو أن السياسة نفسها كانت ظاهرة دينية وعنصراً سليما من عنصريه : الروحى والزمنى ، لذلك أنكر الخلفاء التهاجى الاجتماعى وعاقبوا شعراء الهجاء كما فعل عمر وعثمان[٢] فلم تستطع النقائض أن تحيا فى ظل الخلفاء الراشدين وبقيت خامدة منذ الأيام الإسلامية الأولى ، حتى ظهرت بوادرها أيام المعركة السياسية بين على ومعاوية[٣] فى سبيل الحكومة الإسلامية كما بينا فى غير هذا المقام . وكان الشاعر يعيش ، هذه الفترة الأولى ، فى سبيل الأمة العربية أو الدولة الإسلامية[٤] .

أما العهد الأموى فقد انفصلت فيه السياسية عن الدين بوجه عام ، وصار الأمر مُلكا عضوضاً يهدف إلى غرض سياسى عملى يجب أن يتحقق وإن كان فيه جور على الدين ، وكان الدين إما وسيلة سياسة صالحة مقررة كالقصص[٥] وإما أن يلتئم معها فى بعض المواقف ، وإما أن يستكن مغلوباً على أمره ؛ ذلك أن المقاييس السياسية أو الزمنية سيطرت على ملوك بنى أمية فكانوا أصحاب عرش دنيوى همُّهم حفظ الملك فى بيوتهم وإخضاع الرعية لسلطانهم مهما يضحوا فى

(١) مروج الذهب جـ ٢ ص ٢٢٤ .
(٢) الأغانى جـ ٢ ص ١٨٥ والطبرى جـ ٢ ق ٢ ص ٣٠٢٤ .
(٣) راجع تاريخ الشعر السياسى للمؤلف ص ١٢١ ط ١ . (٤) نفس المرجع ص ٦٦ و ٩٨ .
(٥) فجر الاسلام لأحمد أمين ص ١٨٧ .

سبيل ذلك بأسر أو أفراد أو شيع أو موائيق أو شعائر فكانوا رجال سياسة ملكية خالصة ونزعة كسروية أو هرقلية ، وأصحاب دنيا لا دين .

وقد سلكوا فى سياستهم مسلك الترغيب والترهيب ، فاتخذوا المال وإغداقه على الأنصار والخصوم وسيلة لتثبيت عرشهم لا يتقيدون فى ذلك بقوانين الشريعة ونظام الصدقات فأغدقوا على خصومهم تخفيفاً لنقمتهم ، وعلى أنصارهم استبقاء لمعونتهم ، ووجدوا طائفة من الشعراء تؤيدهم وتشيد بذكرهم رغبة فى العطاء أو رهبة من العقاب [١] أولئك هم شعراء الحزب الأموى وغيرهم من الفحول .

ولما كان الأنصار والعدنانيون حجازيين فى سياستهم حاول الأمويون بالشام أن يضموا إلى جانبهم اليمنية فأصهر معاوية إلى بنى كلب الحميريين من اليمن بأن تزوج ميسون بنت بَحْدَل الكلبي أم يزيد ابنه ، كما تزوج منهم قبل ذلك عثمان بنائلة بنت الفرافصة وبذلك ضمن البيت السفيانى الأموى معونة الكلبيين فنصروه فى (مرج راهط) على القيسية وكان لحسان بن مالك بن بَحدل خالِ يزيد طمعٌ فى الخلافة ولكنه انصرف عنها ، وكان من نتيجة هذه الخطوة الأولى مناقضة بين عمرو بن مخلاة الكلبي وزفر بن الحارث الكلابى من زعماء قيس عيلان [٢] وأخرى بين زفر هذا وبين جَوّاس بن القَعطل الكلبى [٣] فكانت مناقضة بين قيس واليمن فى سبيل السلطان الأموى .

ولما نزلت قيس الجزيرة واعتصم زُفر بقَرْقِيسِياء فى أعقاب (مَرْج راهط) استمرت قيس تغير على كلب بزعامة عُمير بن الحباب القيسى ومعونة تغلب انتقاماً لقتلى قيس يوم المرج ، ولكن العلاقات بين قيس وتغلب فسدت لأسباب سياسية

(١) تاريخ الشعر السياسى لأحمد الشايب ص ٢٠٤ ط ١ .
(٢) نقائض جرير والأخطل ص ١٧ — ١٩ . (٣) نفس المرجع ص ٢٤ — ٢٦ .

واقتصادية وقامت بينهما أيام شنيعة[١] كانت من الدوافع التى وقفت الأخطلَ يناقض جريراً ؛ الأول مع قومه تغلب ، والثانى مع قيس عيلان فكانت نقائض جرير والأخطل تاريخاً لصلة قيس وتغلب معاً ، ولصلتهما بالحكومة الأموية ، ولموقف هذين الشاعرين كُلٌّ من الآخر ، وتفسيراً لانتصار الأخطل للفرزدق على جرير ودخوله بين شاعرى تميم وقبيليهما ، ولا سيما أن عبد الملك ابن مروان كان يؤثر الأخطل ويفضله على سائر الشعراء ، وَيَعُدُّه شاعر أمير المؤمنين لإشادته بفضل أمية ولموقف قومه معهم على قيس عيلان وإن كان موقفا يعود فى حقيقته إلى صوالح تغلب ومنفعتهم حتى إذا اصطلح الحيان واتصلت القيسية بعبدالملك غضب الأخطل ، وتوعد الخليفة ، وحذره القيسية ، كل ذلك خشية أن تذل تغلب بفقدها حماية القصر أو أمام وحدة قيس وأمية[٢] .

كذلك كانت الحال بالنسبة لجرير والفرزدق ؛ فعلى الرغم من أن المناقضة بينهما نشأت قبلية ، نجدها قد تأثرت بالسياسة الأموية لموقف جرير فى جانب قيس عيلان الزبيرية ، فكانت تمثل المعارضة منذ انضمت إلى عبد الله بن الزبير ودعت إلى خلافته وقاتلت الأمويين واليمن فى مرج راهط تحت رايته[٣] فكان الفرزدق يخاصم قيس عيلان فى سبيل تميم ويعين الأخطل عليها ، وكلاهما يناقض جريراً هذا الذى أخذ يفخر بقيس عيلان[٤] وقد تجلّت هذه الظاهرة السياسية حين تصارعت العصبيات القيسية والتميمية فى مصرع قتيبة بن مسلم الباهلى فوصلم الفرزدق وجرير بالسياسة الأموية وجعلا المسألة ظاهرة سياسية تتصل ببيعة سليمان ابن عبد الملك ، وقالا فى هذا الحادب نقيضتين من أهم نقائضهما[٥] وإن لم يسلم الموقف مطلقاً من العصبيات التميمية بين مجاشع قوم الفرزدق وبين يربوع رهط

---

(١) ديوان الأخطل ص ٣٦٢ . (٢) نفس المرجع ص ١٠ و ١٠٥ والأغانى جـ ٨ ص ٢٩٦ ونقائض جرير والفرزدق ص ٤٠١ (٣) نقائض جرير والأخطل ص ١٥ — ١٧

(٤) نقائض جرير والفرزدق ص ١٠٥ (٥) نفس المرجع ص ٣٤٢ وما وليها .

جرير ووكيع بن أبي سَوْد قاتل قتيبة ، ولم يبرأ كذلك من العصبيات بين تميم وقيس عيلان أو بين تغلب وقيس كما تنطق بذلك المناقضة نفسها .

وكان المنتظر أن يقف الراعي النميري الشاعر مع جرير على الفرزدق مادام جرير يحطب في حبل قيس عيلان قوم الراعي كما أشار عليه بذلك جرير[١] ولكن السياسة تدخلت في الأمر فألّفت وقتاً ما بين الراعي و بين الفرزدق على جرير ، ذلك أن بشر بن مروان أخا عبدالملك أمه قيسية فعمل على أن يضم قيس غيلان إلى بني أمية واستطاع أن يستميل إليه الراعي الذي تورّط وأعان الفرزدق على جرير أولَ ما طلب إليه ذلك ، فصرعه جرير بقصيدته البائية المشهورة : ـ

أقلِّي اللومَ عاذلَ والعتـــابا وقولي ، إن أصبتُ ، لقد أصابا[٢]

التي نقضها الفرزدق بقصيدته : ـ

أنا ابنُ العاصمينَ بني تميم إذا ما أعظَمُ الحدثَانِ نابا[٣]

ولكن هذه المحالفة بين الفرزدق والراعي أو بين تميم وقيس عيلان قد تعقدت فيما بعد موت الراعي وأيام ابنه جندل حين قُتِل قتيبة بن مسلم الباهلي فثار شعراء القبيلين ثورة قضت على هذه الصلة الصناعية ، ووقف جندل هو وذو الأهدام الجعفري يهجوان الفرزدق كما يأتي (النقائض ٩٠٩) .

وكان هوى ذي الرُّمة مع الفرزدق على جرير ، وذلك لما كان بين جرير وعمرو بن لجأ التيمي من حصومة ، وتيم وعدي (قوم ذي الرُّمّة) أخوان من الرِّباب ، فانتصر ذو الرمة لرهطه الأدنين ، وهكذا أخذت السياسة العامة تؤثر في النقائض وتستغل العصبية في هذه السبيل كما يمر بك تفصيله قريباً .

---

(١) نقائض جرير والفرزدق ص ٤٢٨ (٢) نفس المرجع ص ٤٣٢ (٣) ص ٤٥١

وهناك جانب آخر من جوانب السياسية الأموية متصل بالنقائض ، هو جعلهم الملك وراثياً فى بيتهم متوسلين إلى ذلك بولاية العهد فى الأغلب وإن أدت إلى متاعب سياسية شتى ظهرت آثارها فى النقائض وغيرها من الشعر السياسى[١] فقد أخذ معاوية البيعة ليزيد ابنه ونهض له بذلك مسكين الدارمى الشاعر ، ثم استخلف يزيدُ معاوية الثانى وكان داعيةَ ذلك علىّ بن الغدير الغَنَوى[٢] ثم عهد مروان بن الحكم لابنيه عبد الملك ثم عبد العزيز ، وعهد عبد الملك لولديه : الوليد ثم سليمان ، ولما تولى الوليد ابن عبد الملك أراد خلع سليمان أخيه ليعهد إلى ابنه عبد العزيز وأعانه فى ذلك جرير ، والحجاج الثقفى ، وقتيبة بن مسلم ومحمد بن القاسم والى السند وكان لذلك أثره فى النقائض لما نقم سليمان على هؤلاء واستغلها الفرزدق فهجا الحجاج فى مناقضته جريراً لما قتل قتيبة ورماه بالغدر والطغيان بعد موته ولم يجادل جريرٌ زميلَه فى هذه النقطة .

على أن بنى أمية قد اعتدُّوا بمواهبهم من الحلم ، والدهاء ، والحزم ، والسخاء ، وحسن الإدارة ؛ فكان منهم دهاقين السياسة ورجالها العمليون ، وإن فصلوا بينها وبين الدين واتخذوا لها مقاييسها النفعية فكانوا أشبه بطفرة فى تاريخ الحكومة الإسلامية[١] فقد رقبوا هذا الملك منذ وفاة الرسول[٢] وصبغوه صبغة أموية من عهد عثمان ، واتخذوا مقتله ذريعة للخلافة[٣] وحاربوا علياً فى سبيلها ، وقتلوا الحسين حين تطلع إليها ، وضربوا الكعبة بالمنجنيق ، وتغاضوا عن المذنبين ، واشتروا الضمائر بالمال والمناصب ، واستباحوا المدينة ، ونكلوا بالشيعة والخوارج ، فكانوا بذلك رجال ملك عضوض ، وقد صوّرهم الأخطل أحسن تصوير فى

---

(١) تاريخ الشعر السياسى للمؤلف ص ١٨٢ و ٢٠١ و ٢٠٧ و ٢٦٣

(٢) نقائض جرير والأخطل ص ١ — ٥

(١) أحمد الشايب : تاريخ الشعر السياسى ص ٢٠١ (٢) نفس المرجع ص ١٥٥ .

(٣) نفسه ص ١١٧ و ١٩٩

نقائضه مع جرير[١] وعرف لهم هـذه المواهب السياسية والشمائل النفسية ، كما ألم الفرزدق بها فى نقائضه هو وجرير ، ولم ينس الأخطل خاصة ، وهو يناقض ، أن يحتج لبنى أمية وحقهم فى الملك أكثر من مرة فكان الحزب الأموى ذا أثر واضح فى فن النقائض .

كذلك استعان الأمويون فى سياستهم بجماعة من خير الولاة والقواد الذين كانوا لهم سنداً قوياً ، وأنصاراً مخلصين ، مكنوا لهم فى مشارق الأرض ومغاربها ، وبسطوا سلطانهم بين الصين وفرنسة ، نذكر منهم عمرو بن العاص صاحب مصر ، وزياد بن أبى سـفيان الذى استلحقه معاوية وولاه العراق فأخضعه لسلطان الأمويين ، وعبيد الله بن زياد الذى قتل فى عهده الحسين ، والمغيرة بن شعبة الذى ساعد فى البيعة ليزيد بن معاوية ، وكان الحجاج لعبد الملك كزياد لمعاوية كما كان بشر بن مروان داعية الأمويين يؤلف حولهم القبائل والشعراء ، ونذكر بمناسبة هؤلاء الحارث بن أبى ربيعة المخزومى أخا عمر بن أبى ربيعة ، فقد تولى البصرة لابن الزبير مرتين وهدم دارى جرير والفرزدق بها لما أشاعا هذا الهجاء الفاحش المقذع فصرخا بالشكاية منه فى النقائض أيضاً[٢] .

أما القواد فإنا نذكر منهم آل المهلب بن أبى صفرة وقتيبة بن مسلم الباهلى ووكيع بن أبى سَوْد اليربوعى ، فأولئك وغيرهم اتصلوا بالنقائض وغيرها من الشعر السياسى زمن الأمويين[٣] فقد رأينا الحجاج مهجواً فى نقائض الفرزدق ، ممدوحاً فى شعر جرير والفرزدق والأخطل ، ورأينا بشر بن مروان يحمل سراقه البارقى على هجاء جرير ويرسل إلى جرير يأمره بالرد عليه ، وقد أشرنا إلى نقيضتى جرير

(١) نقائض جرير والأخطل ص ١٤٨ — ١٥٦

(٢) نقائض جرير والفرزدق ص ٦٧٠ و ٦٨٣ .

(٣) راجع نقائض جرير والفرزدق ص ٣٤٨ والأغانى ج ٨ ص ١٨ ودواوين جرير والفرزدق والأخطل .

والفرزدق لما قتل وكيعُ بن أبي سود اليربوعي قتيبةَ بن مسلم الباهلي بخراسان وغير ذلك كثير تجده أثناء دراسة النقائض متصلا بالسياسة الأموية الداخلية والخارجية .

— ٢ —

ولم تكن الحياة الاجتماعية فى العصر الأموى دون الحياة السياسية أثراً فى تقويم النقائض ، وتكوين عناصرها ، وتوجيه تياراتها ، وربما كانت أبعدَ أثراً وألصقَ مباشرة ، ونقتصر هنا أيضاً على أشد جوانبها ملابسة لفن المناقضة . ومَرَدُّ ذلك أن الدولة الأموية كانت دولةً عربية فى صبغتها العامة ، كانت قريبة العهد بالبداوة فلم تغرق فى الحضارة الفارسية أو الرومانية كما حدث أيام العباسيين وكان الترف الأموى عربياً فى جملته على الرغم من تسرب شىء من السمات الأجنبية إليه ، فهذا أصل . وأصل آخر هو أن الأمويين لم ينسوا جاههم الجاهلى القديم ومكانتهم فى قريش والعرب فأعادوها أرستقراطية أموية عربية مسلمة ظهرت فى الحلم ، والكرم ، والدهاء ، والتعصب للجنس أمام الموالى ، وللأسرة أمام العرب ، فكانت تقاليدهم ورسومهم عربية فى الطعام والشراب واللباس مترفين أو معتدلين ، وفى ظلهم كانت المعارف الإسلامية العربية هى الطابع الغالب على العقل الإسلامى[١] لذلك رأينا الحياة الاجتماعية فى أقطار الدولة خاضعة لهذا الطابع العربى الإسلامى . ويمكن تمثيل ذلك بالإشارة إلى معالم الحياة فى العراق ، والحجاز ، والشام ، تلك الأقاليم التى كانت — وبخاصة أولها — أشد اتصالاً بفن النقائض الشعرية تاركين الاستقصاء إلى مراجعه[٢] .

(١) راجع فى ذلك فجر الإسلام لأحمد أمين .

(٢) المرجع السابق ، وشرح النقائض ، وتاريخ التمدن الإسلامى ، ونهاية الأرب ، والعقد الفريد .

كانت بلاد العراق مستقر المعارضة السياسية ، ومصدر الثورات والفتن ، ومنبعَ الفرق الدينية ، ومجال الحركة العلمية ، وفى أمصارها و بواديها عادت الحياة الجاهلية بكثير من رسومها وأوضاعها ، فالنظام القبلى واضح فى تقسيم الكوفة والبصرة[١] وعاشت القبائل فى أقسامهما وخُططهما محتفظة بكيانها الجاهلى وعصبياتها القديمة وأقامت (المِرْبَدَ) عُكاظ الإسلام تجتمع فيها القبائل حلقات تستمع إلى شعرائها يفتخرون ويهجون وفى هذا المربد أنشد بعض النقائض[٢] ومنه كانت تسير فى أقطار الدولة يتلقفها الرواة ، ويتدارسها النقاد ، ويعتز بها الأرهاط ، وتبع ذلك أو صَاحَبه هذه الحياة البدوية التى خضع لها قول الشعراء ورجال النقائض من مفاخرة ومنافرة ومعاقرة[٣] وشراب وتحلّل من شعائر الإسلام ونزوع إلى الماضى على تفاوت بينهم فى ذلك ؛ فقد كان الفرزدق أشدّهم جاهلية ومفاخرة وجريرٌ أقبَحهم سفاهة ، وأحسنَهم إسلاماً ، والأخطلُ أحرَصَ على نصرانيته وتغلبيته ، ولزم ذو الرمة البادية يصفها و ينسب بمىّ وخرقاء ، وكان الراعى كذلك يعتسف فى شعره الفلاة بغير دليل ؛ فكان من بينهم لذلك ، ولغيره ، نهضةُ النقائض وسيرورتُها وتابعهم فى فنهم هذا شعراء آخرون أقلُّ منهم مكانة وأدنى إلى النظام الإسلامى السديد .

وكان فى العراق أحداث سياسية اجتماعية شتى ذات مظاهر فى هذا الفن الشعرى أشرنا إلى أصولها العامة منذ حين ، ونذكر هنا وقعة الجمل ومصرع الزبير فى أعقابها فقد اتخذه جرير مسبة لمجاشع رهط الفرزدق[٤] وكذلك مقتل الحسين ، وخروج المختار الثقفى ، ومهلك مصعب بن الزبير ، وطغيان الحجاج ، وما استتبع ذلك من اضطراب اجتماعى ، وجدل دينى ، أرَّثَ العداوات وزاد المناقضات .

---

(١) فتوح البلدان للبلاذرى ص ٢٨٤ و ٣٥٤ .

(٢) نقائض جرير والفرزدق ص ٤٢٩ (٣) نفس المرجع ص ٤١٤ و ٩٤١

(٤) نفس المرجع ص ١٧٩

أما الحجاز فعلى الرغم من مكانته الدينيـة والعلمية[١] التى خلعت مرة على نسيب الفرزدق فى النقائض جلالا ووقاراً ما كان يعرفه ، والتى أخرجته طريداً حتى شنع به جرير[٢] فكانت به حياة أخرى عابثة مرحة فيها شراب ، وغناء ، وقيان ، ونسيب ، وتنادر وفكاهة بما أفاءت عليه الفتوح من ثروة ، ومافرغت فيه السَراةُ لحياة اللهو ، وما جُلب إليه من قيان وفن غنائى جديد طارىء ، وفى المدينة سمع الفرزدق قينة مع الأحوص غنته بقطعة من النقائض :

ألا حَيِّ الديارَ بِسُـعْدَ إنى أُحبّ لحبِّ فاطمةَ الديارا[٣]
إذا ما حَلَّ أهلك يا سُـلَيمى بِدارةِ صُلْصُل شحطوا مزارا[٤]
أراد الظاعنـــون ليَحزنونى فهـاجوا صَدْعَ قلبى فاستطارا

فقال الفرزدق : ما أرقّ أشعاركم ياأهل الحجاز وأملحَها ! قال الأحوص : أو ما تدرى لمن هذا الشعر ؟ قال : لا والله . قال : فهو ، والله لجرير يهجوك به . فقال : ويلُ ابن المراغة ! ما كان أحوجه مع عفافه إلى صلابة شعرى ، وأحوجنى مع شهواتى إلى رقة شعره ![٥] .

والأبيات مطلع نقيضة لجرير[٦] اختيرت غناء لرقتها ، وكان جرير مقدَّماً عند الحجازيين لرقة نسيبه ، وسلاسة أسلوبه ، على الرغم من وروده فى معرض المناقضة والتساب .

وللحجاز صلات أخرى بالنقائض ، فقريش كانت حكَمَ جرير والفرزدق ، ومشاعرُ مكة كثيرة الورود فى نقائضهما ، وفى المدينة قيلت فائية الفرزدق التى نقضها جرير[٧] وإلى عبد الله بن الزبير بمكة فرّت (النَّوار) زوجُ الفرزدق وقيل فى ذلك شعر كثير[٨] .

---

(١) فجر الاسلام ص ٢٠١ .
(٢) نقائض جرير والفرزدق ص ٣٩٦ .
(٣) سعد موضع بنجد .
(٤) دارة صلصل لعمرو بن كلاب بنجد .
(٥) الأغانى جـ ٨ ص ١٢ .
(٦) نقائض جرير والفرزدق ص ٢٤٩ .
(٧) المرجع السابق جـ ٢ ص ٥٤٦ .
(٨) الأغانى جـ ٩ ص ٣٢٤ والنقائض ص ٣٠٨ .

أما الشام فكانت مقر السلطان السياسى ، والحكومة الأموية ، وكانت دمشق حاضرة الخلافة ومقصد الشعراء بوجه خاص ينشئون قصائدهم فى العراق أو الحجاز ويرحلون بها إلى خلفاء دمشق طلباً للعطاء ، فكان الشعر يرد إلى الشام من خارجها ، ولعل عَدِىّ بن الرِّقاع العاملى من كهلان هو الشاعر الفذّ الذى سكن دمشق فكان من حاضرة الشعراء لا من بادیتهم ، وقد لقيه جرير فى حضرة الوليد بن عبد الملك وهم بهجائه لولا أن هدّده الوليد ؛ ولكنه قال بعدُ قصيدته السينية المختارة التى منها :

أقصر فإنّ نِزارا لنْ يُفاخرَها فرعٌ لئيم وأصلٌ غير مغروسِ

وذكر وقائع نزار فى اليمن ، فعلم الناس أنه عناه ، ولم يجبه الآخر بشىء[1] .

وكانت بعض النقائض متصلة بدمشق لما فيها من مدح الخليفة أو لاتصالها بسياسة الدولة وعلاقاتها بالقبائل ولا سيما اليمن ، وتغلب ، وقيس ، وتميم . من ذلك رائية الأخطل فى مدح عبد الملك وهجاء قيس و بنى كليب بن يربوع[2] وميمية الفرزدق فى مقتل قتيبة بن مسلم التى بدأت فى المدينة وانتهت إلى دمشق الشام ، وكانت دمشق ، من الناحية السياسية والإدارية العامة ، مشرفة على هذه المعركة الأدبية بين الفحول من الشعراء إحياء للعصبيات التى تفرق بين القبائل وتشغلها عن السياسة العليا للدولة الأموية كما نشرحه بعد قليل . ولعل بشر بن مروان ، وهو والى الكوفة من قبل عبد الملك ، كان سفيرَ الشام إلى العراق يجمع الشعراء و يوقع بينهم أو يؤلف بينهم على جرير الذى يمثل المعارضة القيسية .

على أن جريراً حين ناقض الأخطل لم ينس هوانَ تغلب وذلتها ، ودينها ، مع مجد مُضَر ودولتهم ودينهم فاستمد من سلطان الشام بعض معانيه فى إحدى القصائد إذ يقول للأخطل :

---

(١) الأغانى جـ ٨ ص ٨٠ (٢) نقائض جرير والأخطل ص ١٤٨

إن الذى حرمَ المكارم تغلِبا ... جعل النبوةَ والخلافة فينـــا

هل تملكون من المشاعر مَشعراً ... أو تشهدون مع الأذان أذينا[١]

مُضَرٌ أبى وأبو الملوك فهل لكم ... يا خُزرَ تغلب من أب كأبينا[٢]

هذا ابنُ عمى فى دمشق خليفة ... لو شئت ساقكمُ إلىَّ قطينا[٣]

فلما بلغ عبد الملك بيت جرير الأخير قال : ما زاد ابن المراغة على أن جعلنى شُرْطيًّا ! أما إنه لو قال :

لو شاء ساقكمُ إلىَّ قطينا .

لسُقتهم إليه كما قال[٤] .

ولما كان الأخطل كثير التردُّد على الشام فلا بد أن بعض نقائضه أُنشىء هناك فى دمشق خاصة وتأثر بما كان يجرى فيها من أحداث ، وما يتراءى من مشاهد ، وما ظفر هو به من تجارب .

— ٣ —

ولعل العصبيات القبلية خاصة كانت ، فى العصر الأموى ، أقوى أسباب النقائض و بواعثها ، وأبعد مقوماتها تأثيراً فى عناصرها ، فإنه على الرغم من أنها كانت تعمل فى ظل السياسة إلا أنها كانت أقوى العوامل المباشرة لنشأتها ، والمصدرَ الخصيبَ لمعانيها ، والشريعةَ التى حدَّدت مواقف شعرائها فى هذه المعركة الأدبية العنيفة .

والأصل الأول لمعنى العصبية هو كلمة (عصب) جمعها أعصاب وهى أطناب (حبال) المفاصل التى تلائم بينها وتشدها ، و عَصبَ رأسه شده ، وعصب الشجرة

(١) الأذين الكفيل وكذلك الأذان .

(٢) الخزر جمع أخزر : ضيق العين ومن ينظر بمؤخرها .

(٣) القطين الخدم .

(٤) الأغانى ج ٨ ص ٦٠

يعصبها عصباً ضم ما تفرق منها بحبل ، والعصابة بين العشرة إلى الأربعين ، وفى حديث على : « الأبدال بالشام ، والنجباء بمصر ، والعصائب بالعراق » . أراد أن التجمع للحرب يكون بالعراق ، والتعصب من العصبية وهى أن يدعو الرجل إلى نصرة عَصبته والتألب معهم على من يناوئهم ظالمين كانوا أو مظلومين ، وقد تعصبوا عليهم إذا تجمعوا ، والعصبَة الأقارب من جهة الأب لأنهم يعصبونه ويعتصب بهم أى يحيطون به ويشتد بهم . والعصبية والتعصب والمحاماة والمدافعة ، وتعصبنا له أو معه نصرناه[1] .

فأنت ترى أن معنى هذه المادة اللغوى بدأ حسياً متصلا بالأعصاب والعصائب والجماعات والأقارب ثم استحال معنوياً متصلا بالمؤازرة والمحاماة والمدافعة والنصرة فالعصبية انتهت قديماً إلى التحزب والانتصار للرهط أو القبيل انتصاراً حسياً أو أدبياً على أساس القرابة الحقيقية أو الوضعية .

وكانت العصبية لازمة لأعراب الجاهلية لتكوين وحدات من الأسر والقبائل تحقيقاً للعدالة الداخلية والأمن الخارجى والسيادة فى المواطن رجاء الظفر بمادة الحياة ، والشرف ، وحماية القريب والجار ما دامت الحياة البدوية مضطربة لا تنتظمها وحدة شعبية شاملة ، ولا ترأسها حكومة عامة تفرض النظام ، وتقر الأمن ، وتنفذ القانون ، وتنتصف للمظلوم ، فقامت حكومة القبيلة مكان حكومة الأمة ، وصارت القبيلة للبدوى بمنزلة الدولة للحضرى[2] .

وعلى أساس العصبية القبلية قبل الإسلام قامت الأيام بين القبائل وفى ظلها نشأت النقائض الجاهلية ونمت كما بينا ذلك فى الباب الاول من هذا الكتاب .

فلما جاء الإسلام شريعةً إنسانية عامة أنكر هذه العصبية الجاهلية ودعا إلى

---

(١) راجع لسان العرب مادة عصب .

(٢) تاريخ التمدن الإسلامى ج ٤ ص ١٠ — ٣٠ ، وفجر الإسلام ص ٥ ، وضحى الإسلام ج ١ ص ١٧ ، وتاريخ الشعر السياسى ص ٢٠ — ٢٨

التآخى العام بين الناس جميعاً لا فرق بين الاجناس والقبائل ، و إنما المؤمنون إخوة وكان أنصار الرسول من غير قومه قريش ، و بهؤلاء الأنصار من الأوس والخزرج بيثرب اعتزّ ، وعلى قبيله انتصر حتى فتح عليهم مكة ، وأخذ مدة حياته ينكر حَمِيَّةَ الجاهلية ، وتبعه خلفاؤه السابقون فى ذلك ، ولو طال العهد بالرسول وأبى بكر وعمر خاصة لاستطاعوا أن يكسروا حِدَّةَ هذه العصبية الحمقاء وأن يحققوا للعرب وللمسلمين وحدة بشرية أبعد أثراً وأطول عهداً على أقل تقدير .

ولكن هذه الحمية الجاهلية بقيت ، مع الاسف الشديد ، ولم يستطع الإسلام القضاء عليها عند كثرة العرب فشوهت حياتهم الإسلامية ، وصدعت وحدتهم السياسية والاجتماعية ، و إن أثمرت لنا فيما بعد فن النقائض .

ففى حياة الرسول لم تخل المعارك الحربية والشعرية بين مكة والمدينة من العصبية ، وفى غزوة بنى المصطلق كسع رجل من المهاجرين رجلا من الأنصار فكان بينهما قتال تداعت على أثره عشائرهما دعوة جاهلية فأنكرها الرسول ، فقال عبد الله بن أُبىّ بن سَلول « لئن رجعنا إلى المدينة ليُخْرِجَنَّ الأعَزُّ منها الأذل[1] » .

ولما توفى الرسول ظهرت عصبية المهاجرين والأنصار .

ولما ولى عثمان الخلافة رأت فيها الأسرة الأموية استعادة جاهها القديم فتحركت فى الأسرة الهاشمية مكانتها القديمة والحديثة ، ولم يقتل عثمان حتى سفرت الأموية والهاشمية عن وجهها واعتركتا إلى أن استقر الملك فى بيت الأمويين .

وَلِفهْم ما كان فى عهد الأمويين من عصبيات متصله بفن النقائض يحسن

---

(١) تفسير الطبرى جـ ١٨ ص ٧٣ .

أن نعود قليلا إلى الجاهلية لنلاحظ أن العرب كانوا فى ذلك العهد حيين كبيرين : قحطان وعدنان أو اليمن والشماليين . ولكل عصبية أمام الآخر ، و بين القبائل اليمنية عصبياتها وكذلك القبائل العدنانية ، وكانت قريش ذات منزلة ممتازة بين القبائل العدنانية ، ولها عصبيتها العامة ، وكان فى داخل قريش بطون متنافسة [1] لكل عزته واعتزازه حتى جاء الإسلام وقد توزعت عشائرها وظائفها الدينية والمدنية والسياسية ، ومن أشهر هذه العشائر أو الأسر بيتاً : هاشم وأمية ابنى عبد مناف بن قصى بن كلاب ، وكان قُصَىٌّ شيخ قريش فى الجاهلية .

فلما ظهر الإسلام فى بيت الهاشميين كان من الطبعى أن ينفس عليهم ذلك الأمويون فلزموا جانب المعارضة لهذه الدعوة حتى فتحت مكة ، وكان من الطبعى أيضاً أن تنفِسَ القبائل العدنانية على قريش مكانة هذه الدعوة فيها ، وأن تنفس اليمانية ذلك على العدنانية ، اللهم إلا هذه الأنصار بيثرب التى استجابت مُسرعة إلى الإسلام وآوت الرسول ونصرته وكان من الطبعى أيضاً أن يخشى اليهود هذه النهضة العربية التى ، إن تمت ، كانت خطراً على كيانهم الدينى والاجتماعى والاقتصادى شمالىَّ الحجاز ، ذلك فوق ما لَحَظ به الفرس والروم هذا النشاط البدوى العجيب : أيمكن أن يظهر شىء ذو خطر ، بين هؤلاء الأعراب الجاهلين الفقراء بحيث يلفت نظر الفرس والروم أو يكون خطراً على كيان هاتين الأمبراطوريتين ؟ !

واجه الإسلام هذه العصبيات المعقدة وشن عليها حرباً أدبية فدعا ، كما قلنا ، إلى وحدة إنسانية وقال الرسول فى خطبة الوداع : « أيها الناس إن الله

---

(٢) راجع العقد الفريد ج ٢ ص ٣١ وتاريخ الشعر السياسى ص ١٩٨ .

تعالى أذهب عنكم نخوة الجاهلية وفخرها بالآباء ، كلكم لآدم ، وآدم من تراب ، ليس لعربى على عجمى فضل إلا بالتقوى » .

ولكن العصبية كانت فى دم العرب ونفوسهم أصيلة معمرّة ، لايسهل استئصالها فبقيت حية وإن توارت تحت حزم الرسول ، وصرامة عمر ، وكشفت عن وجهها إثر مقتل عثمان .

وكان عثمان قد أصهر إلى بنى كلب اليمنيين من حمير فاقتدى به معاوية حين تزوج ميسون بنت بحدل الكلبية فظفر بنصرة بنى كلب وصاروا أخوال يزيد ابنه ، وبذلك فتح معاوية باب العصبية اليمنية ، أو الكلبية خاصة ، ودخل فيه ، اعتقاداً منه بأن العدنانية ستكون مع السياسة الحجازية أو العراقية ، ثم وقف أمام على فى (صفين) يطلب الملك لآله وتتابعت الأحداث حتى أقرت ماطلب ، وإن خلّفت له معارضة من الخوارج والشيعة وغيرهم لم تخل من عصبية . فاستطاع مداراتها مادام حياً ، وعلم أن الدنيا منقضة على ابنه يزيد إن تركه فى الميـــدان أعزل ، فبايع له وهو حى كما قدمنا حتى إذا مات معاوية تنبهت الفتن وظهرت الزبيرية حزباً قوياً[1] وهنا تتقدم العصبيات التى أمدت النقائض ، مبكرة ، بموضوعاتها ، ومادتها ، واتجاهاتها ، وقسمت الأمة شيعاً وأحزاباً ، ونصبت الشعراء بعضهم لبعض ، وأعادت ، فى ظل الإسلام ، النزعة الجاهلية التى ينكرها الإسلام .

فإذا لاحظنا ما سبق ذكره من مواقف السياسة من هذه العصبيات ، رأينا أن هذه العصبية لها مع ذلك كيان خاص ذو أثر قوى مباشر فى فن النقائض .

* * *

(١) تاريخ الشعر السياسى للمؤلف ١٧٣ .

(ا) نذكر من ذلك ما كان بين بنى كلب واليمنية بعامة و بين قيس عيلان منذ التقيا بالشام فقد اصطدمت أسبابهما السياسية والاقتصادية وحرصت كل أن أن تكون ذات سلطان نافذ فى هذا الإقليم ، حتى نقد أوشكت كلتاهما أن تظفر بالخلافة[١] لولا نزول كلب للأمويين ، والقيسية لابن الزبير ، وذلك أيام (الجابية) ووقعة (مرْج راهط) فلما انتصر مروان كان ذلك انتصاراً لليمن على قيس عيلان وقُتل الضحاك بن قيس الفهرى فى هذا اليوم ومعه كثرة من قومه ، فقال عمرو بن مخلاة الكلبي قصيدته —

ويومٍ ترُى الراياتُ فيها كأنها عوايفُ طير : مستديرٌ وواقعُ

فأجابه زفر بن الحارث الكلابى القيسى بأبياته : —

فخرتَ ابن مخلاة الحمار بمشهد علاك به فى المرج مَن لا تُدافع

فإن نَكُ نازعْنا قُريشاً فإنهم أخونا ومولانا الذين ننازع[٢]

فذكر قرابة قيس وقريش يريد إقصاء اليمنية .

وقال جوّاس بن قَعْطَل الكلابى فى ذلك أيضاً :

كم مِن أميرٍ قبلَ مروانَ وابنهِ كشفْنا غِطاء الموتِ عنه فأبصرا

الأبيات[٣] فأجابه معبد بن عمرو الكلابى : —

لقينا بنى كلبٍ بخَيلٍ مُغيرةٍ تُثير عَجاجاً بالسنابك أكدرا

القصيد[٤].

وقال زفر بن الحارث الكلابى القيسى يذكر يوم المرج قصيدته المشهورة : —

أربى سلاحى لا أبالكِ إننى أرى الحربَ لا تزداد إلا تماديا

---

(١) نقائض جرير والأخطل ص ١ و ٧ و ١٥ (٢) نفس المصدر ص ١٩

(٣) نفس المصدر (٤) نفسه ص ٢٠

فأجابه جوّاس بن القَعطل الكلبي بقصيدته : —

لَعمرى لقد أبقتْ وقيعةُ راهط على زُفرداءَ من الداء باقيا[١]

ومما يدل على أن العصبية العدنانية أو النزارية كانت قوية فى نفس زفر ابن الحارث زعيم قيس ، سُخطُه على عُمير بن الحُباب السُلَمى القيسى لما ترك حرب كلب إلى حرب تغلب ، وتغلبُ من نِزار العدنانية ، فقال زفر يذم عميراً : —

ألا مَن مُبلغ عنى عُمَيراً مقالة عاتبٍ وعليك زارِى
أتتركُ حَىَّ ذى كَلَع وكلبٍ وتكسِرُ حدَّ نابكَ فى نِزار

إلى آخر الأبيات[٢] .

وقد تدخّلت العصبية اليمنية بين جرير والفرزدق فأثمرت نقيضتين من أهم نقائضهما ، ذلك عند ما قدِم الفرزدق المدينة فى إمرة أبان بن عثمان بن عفان وجلس فى المسجد مع كُثَيِّر عَزةَ وابراهيم بن محمـــد بن سعد بن أبى وقاص يتناشدون الأشعار ، فدخل عليهم ابنُ أبى بكر بن حزم الأنصارى وقال للفرزدق : بلغنى أنك تقول إنك أشعر العرب ، قال الفرزدق وتزعمه مضر ، فقال الأنصارى : وقد قال حسان بن ثابت شعراً فأردت أن أعرضه عليك وأؤجلك فيه سنة ، فإن قلتَ مثله فأنت أشعر العرب و إلا فأنت كذّاب منتحل ، ثم أنشده : —

لنا الجفناتُ الغُرّ يلمعن فى الضُحى وأسيافُنا يقطُرْنَ مِن نَجدةٍ دما

القصيدة . وفى اليوم الثانى جلس الثلاثة وطلع عليهم الأنصارى فأنشده الفرزدق : —

عَرفتَ بأعشاشٍ وما كدتَ تَعزِفُ وأنكرتَ مِن حَدْراءَ ما كنتَ تعرفُ

---

(١) نقائض جرير والأخطل ص ٢٤ (٢) نفسه ص ٢٧

النقيضة . فاكتأب الأنصارى وجاء أبوه فى مشيخة من الأنصار فاعتذروا للفرزدق. وقد رد جرير على الفرزدق بنقيضته :—

ألا أيها القلبُ الطروبُ المكلَّفُ أفِقْ، ربما ينأى هواكَ ويُسعِفُ[1]

فالدافع الأول هو عصبية أنصارية يمنية لحسان بن ثابت ومكانته فى فن الشعر ومحاولة الارتفاع به فوق الفرزدق ، وقد انتهت بتنحية حسان وقومه ، واحتدام المعركة بين شاعرى تميم .

وهكذا تستمر فتجد مظاهر شتى لهذه العصبية بين قحطان وعدنان متصلة بالسياسة ، أوقفاً على القبيله ، أو ملابسة لأمور شخصية أو فنية ، وقد مر شىء من ذلك كالذى كان بين ابن مَيَّادة من غطفان وعقال بن هاشم حين اجتمعا بباب الوليد بن يزيد[2]، وكما يأتى . ونذكر هنا ما كان بين الكميت الأسدى من مضر و بين حكيم بن عياش الكلبى من أهل الشام ، كانا يتهاجيان فى سبيل السياسة ، ثم أخذ الهجاء صورة قبلية ، قال الكلبى : —

ما سرّنى أن أمى من بنى أسد وأنَّ ربِّىَ نجانى من النار
وأنهمْ زوّجونى مِن بناتهمُ وأنّ لى كل يوم ألفَ دينار

فأجابه الكميت : —

يا كلبُ مالكَ أم مِن بنى أسد معروفةٌ فاحترقْ يا كلبُ بالنار
لكنّ أمَّكَ مِن قوم شنئتَ بهم قد قنَّعوكَ قِناعَ الخزى والعار[3]

فذهب الكميت فى نقضه مذهباً منطقياً إذ نفى أن تكون أمه أسدية وأحرقه بالنار تنفيذاً لشرطه ، ثم نزل بأمه إلى الهوان .

* * *

(١) نقائض جرير والفرزدق جـ ٢ ص ٥٤٦ (٢) الأغانى جـ ٢ ص ١٠٨
(٣) الأغانى جـ ١٥ ص ١٢٨ بولاق .

(ب) أما ما كان بين قيس وتغلب فالكلام فيه يطول[١] وحسبك أن تعرف أن بنى تغلب كانت تسكن من قديم بلاد الجزيرة بين دجلة والفرات والخابور وقد بقيت على نصرانيتها واجتهدت أن تحافظ على كيانها المادى والأدبى بين هذه العواصف السياسية الإسلامية وذلك النظام الإسلامى الروحى والاقتصادى الجديد، فوقفت مع الأمويين فى (مَرج رَاهط) ثم خاصمت قيس عيلان وانتهزت فرصة الخلاف بين قيس وأمية وانضمت إلى الأمويين، وإن قامت الخصومة على أصل اقتصادى، اجتماعى، سياسى، فقد زاحمت قيس تغلبَ فى بلادها، ثم أساءت جيرتها، وكانت عاملا سياسياً قويا فيما كان بين أمية والزبير بين من صراع، وكانت أيامها على تغلب شنيعة جارمة. كان لقيس أيامُ ما كَسِين، والثَرثار الثانى، وفُدَين، والسُكَير، والبَليخ، والكُحَيل، والبِشر، وكان لتغلب الثرثار الأول، والشرْعَبيَّة، والحَشَّاك، ثم أصلح عبد الملك بين الحيين فأمر الوليد بن عبد الملك فحمل الدماء بينهما قبل يوم البِشْر، وضمَّن الجحافَ السُلَمى قتلى (البشر) وألزمه إياها عقوبة له فلجأ هذا إلى الحجاج القيسى فى خبر طويل.

وفى شأن تغلب وقيس قال الأخطل قصيدته: —

ألا، يا اسلمى يا هندُ هندَ بنى بَدرِ ... وإن كان حَيَّانا عِدَى آخرَ الدهرِ[٢]

فأجابه نُفَيع بن صَفَّار المحاربى القيسى: —

ألا حَيِّ هِنداً بالنَبيِّ إلى البِشرِ ... وكيف تُحَيِّيها على النأى والهَجْرِ[٣]

وكان الأمر يهونُ لو بقيت المعركة بين هذين الشاعرين أو بين الأخطل وشعراء قيس خاصة، ولكنّ جريراً — وهو من تميم — كان شاعر قيس ولسانها

---

(١) ديوان الاخطل ص ٣٦٢ (٢) نقائض جرير والاخطل ص ٢٨

(٣) نفس المرجع ص ٣٨

فى هذا النظال فلما التحم مع الفرزدق ، ووقف الاخطل يعين الفرزدق على جرير كان من الطبعى أن يهاجم جرير تغلب وشاعرها ، وأن يرد عليه الاخطل فيهجو كليب بن يربوع وقيس عيلان ، وأن ينتصر جرير لرهطه ولقيس على دارم رهط الفرزدق وعلى تغلب وهكذا تعقد الموقف وكانت « نقائض جرير والاخطل » سجل هذه العصبية بين تغلب وقيس أيضاً كما سنفصله فيما يلى .

* * *

(ج) أما عصبية تميم فأكثر فصولا ، وأضخم ثماراً ، وأشد اضطراباً ؛ فكانت فى الجاهلية تسكن بين نجد واليمامة إلى الفرات وجاورت قبائل أسد وباهلة وغطفان وعبد القيس ، وضبيعة ، وبكرا وتغلب ، واتصلت بملوك الحيرة والاكاسرة ، وكثرت أيامها الجاهلية ، ثم أسلمت متأخرة ، وارتدت ، وعادت إلى الإسلام ، وشاركت فى فتوح العراق وفى الاحداث السياسية العامة والقبلية ، وكانت لها عصبيتها على قيس عيلا فى حادث قُتيبة بن مسلم بسبب بنى الاهتم التميميين الذين قتلهم قتيبة ، وفيما كان بين جرير والراعى حين غضب جرير لقومه وقال للراعى وهو يحاوره : « إن أهلى ساقوا بى وبراحلتى حتى وضعونى بقارعة الطريق بالمرِيد ، والله ما ما أُكسبهم دنيا ولا أخرى ، إلاّ لاسُبّ مَن سَبَّهم من الناس »[1] ثم كان من ذلك قصيدة جرير المشهورة : —

أقلِّى اللـــومَ عاذلَ والعِتابا وقولى ، إن أصبتُ ، لقد أصابا

التى هاجم فيها الفرزدق ، وبنى نمير ، والراعى النميرى ، وسارت فى البلاد لقوتها ، وموسيقاها ، وسهولة حفظها ، وكان جرير يسميها الدمّاغة ، ويسميها

---

(١) نقائض جرير والفرزدق ص ٤٢٨

الدَهقانة ، وكان يسمى هـذه القافية المنصورة ، قال: وذلك لأنه قال قصائد على قافيتها كلهن أجاد فيها[١] وقد نقضها عليه الفرزدق بقصيدته :

أنا ابنُ العـاصمين بنى تميم إذا ما أعظَمُ الحدثانِ نابا

حيث فخر بقومـه ، وهجا رهط جرير ، ودافع عن بنى نمـير ، وذكر يوم تغلب على يربوع (يوم إراب حين غزا الهذيل التغلبي بنى رياح بن يربوع)[٢]

ومن ذلك ما كان بين تميم (مجاشع) على لسان الفرزدق و بين قيس (بنى جعفر بن كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة على لسان جرير) وسبب ذلك أن ذا الأهدام متوكل بن عِياض بن حكم بن طفيل بن مالك بن جعفر بن كلاب هجا الفرزدق[٣] فقال الفرزدق يهجو بنى جعفر: —

عرفتَ بأعلى رائس الفأو بعد ما مصت سَـــنةٌ أيامُها وشهورُها

فأجابه جرير يمدح بنى جعفر بن كلاب :

أزُرتَ ديارَ الحيِّ أم لا تزورُها وأنّى من الحيِّ الجمـادُ ودورُها

ومردُّ ذلك ما كان بين جعفر بن كلاب وشبة بن عقال المجاشعى من خصومة حملت بنى جعفر أن يرشوا ذا الأهدام[٤] فاستعان شَـبَّة بالفرزدق فلجأ الفرزدق إلى عَمرو بن لجأ التيمى فعرف منـه مثالب الجعفريين التى هجاهم بها فى نقيضته المذكورة .

ويتصل بهذه العصبية بين قيس وتميم ما حدث بعد مقتـــل قتيبة وما قال الفرزدق فى قيس فى الميمية المشهورة ، فهجاه جندل بن راعى الإبل وذو الأهدام

---

(١) نفس المرجع ص ٤٣٠

(٢) نفسه ص ٤٧٣ : (٣) نفسه ص ٥١٢

(٤) نفسه ص ٩٠٧

الجعفرى[١] فهجاهما الفرزدق وهجا جريراً معهما أيضاً فقال :

محت الديارَ فأذهبتْ عرَصاتِها ... محوَ الصحيفةِ بالبِلَى والمورِ

فأجابه جرير فقال :

سَقياً لِنهيِ حمامةٍ وغديرِ ... بسجالِ مُرتَجزِ الرَّبابِ مَطيرِ

ومن ذلك ما هجا الفرزدقُ الأصمَّ الباهلى :

إخالُ الباهِلِيَّ يظنُّ أنِّى ... سأقعدُ لا يُجاوزهُ سِبابى

فعجز الباهلى عن نقيضتها فأجابه جرير فقال :

ألا حَيِّ المنازِلَ بالجِنَابِ ... فقد ذكَّرْنَ عهدَكَ بالشَبابِ[٢]

وكان للعصبية بين تميم وتغلب مظاهر فى النقائض بدأت قوية حين تدخل الأخطل بين جرير والفرزدق[٣] وأعان الفرزدقَ على ما يأتى تفصيله ، فقال الأخطل : —

إخسأ كليبُ إليك إن مُجاشِعا ... وأبا الفَوارسِ نهشلًا أخوانِ

فقال جرير يرد حكم الأخطل والفرزدق ويهجو محمدَ بن عمير بنِ عُطارد ، ويهجو بنى تغلب فى كلمة له طويلة :

لمن الديارُ ببُرقة الرَوْحانِ ... إذ لا نَبيعُ زمانَنا بزَمانِ

فرد عليه الفرزدق :

يابنَ المراغةِ والهجاء إذا التقَتْ ... أعناقُه وتماحكَ الخصمانِ[٤]

---

(١) نفسه ص ٩٠٩ (٢) نفسه ص ١٠٢٧ — ١٠٣١

(٣) نقائض جرير والفرزدق ص ٤٩٤

(٤) نفس المرجع ص ٨٧٩ ونقائض جرير والأخطل ص ١٩٧

ومن ذلك الحين اختلطت النقائض باختلاط العصبيات وتعقدها وصارت عصبية تميم وتغلب عنصراً من عناصر المناقضة ، يقف فيها الفرزدق مع الأخطل فيهجو قيسَ عيلان ، وكليبَ بن يربوع ، وجريراً ، ويفخر بتميم ودارم وتغلب ويقف فيها جرير عليهما فيهجو دارما وتغلب والأخطل والفرزدق ، ويفخر ببنى يربوع وقيس عيلان وبتميم ، وكلا شاعرى تميم يفخر بمضر أو بخندف أيضاً وينتمى إلى قريش ، وهذا الموقف هو الشائع المسيطر على النقائض فلا حاجة إلى الاستشهاد له هنا .

وأما فى داخل تميم فالأمر عجب ، إذ كانت العصبيات التميمية الداخلية هى منشأ النقائض أولا ، وموضوعها البارز ثانياً ، وما عدا ذلك لم يكن إلا (مُضاعفات) إن صح لنا هنا هذا الاصطلاح الطبى .

من يقرأ مقدمة نقائض جرير والفرزدق يلاحظ أن نشأة النقائض ترجع إلى نزاع بين رهط جرير ، وبين بنى جحيش بن جارية بن سليط ـ وكلا الحيين من يربوع ـ بسبب غدير فاستعان بنو جحيش بغسان بن ذهيل السَليطى فهجا بنى الخَطَفَى رهطَ جرير ، ويدخل فى المناقضة العَنَّابُ أعور بنى نبهان خال بنى ثمامة من سليط ، وفَضالة العُرَنى اليربوعى ، وإلى هنا نجد النقائض تحبو فى حىّ اليربوعيين ، ولكنّ الحوادث قضت بتدخل البَعيث المجاشعى من رهط الفرزدق من تميم أيضاً فيلتحم مع جرير فيعلوه جرير ويهجو مجاشعاً فيأتى نساء بنى مجاشع إلى الفرزدق فيحملنه على ردع شاعر يربوع فيشتبكان ويسقط بينهما البعيث وسائر من تدخلوا فى المناقضة ما عدا الأخطل الذى اشتبك فيها أخيراً وقد كبرت سنه .

ومنذ أخذ هذان الفحلان يتناقضان ظهرت فروع العصبية التميمية الواحدُ بعد الآخر كالذى كان بين جرير من ناحية وبين الفرزدق وآل الزبرقان بن بدر

بدر من ناحية وهؤلاء أقرباء الفرزدق[١] وما كان بين بنى صعصعة و بنى نهشل من مجاشـــع ـ وكلاهما من دارم ـ و ينتصر جرير لنهشل[٢] وكالذى دار بين الشاعرين حول النساء : النوار وحَدراء زوجى الفرزدق ، وجارية جرير وموت زوجه[٣] وهكذا اتخذا المناسبات الصغيرة وغيرها فرصاً للمناقضة والتساب حتى عادت المسألة لجاجة ومراء ، أو نوعاً من المنافسة الفنية وحتى أتى على المناقضة وقت خلت فيه من البغض والتحاسد. وأصبحت فناً أدبياً التقت فيـه روح الشاعرين وتشابه شيطاناهما ولم يجدا لهما نِداً يقف مواقفهما ، فكانت منافضاتهما مظاهر امتيازلها وتقدير كل لصاحبه وحدَبه عليـه إلى درجة الغيرة والدفاع عنـه وقت الشدة ؛ فقد هجا الفرزدقُ هشامَ بن عبد الملك ، وخالد بن عبـد الله القسرى ، فحبسه خالد ولـكن جريراً شفع للفرزدق عند هشام ، ثم رثاه لما مات[٤] وكذلك حدث أن لقى الفرزدق عمر بن عطيـة أخا جرير ، وهو حينئذ يهاجى ابن لجأ ، فقال له : ويلك ! قل لأخيك : ثكلتك أمك ! إيتِ التيميَّ مِن عَلُ كما أصـنع أنا بك . وكان الفرزدق قد أنف لجرير وحمى من أن يتعلق به التيمى ، قال ابن سلام : فأنشدنى له خلف الأحمر بقوله للتيمى :

وما أنت إن قَرْمَا تميم تَساميَا ... أخا التيمِ إلا كالوشيظةِ فى العَظمِ

فلو كُنتَ مَولى العِز أو فى ظِلَالِهِ ... ظُلِمْتَ ،ولـكن لا يدَى لَكَ بالظُلمِ

فقال له التيمى :

كذبتَ أنا القَرْمُ الذى دقَّ ما لِكاً ... وأفناءَ يَربوعٍ وما أنت بالقَرْمِ

---

(١) نقائض جرير والفرزدق ص ٢٥ — ٧١٥ .
(٢) نفس المرجع ص ٩٤١ و ٩٥٢
(٣) نقائض جرير والفرزدق ص ٨٠٣ و — ٨١٩ و ٨٣٧ و ٨٣٩ و ٨٤٧ — ٨٧٩ .
(٤) نفس المرجع ص ١٠٤٦

فأصلحت تميم بين جرير والتيمى وإن لم ينسه جرير[١] .

وحكى أبو عبيدة معمر بن المثنى قال : خرج جرير والفرزدق مرتدفين على ناقة إلى هشام بن عبد الملك الأموى وهو يومئذ بالرصافة فنزل جرير لقضاء حاجته فجعلت الناقة تتلفت فضربها الفرزدق وقال :

إلامَ تَلفِّتِينَ وأنتِ تحتى ... وخيرُ الناسِ كلهم أمامى

متى تَرِدى الرُصافة تستريحى ... من التهجير والدَّبَرِ الدوامى

ثم قال : الآن يجيئنى جرير فأنشده البيتين فيقول :

تلفَّتُ ، أنّها تحتَ ابنِ قَينٍ ، ... إلى الكِيرينِ والفأسِ الكَهامِ

متى تردُ الرصافة تَخْزَ فيها ... كِخزيكَ فى المواسم كلَّ عامِ

قال ، فجاء جرير والفرزدق يضحك ، فقال : ما يضحكك يا أبا فراس ؟ فأنشده البيتين الأولين ، فأنشده جرير البيتين الآخرين ، فقال الفرزدق : والله قد قلت هذا . فقال جرير : أما علمت أن شيطاننا واحد ؟![١] .

ومغزى هذه القصة ـ إذا صحت ـ أمران : أولهما ما سماه وحدة الشيطان أو وحدة الروح الشعرى من حيث فهمهما موقفيهما كل من الآخر ، وكيف ينبغى أن يقال فى كل حالة ، لما مَرنا على القول وعرفا كيف يكون نقض المعانى بينهما ، وهذا نجده بين المتجادلين والمتخاصمين الآن إذ يعرف كل ما ذا يحتج به صاحبه عليه . والثانى أن المناقضة كما رأيت ، كانت فى بعض الأحيان فنا يخلو من الضغائن والأحقاد ، ويصبح ضرباً من الحوار النظمى ، ومجالا للمباراة الأدبية مع احترام كل صاحبه ، وعرفانه قدره وبراعته فى باب النقائض ، وتفردها فيه بالمكانة الممتازة .

---

(١) الأغانى جـ ٨ ص ٧٧ دار الكتب

(٢) وفيات الاعيان لابن خلكان جـ ١ ص ١٠٣ والنقائض ١٠ ١٠ و ١٦ ١٠

وأمر آخر تشير إليه هـذه الأبيات ، هو مذهب الشاعرين فى النقائض فقد غلبت على الفرزدق سمة الفخر واشتقاق المعانى من حسبه كما غلبت وعلى جرير سمة الهجاء والسباب ونشر مخازى منافسه كما رأيت .

* * *

(د) وهناك هذه العصبية بين العرب والموالى[1] لاعتزاز العرب بالدين ، واللغة ، والجنس ، وتعاليهم على الموالى . فتولدت فى نفوس هؤلاء عصبية جنسية تعتز ، وبخاصة عنـــد الفرس ، بماضيهم المجيد وبلائهم فى الأيام الإسلامية ، وأنكروا على العرب خروجهم على أصل المساواة التى هى روح الدين الإسلامى وتولد عن ذلك حزب سياسى يدعو إلى الكسروية . والذى يعنينا هنا أن هذه العصبية اتصلت بالنقائض ،وكان جرير هو الذى أثارها كما كان موقفه من الموالى مضطربا[2] ففى إحدى نقائض جرير مع الاخطل قال جرير :

لا تطلُبَنَّ خُؤولةَ فى تغلبٍ فالزَنجُ أكرمُ منهمو أخوالا

فغضب العبيد من الزَنج وقال رجل منهم يقال له سَنيح بن رياح مولى لبنى ناجية يرد عليه :

إن الفرزدق صخرةٌ ملمومةٌ طالت ، فليس تنالُها ، الاوعالا
قدقِسْتُ شِعرك يا جرير وشعرَه فقَصرتَ عنـه يا جـرير وطالا
ووَزنتُ فخرَك يا جريرُ وفخرَه فخففْتَ عنه حين قُلتَ وقالا
الزَنجُ لو لاقيتَهم فى صَفِّهم لاقيتَ ثَمَّ جحاجحاً أبطالا
كان ابنُ نَدْبة فيكمُ من نجلنا وخُفافٌ المتحمِّلُ الأثقالا

---

(١) تاريخ الشعر السياسى للمؤلف ص ١٨٤ ط ١ (٢) نفس المرجع ص ٢٦٤

فَسَلِ ابن عَمرٍ وحينَ رامَ رِماحهم أرأى رِماحَ الزَنجِ ثَمَّ طِوالا[1]

ولا يستطيع أن يدرك خطرَ العصبيات ومبلغ آثارها فى النقائض إلا مَن يقرأ النقائض نصوصَها ، وشروحها ، وعواملها التاريخية والاجتماعية ، فهناك يدرك أن هذه العصبيات كانت فى ظل الإسلام أبعدَ أثراً فى هذا الفن الشعرى منها أيام الجاهلية .

٤

على أن الحياة الأدبية ، فى العصر الأموى ، كانت ذات أثر واضح فى النقائض ، ولا سيما ما كان للشعر من منزله وآثار فى هذه الحياة الإسلامية .

فمن الملاحظ أن الأدب ، فى هذه الفترة الأموية ، كان أدباً إسلامياً على العموم ، وإنما أريد باسلاميته أنه كان ثمرة هذه الحياة الجديدة التى بدأتها الدعوة المحمدية وكان القرآن الكريم عمودها الأدبى والشرعى وفى ظلها نشأ هذا الجيل الأموى من الشعراء ، والخطباء ، والكتاب ؛ فكانت آثارهم متأثرة بهذه العوامل خاضعة لتياراتها السياسية والاجتماعية والعقلية وللقرآن الكريم ، وهو بذلك يختلف عن الأدب الجاهلى وعن أدب المخضرمين الذين مثلوا فترة الانتقال بين الجاهلية والإسلام .

وأما عربية هذا الأدب ، فمهما يكن هذا الأدب متأثراً بالآداب الفارسية واليونانية ، فقد غلب عليه الطابع العربى من حيث موضوعاته ، ومعانيه ،

---

(١) نقائض جرير والأخطل ص ٨٨ — اللهومة المجتمعة المدورة ، والأوعال تيوس الجبال . ابن نديه هو خفاف أحد أغربة العرب ، وابن عمرو هو حفص بن زياد العتكى كان على شرطة الحجاج .

وأساليبه ، ومردُّ ذلك قرب الدولة من عهد البداوة ، ومكانة القرآن العربى ، وعدم غرق الامة فى الحضارة الفارسية ، وميل الحكام إلى النزعة العربية وسلطانها ، فكان الادب الاموى أدبا محافظاً فى الغالب ، على الرغم من تأثره بالحياة الجديدة ، ولا سيما عند شعراء النقائض الممتازين . تعرف ذلك إذا وازنت بينه و بين الادب العباسى حين دخل الفرس فى كيان الدولة بسياستهم ، وتقاليدهم ، وآدابهم ، وتاريخهم ، وعصبياتهم فإذا بالاب العباسى أدب خضرى جديد[١] .

و إذا كانت الكتابة قد تأخر استواؤها إلى أحريات العهد الأموى فإن الخطابة قد بقيت تنهض بأغراضها الدينية ، والسياسية ، والاجتماعية قوية موفقة إلى آخر العصر الاموى وشطر من العصر الباسى ، ولكن الشعر كان الفن الادبى الممتاز الذى أعاد لنفسه مكانته الجاهلية وأربى عليها فى طول قصائده ، ورقيها الفنى ، وتجدّد فنونه ، واستخدامه فى الغايات السياسية ، وما كان له من آثار اجتماعية ، و إقامة مدارس نقدية ، و بلوغ نقائضه غايتها التى لم يظفر بمثلها فى تاريخ الادب العربى جميعه .

ولعل التجديد الشعرى كان أشد ظهوراً فى فنون الغزل[٢] والسياسة[٣] والهجاء وهذا الأخير من فنون النقائض الهامة بضاف إليه الفخر ، وتعد سائر الفنون تواعَ للفخر والهجاء فى هذا الباب الذى نؤرخه .

كانت نهضة الغزل فى الحجاز لما أسبقنا من أسباب[٤] وكانت نهضة الشعر السياسى فى العراق غالباً إذ كانت العراق مقر المعارضة السياسية ومنبع الأحزاب

---

(١) راجع فى ذلك فجر الاسلام وضحى الاسلام حـ ٢ لاحمد أمين .
(٢) حديث الاربعاء حـ ٢ لطه حسين . (٣) تاريخ الشعر السياسى لاحمد الشايب .
(٤) فجر الاسلام لاحمد أمين ص ٢٩٧ .

والفرق ، كما كانت مثار العصبيات ، وموطن النقائض الأصيل ، وكان هـذا الصخب السياسى يسـايره صخب عصبى بحيث يكون تاريخ النقائض مسايراً ـ أو موازياً ـ لتاريخ الشعر السياسى ، والواقع أن كلا من هذين الفنين بدأ حياته منذ الجاهلية ، وكان ظاهرة طبيعة للأطوار الاجتماعية التى مرت بهذه الأمة إلى آخر ـ و بعد ـ هـذا العصر الذى بلغت فيه النقائض ذروتها .

والذى يعنينا أن نشـير إليه هنا أن نشاط النقد الأدبى كان من عوامل المنضلقة ومقوماً من مقوماتها ؛ كانت المفاضله بين هؤلاء الفحول أصـلا شائعاً وثمرة طبعية لإنتاجهم النشيط ، وتصارعهم الفنى ، شـغل الناس فى الأمصار والبوادى وانتهى إلى ميادين القتال بين جيوش المهلّب بن أبى صفرة والازارقة من الخوارج إذ تحاكم جماعة من العرب إليه فى الفصل بين جرير والفرزدق أيهما أشعر ، فأحالهم على الأزارقة فحكم عُبَيـدة بن هلال اليشكرى لجرير[٢] ، ووفد رجل من رهط الفرزدق على امرأة من بنى حنيفة فلمـا عرفت أنه من بنى نهشل قالت : أنت ، إذاً ، ممن عناه الفرزدق بقوله :

إن الذى سمك السماء بنى لنا بيتاً دعائمُه أعز وأطول

بيتاً بناه لنـــا المليك ، ومابنى مَلِكُ الســـماء فإنه لا يُنقَلُ

بيتاً زُرارةُ مُحتَبٍ بِفِنـــائهِ ومُجاشِـعٌ وأبو الفَوارسِ نَهشَلُ

قال : نعم وأعجبه ما سمع منها ، فضحكت وقالت : فإن ابن الخطفَى قد هدم عليكم بيتكم هذا الذى فخرتم به حيث يقول : —

أخزى الذى رفع السماء مُجاشِعاً وبنى بناءك بالحضيض الأسفَلِ

---

(١) الاغانى جـ٧ ص ٢ ص ٤٤ .

بيتاً يُحَمِّمُ قينُكم بِفِنـــائه دَنِساً مقـاعدُه خبيثَ المدخَلِ

فوجِم الرجل ، فقالت له : لا عليك ، فإن الناسَ يُقالُ فيهم ويقولون[1] .

ذلك شيء ، وشيء آخر أن الشعراء وغيرهم دخلوا بين جرير والفرزدق ، وكانت كثرتهم الساحقة مع الفرزدق على جرير فسقطوا ما عدا الأخطل ، وكان هذا التجمع لعوامل سياسية ، وعصبية ، وفنية ، وشخصية ربما كان منها سلاطة جرير ، وشدة هجائه ، حتى عاد سريع التأثر أو شاعراً «بمركب النقص» لفقره فصبّ جامَ غضبه على جميع من عرض له . رأينا ذلك حين اجتمع جرير والفرزدق والأخطل عند بشر بن مروان ، وكان بشر يغرى بين الشعراء فقال بشر للاخطل : أحكم بين الفرزدق وجرير فحكم بينهما فغضب جرير وهجا الأخطل ثم استطار بينهما الهجاء[2] ، وفى رواية أخرى أن الأخطل حكم أولا لجرير على أثر وفادة ابنه إلى العراق ، ثم قدم على بشر بن مروان بالكوفة ، فرشاه محمد بن عُمَير ابن عُطارد المجاشعى ليعدل عن رأيه ، وينصر الفرزدق ففعل ذلك ، فبلغ ذلك جريراً فرد على الاخطل ، وهجا محمد بن عمير بن عطارد وبنى تغلب ، ورد عليه القرزدق ، وندم الاخطل لدخوله بين رجلين من تميم ، ثم وقف أخيراً مع الفرزدق وسقط المتعرضون بين هؤلاء الثلاثة[3] وممن أعانوا على جرير البَعيثُ ، فضّل عليه غسانَ السَليطى ، والفرزدقُ أعان البعيثَ ، وبشرُ بن مروان الذى حمل سُراقة البارقى على هجاء جرير ، والبلتَعُ العنبرى أعان ابن لجأ ، والراعى أعان الفرزدق ، وعمرو بن لجأ أفسدَ شعر جرير وعبث به ، والعباسُ الكندى سخر به

---

(١) الأغانى جـ ٨ ص ٤٤ . (٢) نفس المرجع ص ٣١٦ .

(٣) راجع نقائض جرير والفرزدق ص ٤٩٤ و ٨٢٩ والأغانى جـ ١١ ص ٦١ و جـ ٨ ص ١٧ ونقائض جرير والأخطل ١٩٢

والمرّارُ بن منقذ أعان عليه الفرزدقَ ، وهبيرةُ بن الصلت الرَبَعى روى شعر الفرزدق وهكذا تألبت كثرة على جرير فدفعهم عن نفسه سليطاً قويا مناقضاً[١] .

و بجانب ذلك كان هؤلاء الفحول ينقد بعضهم بعضاً ، و يعتزون بشعرهم ، فقد مر راكب بالراعى وهو يغنى ببيتين لجرير وهما : —

وعاوٍ عوَى مِن غير شيء رميتُه ... بقاعةِ أنفـــاذُها تقطر الدما

خروجٍ بأفواه الرواة كأنها ... قَرا هُنداونِيٍّ إذا هُزَّ صَمَّما

فأتبعه الراعى رسولا يسأله لمن البيتان ؟ قال : لجرير . قال : لو اجتمع على هذا جميع الجن والأنس ما أغنوا فيه شيئاً . ثم قال لمن حضر : ويحكم أألام على أن يغلبنى مثل هذا ؟[١] ، وقال الفرزدق فى جرير : ما أخشن ناحيته ، وأشرد قافيته ، والله لو تركوه لابكى العجوز على شبابها ، والشابة على أحبابها ولـكنهم هرّوه فوجدوه عند الهِراش نابحاً ، وعند الجراء قارحاً وقد قال بيتاً لَأن أ كونَ قلتُه أحبُّ إلى مما طلعت عليه الشمس : —

إذا غضِبتْ عليك بنو تميم ... حسبتَ الناسَ كُلَّهمُ غِضابا[٣]

وقد تقدم القول الذى أثنى فيه الفرزدق على نسيب جرير بالمدينة ، ولما أجاز الفرزدق أشطار جرير ، وعرف أنه أصاب فى ذلك ، قال : هكذا ينبغى أن يقال ، أو ماعلمت أن شيطاننا واحد ! وقال جرير : نبعة الشـــــعر الفرزدق ، والاخطلُ يجيد صفة الملوك ، و يصيب نعت الخمر ، وأنا نحرت الشعر نحراً[٤] وقال الفرزدق وقد سأله رجل من دارم ، هـل تعلم اليوم أحداً يرمى معك : لا ، والله ما أعرف نابحاً إلا وقد استكان ، ولا ناهشاً إلا وقد انحجر إلا جريراً[٥] وقال

---

(١) راجع الأغانى جـ ٨ ص ١٤ — ٢٨ .

(٢) الأغانى جـ ٨ ص ٩ (٣) نفس المرجع ص١١ و٣٢

(٤) ص ٣٤ (٥) ص ٣٥

جرير عن نفسه إنه أشعر الناس لأنه فاخر بأبيه — على لؤمه — ثمانين شاعراً وقارعهم به فغلبهم جميعاً[١] وقال فى ذى الرمة ، وقد سمعه ينشد : « لقد قال وما أنعم »[٢] وعرف كل من ذى الرمة وهشام المرئى شعر جرير بقوته . وقال جرير عن الأخطل : أدركته وله ناب واحد ، ولو أدركته وله ناب آخر لأكلنى به ، ولكن أعاننى عليه خصلتان : كبر سن وخبث دين[٣] وقال فيه : كان أشدنا اجتزاء بالقليل وأنعتنا للخمر والخمر ، وقال الفرزدق : الأخطل أمدح العرب[٤] وقال الأخطل ، وقد سئل عن مكانته بين زميليه : أنا . واللاتِ ، أشعر منهما[٥] وقد وضع الأخطل نفسه بعد الأعشى وطرفة[٦] وفضلهما على الشعراء فى المديح والهجاء والنسيب[٧] وكان الفرزدق يقول لجرير : —

غلبتُكَ بالمفَقَّىء والمعنىِّ وبيتِ المحتبى والخافقاتِ

ألقاب أبيات له[٨] ويدعو جريراً إلى نقض قصيدته فيقول : —

فدونكَ هذى فانتقضها فإنها شَديدٌ قُوَى أمراسِها ومَواصِلُهْ[٩]

كل ذلك ، وغيره كثير ، يدل على إدراك هؤلاء الفحول مكانتهم فى الشعر ، وموافقهم فى المنافسة والمناقضة ، ومقدار اتصالهم النفسى والفنى حتى صاروا مدرسة عصرهم الأولى وزعماء الشعر القديم .

كذلك شغلوا معاصريهم ومن بعدهم بنقدهم هذه النقائض ، ودرجة فهم وما علوا به إلى ذورة النظم العربى القديم حتى قال ابن الأثير إنهم أشعر العرب[١٠] وقد كان نقدهم اجتماعياً وفنياً ، وكثيراً ما ورد النوعان مختلطين فيروى ابن سلام

---

(١) الأغانى جـ ٨ ص ٤٩ (٢) نفسه ص ٥٤ (٣) نفسه ص ٢٨٥
(٤) ص ٤٨٦ (٥) ص ٢٨٨ (٦) ص ٢٩٣
(٧) ص ٢٩٧ (٨) نقائض جرير والفرزدق ص ٧٧٤
(٩) المرجع السابق ص ٦٢٩ (١٠) المثل السائر ص ٤٩٠ بولاق .

أن جريراً وصاحبيه أشعر أهل الإسلام ويلحق بهم الراعى ، وكان يونس فرزدقياً وقال ابن دأب : الفرزدق أشعر عامة وجرير أشعر خاصة (والمشهور نقيض ذلك) وأبو عمرو يُشَبِّهُ جريراً بالأعشى ، والفرزدق بزهير ، والأخطل بالنابغة ، ويحتج من قدّم جريراً بأنه كان أكثرهم فنون شعر وأسهلَهم ألفاظاً ، وأقلّهم تكلفاً ، وأرقّهم نسيباً ، وكان ديّناً عفيفاً[1] وقال العلاء بن جرير العنبرى ، وكان شيخاً قد جالس الناس : إذا لم يجىء الأخطل سابقاً فهو سُكّيت ، والفرزدق لا يجىء سابقاً ولا سُكّيتاً ، وجرير يجىء سابقاً ، ومصلياً ، وسُكيتاً ، وبنو أسد يرون جريراً قد غلب فى بيوت الشعر الأربعة : الفخر والمديح والهجاء والنسيب[2] وسئل بشار بن بُرد : أى الثلاثة أشعر ؟ فقال : لم يكن الأخطل مثلهما ، ولكن ربيعة تعصبت له ، وأفرطت فيه ، وكانت لجرير ضروب من الشعر لا يحسنها الفرزدق[3] وعند حماد الراوية أن جريراً أشعر إذا أُرخى من خِناقه والفرزدق أشعر إذا خاف أو رجا[4] وقد فضلت سُكينة بنت الحسين جريراً على الفرزدق[5] وعده ابن مناذر أشعر الناس لقوة شعره[6] وقد لقى الوليد بن عبد الملك جريراً وابن لجأ بالمدينة فقال، أتقذفان المحصناتِ وتغضبانهن ، ثم أمر أبا بكر محمد بن حزم الأنصارى ـ وكان والياً بالمدينه ـ بضربهما[7] وقال جرير لرجل من بنى طُهَيَّة : أيما أشعر أنا أم الفرزدق؟ فقال له : أنت عند العامة ، والفرزدق عند العلماء ، فصاح جرير : أنا أبو حزرة ! غلبتُه وربِّ الكعبة ! والله ما فى كل مائة رجل عالم واحد[8] . ولشبة بن عقال وخالد بن صفوان موازنة بين الفحول الثلاثة لما سألهما

---

(١) الاغانى جـ ٨ ص ٥ . (٢) نفس المرجع ص ٦ .
(٣) ص ١٠ (٤) ص ٣٧ (٥) ص ٣٨
(٦) ص ٥٩ (٧) ص ٧١ (٨) ٧٩

ذلك هشام بن عبد الملك عن هؤلاء الذين قد مزقوا أعراضهم ، وهتكوا أستارهم، وأغروا بين عشائرهم فى غير خير ولا بِرّ ولا نفع أيهم أشعر[١] وكان يونس وصحبه يقدمون الأخطل[٢] وأما عبد الملك بن مروان فقد قال للأخطل ـ لما سمع مدحه ـ ويحك يا أخطل ! أتريد أن أكتب إلى الآفاق أنك أشعر العرب ؟ قال : أكتفى بقول أمير المؤمنين وأمر له بجفنة كانت بين يديه فملئت دراهم وألقى عليه خِلَعاً وخرج به مولى لعبد الملك على الناس يقول : هذا شاعر أمير المؤمنين ، هذا أشعر العرب[٣] .

وقد ذكروا الفرزدق وجريراً فى حلقة المدائنى فقال أبو غسان لصبَاح ابن خاقان : أنشدك بيتين للأخطل ووتجيء لجرير والفرزدق بمثلهما ! قال : هات فأنشدته : —

ألم يأتِهـــا أنَّ الأراقم فلّقت ... جماجِمَ قيس بين راذانَ والحَضْرِ
جماجمَ قوم لم يعـــافوا ظُلامةَ ... ولم يعرفوا أين الوفاء مِن الغدرِ

فسكت[٤] وقال ابن سلام إن معاوية بن أبى عمرو بن العلاء : أى البيتين عندك أجود : قولُ جرير : ـ

ـ ألستُم خيرَ مَن ركبَ المطايا ... وأندى العالمين بطونَ راحِ

أم قولُ الأخطل : ـ

شُمسُ العداوةِ حتى يُستقادَ لهم ... وأعظمُ الناسِ أحلاماً إذا قدروا

فقال ابن سلام : بيت جرير أحلى وأسير و بيت الأخطل أجزل وأرزن ، فقال صدقت ، وهكذا كانا فى أنفسهما عند الخاصة والعامة[٥] .

---

(١) الأغانى جـ ٨ ص ٨١ (٢) ص ٢٨٣ (٣) ص ٢٨٨
(٤) ص ٢٩١ — الأراقم حى من تغلب . (٥) ص ٣٠٥

هذه النصوص النقدية التى أشرنا إليها تدل على أن النقائض كانت منكرة من حيث تناولها الأعراض ، وتفريقُها بين العشائر ، وإشاعتُها السباب وهُجرَ القول ، وتجاوزُها فى ظل الإسلام حدوداً لم تبلغها فى الجاهلية ، ولكنها كانت مشغلة الفحول ، ومدرسة النقاد ، وصحف القبائل ووسائل الرِفعة والضَعة شأن الشعر الجاهلى ، وكانت الحياة الأدبية وتياراتها النقدية ومقاييسها الفنية ، من دوافع المناقضة ، ومحاوله تجويدها ، فكانت النقائض متفاعلة مع الحياة الأدبية مؤثرة ومتأثرة ؛ فاحتفظت بأساليب الشعر العربى القديم ، وأبقت على فنونه ، ورَقّتها ، وأطالت القصائد ، وتمسكت بأصول المناقضة ، وغذت الذوق السائد بين المحافظين ، وانتفعت بالنقد الذى اتصل بهما .

هذه العوامل التى ذكرناها ـ سياسية ، واجتماعية ، وفنية ـ كانت معالم البيئة التى أحاطت بالنقائض ، وأثرت فيها ، وهناك الصلات الخاصة بين الشعراء ، أو العوامل القبلية الجزئية التى لم تسر فى غمار العصبيات الكبيرة التى شغلت الفحول ، فكانت أمثلة متفرقة نعرض لها فى فصل خاص . ومعنى هذا أن النقائض فى العصر الأموى كانت قسمين قسما خاصاً نهض به الفحول ، وقسما عاماً مفرقاً بين الشعراء .

الفصل الثانى

نشأة النقائض الأموية وفنونها

١

رأينا فيما سبق أن النقائض خفت صوتها بانتهاء الغزَوات الإسلامية فى حياة الرسول عليه السلام ، وأن عهد خلفائه الأولين كان عهد فتوح خارجية لنشر الدين وإقامة الدولة ، لذلك شغل العرب بالجهاد عن الفراغ للمفاخرة والمهاجاة الداخلية ، واستتبع ذلك أن يكون الشعر الذى ينشأ متصلا بهذه الفتوح وأن يكون حماسة وفخرا فى الغالب وأن يتصل ببلاء الجيوش الإسلامية ، وفتوحها فى بلاد فارس والروم ، كما استتبع أمرا آخر هو العناية بالأمن الداخلى وأخذُ الناس ، وبخاصة الشعراء ، بتعاليم الإسلام وترك المهاجاة الجاهلية وما تنتج من ملاحات ومفاخرات[١] فرأينا عمر بن الخطاب يهدد النجاشى الحارثى لهجائه بنى العَجْلان[٢] ويحبس الحطيئةَ لما هجا الزِبْرِقان بن بدر ثم يطلقه ويشترى منه أعراض الناس[٣] ورأينا عثمان بن عفان يعزر ضابئاً البُرْجمى ويحبسه حتى يموت فى السجن لأنه هجا قوماً من الأنصار هجاء فاحشاً[٤] .

وقد تأثر الشعر بذلك كله فقلّت العناية به وهدأ سلطانه وإن لم يتركه العرب

---

(١) تاريخ الشعر السياسى للمؤلف ص ٩٩ (٢) الشعر والشعراء ١١٥ مصر .
(٣) الأغانى جـ ٢ ص ١٨٥ دار الكتب .
(٤) الطبرى جـ ٢ ق ٢ ص ٢٨٤ والنقائض ٢١٩

تماماً بل ظل جماعة من الشعراء يقولون فى المديح والرثاء والفخر كالحطيئة والشماخ ابن ضرار ، وكعب بن زهير ، والنابغة الجعدى ، وغيرهم ممن أطاعوا مواهبهم الأصيلة ولم يعقوها .

فلما قتل عثمان بن عفان ، وكانت الفتن بين العراق والشام أو بين على ومعاوية فى سبيل الحكم الإسلامى والظفر بكرسى الخلافة[1] كان من الطبعى أن يتدخل الشعر فى هـذا الخلاف ، وأن يأخذ صورة الجدل بين هذين القطرين أو صورة المناقضة ، فكان كعب بن جُعَيل شاعرَ معاوية كما كان النجاشى الحارثى شاعرَ علىّ ، وكان من ذلك مناقضة سياسية مشهورة[2] دارت على كراهة العراق مَلِك الشام وكراهة الشام مَلِك العراق . وكذلك كانت بين على ومعاوية مناقضات نثرية فى صورة رسائل أشرنا إليها فى التمهيد لهذه الفصول[3] .

ولما استقرت الحكومة فى البيت الأموى وتسلم معاوية بن أبى سفيان زمام السلطان بدأ طور جديد فى نظام الدولة الإسلامية وروحها ، يتلخص فى أنه مُلك عضوض . وحكم دُنيوى ، يحبس الخلافة فى بيت بعينه ، يتوارثها بنوه ، ومَن خرج عليهـم كان ثائراً ينبغى قمعه بكافة الوسائل ، ومتى كانت هذه هى الغاية فلتكن وسائلها ما تكون ولو بالجور على الدين ، ولذلك توارى هـذا التحرج الدينى ، وتلك العدالة المثالية ، والقضاء على الحمية الجاهلية ، وعادت الحياة الإسلامية فى ظل الأمويين خاضعة لعوامل فيها عناصر جاهلية وأخرى إسلامية ، ولكنها تتسم جميعها بسمة واحدة عامة هى ملاءمتها للسياسة القائمة وخضوعها لنزعاتها العملية ، فهذه العصبيات القبلية تقوى وتستأنف نشاطها القديم وتبلغ فى

---

(١) تاريخ الشعر السياسى ص ١١٦ ط ١ (٢) الأخبار الطوال ص ١٦٢ .
(٣) راجع العقد الفريد جـ ٢ ص ٢٠٠ المطبعة الشرقية .

آثارها درجة جاهلية أو تزيد . وتكون أقوى العوامل فى نشأة النقائض وسعة ميادينها ، وهذه الأحزاب السياسية تصطرع فى سبيل الحكومة وتمد النقائضَ بمدَد فيّاض وتوجهها فى كثير من المواقف ، وتلك الحياة الاجتماعية التى أطلقت فيها الحريات إلى حدّ مَا فظهرت الملاحاة الشعرية واعتمدت على النقائض فى تصوير حوادثها ، ثم العصبية العربية على الموالى التى بدت سماتها فى الشعر السياسى والنقائض ، وكانت هذه الحياة الأموية صالحة لقيام هذا الفن واستعادته مكانته الجاهلية الأولى أو أن هذه الحياة الأموية كانت فى الشعر حياة جاهلية إلى حد كبير ، لذلك عاشت النقائض فى ظله ، وسايرته إلى نهايته ، وبلغت فى درجتها الفنية ، وآثارها الأدبية والاجتماعية منتهى ما بلغت فى تاريخ الشعر العربى جميعه .

— ٢ —

فإذا رحنا نلتمس شواهد النقائض فى هذه الفترة الاموية ، ونتبين دوافعها لنعرف نشأتها ، رأيناها كثيرة متتابعة من عهد معاوية إلى سقوط الدولة وبعد سقوطها ، وكانت تسير فى سبيل عامة تعود أسبابها إلى السياسة أو العصبية القبلية أو العلاقات الشخصية . كذلك سارت فى سبيل خاصة أو ممتازة لمثل تلك الاسباب ولغيرها مما يمر بك قريباً . وهى سبيل الفحول الذين شهدوا بها كجرير وصاحبيه .

وإذا لاحظنا أن ما دار بين كعب بن جعيل والنجاشى الحارثى من أول النقائض الأموية — إن لم تكن أولها — فإنا نرى أنه فى عهد معاوية نفسه أخذت النقائض تجرى على ألسنة الشعراء فى مناسبات شتى ، من ذلك ما دار بين هُدبة ابن خَشرَم العُذرى وزيادة بن زيد الذبيانى ، فقد اصطحبا وهما مقبلان من الشام فى ركب من قومهما إلى المدينة زمن معاوية وعلى المدينة يومئذ سعيد

ابن العاص ، فكانا يتعاقبان السَوق بالإبل ، وكان مع هُدبة أخته فاطمة فنزل زيادة فارتجز : —

عُوجي علينا واربَعي يا فاطِمَا ما بينَ أن يُرَى البعيرُ قائما
ألا ترَين الدمعَ مِنّى ساجِما حِذارَ دارٍ منك لن تلائما

إلى آخره . فغضب هدبة حين سمع زيادا يرتجز بأخته فنزل فرجز بأخت زيادة وكانت تدعى أم خازم أو أم قاسم : —

لقد أرانى والغلامَ الحازما نُزْجِى المطىَّ ضُمَّرا سَواهِمَا
متى تقول القلّصَ الرواسما يبلُغن ، أم خازم وخازما

الأبيات ، ثم جعلا يتهاديان الأشعار ويتفاخران ويطلب كل منهما العلوّ على صاحبه فى شعره وسيأتى شيء منه[1] وكذلك ما كان بين ابن أرطاة وبعض الشعراء فى مقتل سعيد بن عثمان[2] وما كان بين حارثة بن بدر اليربوعى وأنَس ابن زُنيم الليثى[3] وبين سَلمان العِجلى والأبيرد بن رياح اليربوعى[4] وبين الأبيرد — ومعه ابن عمه الأحوص الرياحى — وسُحَيم بن وَثيل الرياحى من يَربوع[5] .

ولما مات معاوية وقام بالأمر يزيد ابنه وتحركت الأحزاب السياسية ومعها العصبيات مهد ذلك لنشاط النقائض حتى إن نقائض جرير ومهاجمته مع غسان السليطى والبعيث المجاشعى بدأت أيام ملك ابن الزبير فيما يقال ، واستمرت حتى

---

(١) الأغانى جـ ٢١ ص ٢٦٥
(٢) نفس المرجع جـ ٢ ص ٨٤ بولاق
(٣) جـ ٢١ ص ٢٣
(٤) جـ ١٢ ص ١٠
(٥) جـ ١٢ ص ١٠

التحم جرير والفرزدق[١] ولما كانت وقعة مَرْج راهط التحم عمر بن محلاة الكلبي ، فى عهد مروان بن الحكم ، مع زُفر بن الحارث الكلابى[٢] وتناقض جوّاس الكَلْبى مع مَعبد بن عمرو الكِلابى[٣] ثم زُفر بن الحارث مع جوّاس ابن القعطل الكلبى[٤] واتصل ذلك بما دار بين جرير والأخطل فى شأن قيس وتغلب[٥] .

فلما كان عهد عبد الملك كانت الأحزاب تامة التكوين والعصبيات على أشدها ، والنقائض ، لذلك ، حامية الوطيس ، والفحول ولا سيما جريراً وصاحبيه يشغلون الحياة الأموية بما يتبادلون من المفاخر والأهاجى والعالم العربى يستمع إليهم ما بين مُعجَب ، وساخط ، وراض ، والأمور متأثرة بصيحات هؤلاء ، والقبائل مختفية بما تكسبها النقائض من صِيت ، أو ناقمة لما أصابها من ضعة وهوان ، ويموت عبد الملك وتبقى النقائض عالية الصوت ، متأثرة بالسياسية ، زمن خلفائه ، ويموت الأخطل سنة خمس وتسعين فى عهد الوليد بن عبد الملك ، وتستمر المعركة قائمة بين فحلى تميم حتى يموتا سنة عشر ومائة أيام هشام بن عبد الملك وبذلك تنهى هذه المناقضة الخاصة ، ولكن هذا الفن كان يجرى على ألسنة الشعراء الآخرين خافتَ الصوت متناثر العوامل والنصوص كما نُصوره فى فصل خاص، حتى وجدنا الكُمَيت الأسدى ملحوظ المكانة فى هذا الفن وبخاصة حين أثار ما بين النزارية واليمانية بقصيدته التى أولُها : —

ألا حُيِّيتِ عنَّا يا مَدِينا وهل ناسٌ تقولُ مسلّمينا

---

(١) النقائض ص ١٢٤

(١) نقائض جرير والأخطل ص ١٧ .

(٣) نفس المرجع ص ١٩ .

(٤) نفسه ص ٢٤ (٥) نفسه ص ٢٧

فيأتى دِعبل بن على الخزاعى فينقضها عليه ويذكر مناقب اليمن ويعرض بغيرهم ، وذلك فى قصيدته التى أولها : —

أفيقِى مِن مَلامِكِ يا ظَعِينا كفاكِ اللومَ مَرَّ الأربَعينا

وهذه القصيدة الثانية من آثار العصر العباسى[١].

— ٣ —

فإذا أردنا تَبَيُّنَ الأسباب التى أنشأت هذه النقائض وجدناها تدخل فى عدة أبواب نوجزها هنا وإن تناولناها من قبل بصفة عامة : —

منها الاقتصاد وأسباب العيش ، ولاشك أن نقائض جرير والأخطل متأثرة بهذا السبب إذ أنها قامت على ما كان بين قيس وتغلب من عداوة مردّها المنافسة على أرض الجزيرة واستغلالها منذ نزلت قيس فِنَّسرين ، واعتصمت بقَرْقِيسياء ، وأساءت جوار تغلب ، وكانت بينهما أيام شنيعة أرَّثت الأحقاد ، ووقفت جريراً والأخطل وغيرهما متناقِضين[٢] كذلك كانت نقائض جرير مع غسان والبعيث بسبب غدير بالقاع اعترك فيه بنو جُحَيش بن سَيف بن جارية بن سَليط ، وبنو الخَطَفَى قومُ جرير[٣] وقد قامت الملاحاة بين خالد بن علقمة بن دارم وبين سُوَيد بن كُراع العُكلى فى خَبْرَاء بالصَمَّان يقال لها ذات الزجاج تنازع فيها بنو السِيد بن مالك من ضبة وبنو عدى بن عبد مَناة[٤] وكانت بينهما دماء .

ومنها السياسة الدولية والحزبية ، وهذا الجانب ذو مظاهر شتى ، فقد كان موقف قيس عيلان مع الزبيريين على بنى أمية فى (مرج راهط) ثم مكانتهم فى

---

(١) مروج الذهب جـ ٣ ص ١٥٩ . (٢) ونقائض جرير والأخطل ص ١ — ٢٧
(٣) نقائض جرير والفرزدق ص ٢ — ٧ (٤) الأغانى جـ ١٥ ص ٢٧ .

فى الشام والجزيرة مما أخاف تغلب وشغل بنى أمية وعيّن موقف جرير من الاخطل ثم موقف الفرزدق منهما فى هذا الفن المعتيد ، وهذا يفسر لنا ، كما مر ، احتماء تغلب بالبيت الحاكم فى دمشق ومكانة الاخطل فى القصر الملكى ، وإيثاره على جرير ، ثم فزع التغلبيين لما رأوا قيس عيلان تقترب من دمشق ، وما دار حول هذا من نقائض اشترك فيها أقطابها الثلاثة . هذا وقد رأينا بشر بن مروان يجمع الشعراء على جرير ويغريهم به ما دام يخطب جرير فى حبل قيس ، وذلك كان من بشر تأييداً لسياسة آل مروان كما عرفت[1] وكانت ولاية العهد ذات أثر فى النقائض ، وقد أشرنا إلى نظرة سليمان بن عبد الملك إلى موقف تميم منه فى خراسان أول عهده بالخلافة ، وكيف أصلحه وكيع بن أبى سَوْد وصوّره الفرزدق إثر مصرع قتيبة بن مسلم الباهلى . ولما خرج زيد بن علىّ على هشام منعَ أهل مكة وأهلَ المدينة أعطياتهم سنة ، فلما استُخلف الوليد بن يزيد كتب إلى أهل المدينة :

ألا أيها الركبُ المخبُّون بلِّغوا ... سلامىَ سُكان البلاد فأسمعوا
وقولوا : أتاكم أشبهُ الناس سنة ... بوالده فاستبشروا وتوقعـــوا
سيُوشك إلحاقٌ بكم وزيادة ... وأعطيةٌ تأتى تبـــاعاً فتُشفَع
ضمنتُ لكم إن لم تصابوا بمهجتى ... بأنَّ سماءَ الضر عنكم ستُقلِعُ

فقال حمزة بن بيض يرد على الوليد لما فعل خلاف ذلك : —

وصلتَ سماء الضُّرِّ بالضر بعدما ... زعمتَ سماء الضر عنا ستقلعُ
فليت هشاماً كان حيًّا يسوسنا ... وكنا كما كُنا نُرجِّى ونطمَع[2]

فكذبه فيما ادعاه ، وفضل عليه هشاماً .

(١) الأغانى جـ ٨ ص ٦٨ — ٦٩ و٣١٥ .
(٢) مهذب الأغانى جـ ٧ ص ٦٠ وديوان الوليد ص ٤٦ دمشق .

وهناك أسباب قبلية أو اجتماعية ؛ فإنه — على الرغم من العوامل السياسية والاقتصادية التى ذكرناها — من الواضح أن العصبية القبلية كانت الدافعَ المباشرَ لما ثار من مناقضة بين الشعراء ، فى الاغلب الاعم ، فالاخطل تغلبى فى نقائضه مع جرير وكان انتصاره لأمية أو لدارم فى سبيل قومه ، وكان يفخر بمآثر تغلب وأيامها فى جمع مواقفه حتى لقد فخر بها على عبد الملك بن مروان[1] وامتن بموقفه مع الأمويين على الأنصار ، وكان جرير ، على الرغم من نزعته مع قيس ، تميمياً يفخر بتميم عامة و بيربوع رهطه الأدنين خاصة حين يلتحم مع صاحبيه ، فلما قتلت تميم قتيبة القيسى نسب فخر ذلك ، حقاً ، ليربوع ونبه قيساً إلى أن ذلك ثأر لبنى الأهتم ، ثم عاد يجامل قيس عيلان[2] . وأما الفرزدق فقد غلبت عليه القبلية فى هذا الفن وفى سواه فهو زعيم تميم والمحامى عنها ، خاصم فى سبيلها الخلفاء والولاة ، ونفى جريراً عنها لدفاعه عن قيس عيلان ، وساعد الأخطل على يربوع رهط جرير لما فضل الأخطل دارماً على بنى كليب بن يربوع ، وتميما على قيس ، والفرزدق كان لسان تميم أمام سليمان بن عبد الملك إثر مصرع قتيبة وهو الذى بسط للخليفة رداءَهُ رهناً عن بنى تميم وقال فى ذلك من نقيضة : —

فِدًى لِسيوفٍ من تميمٍ وفَى بها ... رِدائى ، وجلَّت عن وجوهِ الأهاتِمِ
شفَين حزازاتِ النفوسِ ولم تَدَعْ ... علينا مقالاً فى وفاء للائم
أَبَأْنا بهم قتلى وما فى دمائهم ... وفاء ، وهنَّ الشافياتُ الحوائم
جزى اللهُ قومى إذ أراد خِفارتى ... قتيبةُ ، سعىَ الأفضلين الأكارم
هُمُ سمعوا يومَ المحصَّبِ مِن مِنًى ... نِدائى إذا التفَّت رِفاقُ المواسمِ[3]

(١) نقائض جرير والأخطل ص ١٥٧ . (٢) نقائض جرير والفرزدق ص ٤٠٠
(٣) نفس المرجع ص ٣٧١

وكان اشتراك جرير وغسان على أصل قبلى اقتصادى ، كما كان التحام جرير والبعيث بسبب ما فضّل البعيثُ بنى النوّار بنتِ مجاشع على بنى ذُهَيل من يربوع[١] وأخيراً ينتصر الفرزدق لقومه مجاشع على جرير[٢] .

فإذا تركنا الفحول إلى غيرهم رأينا هذه العصبية أو القبلية تحمل الشعراء على المناقضة كالذى دار بين يزيد بن هُبيرة الفزارى وابنة الحكم بن عبدل الاسدى لما تمثلا ببيتى الاخطل[٣] و بين الابيرد اليربوعى وسلمان العِجلى[٤] وأخذت هذه العصبية تضيق وتدنو حتى تدحل بين رجال العشيرة أو القبيلة الواحدة ، فقد نشأت النقائض الكبرى فى يربوع ثم تعدتها إلى غيرها ، وهذا الابيرد مع ابن عمه الاحوص من بنى رياح يناقضان سحيم بن وثيل الرياحى[٥] وأحياناً تتسع وتعلو حتى تتناول القبائل العامة كما قدمنا وكما أقامها الكميت بين النزارية والقحطانية[٦] ومثّلها ابن ميادة الغطفانى وعقال بن هاشم حين اجتمعا بباب الوليد ابن يزيد وغير ذلك كثير[٧] .

وهناك عوامل فنية تقوم على قيمة الشعر والمفاضلة بين الشعراء ، من ذلك ما جرى من الاخطل حين بعث ابنه مالكا إلى العراق ليأتيه بخبر جرير والفرزدق ، فقال له ابنه : وجدت جريراً يغرف من بحر ، ووجدت الفرزدق ينحت من صخر ، فقال الاخطل : الذى يغرف من بحر أشعرهما وقال يفضل جريراً على الفرزدق : —

---

(١) ص ٣٢

(٢) ص ١٦٧ .

(٣) مهذب الأغانى جـ٢ ص ١٤٩ بلاق

(٤) المرجع السابق جـ١٢ ص١٢ .

(٥) جـ١٢ ص ١٤

(٦) مروج الذهب جـ٣ ص ١٥٩

(٧) الأغانى حـ ٢ ص ١٠٨ بلاق

إنى قضيتُ قضاء غير ذى جَنفٍ لما سمعتُ ولما جاءنى الخبرُ
أن الفرزدقَ قد شالتْ نعامتُه وعضَّه حيةٌ من قومه ذَكرُ

فلما دخل الكوفة بشر بن مروان قدم عليه الاخطل فبعث إليه محمد بن عُمير بن عُطارد بألف درهم وكُسوة وبغلة وخمر على أن يغير حكمه ويقضى للفرزدق فقال الاخطل قصيدته فى ذلك :

أجريرُ إنكَ والذى تسمو له كأسيفةٍ فخرتْ بجِذْجِ حَصان

فرد عليه جرير :

لمن الديارُ ببُرقة الرَوْحانِ إذ لا نبيعُ زماننا بزَمانِ[1]

وقيل إن ذلك كان بحضور الشعراء الثلاثة عند بشر بن مروان[2] ومن ذلك ما قال الراعى :

يا صاحبَىّ دنا الرواح فسِيرا غلب الفرزدقُ فى الهجاءِ جريرا

وقال : —

رأيتُ الجَحْشَ جحشَ بنى كُليبُ تَيمَّمَ حَوضَ دِجـــلةَ ثم هابا

ففتح بذلك على نفسه باب البائية المشهورة لجرير : —

أقِلِّى اللومَ عاذِلَ والعِتابا وقولى ، إن أصبتُ لقد أصابا[3]

وقد نقضها عليه الفرزدق .

وكانت السرقة الشعرية من هذا الجانب الفنى ، فإنه لما قال الفرزدق فى بنى رُبيع بن الحارث بن عمرو بن كعب بن سعد بن زيد مناة : —

---

(١) راجع الاغانى ج١١ ص٦١ دار الكتب
(٢) ج٨ ص٣١٥ ونقائض جرير والفرزدق ص ٤٩٤ ونقائض جرير والاخطل ص ١٩٧
(٣) الأغانى حـ ٨ ص٢٠ و ٢٩ ونقائض جرير والفرزدق ص ٤٢٧

أترجو رُبَيع أن تجيء صغارها بخير وقد أعيى رُبيما كبارُها

أخذه البعيث فقال لجرير :

أترجو كليب أن يجيء حديثُها بخير وقد أعيى كُليباً قديمُها

فقال الفرزدق فى البعيث : —

إذا ما قلتُ قافية شَرودا تنخَّلَها ابنُ حمراء العِجانِ

فأجابه البعيث : —

تناومتُمُ لأعينَ إذْ دَعاكم بنى القينات للقَين اليمانى

تبادرَهُ سُيوف بَنى حُوَىٍّ كأنَّ عليهِ شُقَّةَ أُرجُوانِ[٢]

ويتصل بذلك تألب الشعراء على جرير وتعاونهم عليه نفاسة منهم عليه اسيرورة شعره ، أو غيظاً من سفاهته وسوء لسانه ، أو جرياً وراء الرشوة ومرضاة الزعماء ، أو سخطاً على جرير لبخله ، فقد أعان الفرزدق البعيث المجاشعى ، والبعثَ أعان غسانَ بن ذُهَيل ، والأخطل يقبل رشوة ابن عُطارد ، وعمرو بن لجأ يعبث بشعر جرير ، وسراقة البارقى يهجو جريراً بأمر بشر بن مروان ، والبَلْتَع يُعين ابن لجأ ، والعباس بن يزيد الكندى يتحدى جريراً ، وجفنة الهزانى يسأل جريراً مالا قبل له به فيأبى فيهجوه وكذلك الأعور النبهانى ، وهكذا حتى وجد جرير نفسه غرضاً لكل رام فساء ظنه بالشعراء وأصيب (بمركب النقص) وصار شديد التأثر يغضب لأقل هفوة فينهش أعراض خصومه مقذعاً مفحشاً حتى هابه الناس[١] .

---

(٢) نقائض جرير والفرزدق ص ١٢٤

(١) راجع فى ذلك الأغانى جـ٨ ص ٣٤ — ٢٨و٥٣ — ٥٥و٧٠ — ٧٨ و ٨٤ والشعر والشعراء ص ١٩٦ و١٩٧ و١٤٣ و١٤٤ .

ومن عوامل المناقضة أمور خاصة خالصة أو متأثرة ببعض ما سبق من أسباب كالذى كان بين ابن الدُمَينة وأمامة من مناقضة غزلية ذكرناها فى التمهيد أول الكتاب ، وكالذى أشرنا إليه بين هُدبة بن خَشرم وزيادة بن زيد الذبيانى ، ومن ذلك ما قال رجل للبعيث : أى رجل هو أبو كلدة ؟ فقال : قتادة بن معرب أعرف به حيث يقول : —

إن أبا كلدةَ مِن سُكره ... لا يعرف الحقّ من الباطلِ

الأبيات ، فقال أبو كلدة يجيبه :

قُبحت لو كنتَ امرأ صالحاً ... تعرفُ ما الحق مِنَ الباطِلِ

إلى آخر ما قال[1] .

وهذا المغيرة بن حَبناء يرجع إلى أهله وقد ملأ كفيه بجوائز المهلب وصلاته والفوائد منه ، وكان أخوه صخر أصغر منه فكان يأخذ على يديه وينهاه عن الأمر ينكر مثله ولا يزال يتعتب عليه فى الشىء بعد الشىء مما ينكره عليه فقال فيه صخر : —

رأيتُك لما نِلتَ مالا وعضَّنا ... زمان نرى فى حد أنيابِه شَغباً

يجنّى علىّ الدهرَ أنّى مُذنِبٌ ... فأمسِكْ ولا تجعلْ غِناكَ لنا ذنْبَا

فقال المغيرة يُجيبه :

لحى اللهُ أنآنا عن الصيفِ بالقِرى ... وأقصرنا عن عِرض والده ذَبّا

أأنبأكَ الأفّاكُ عَنى أننّى ... أُحرِّك عرضى أن لعبت به لعبا

ثم ما دار بينهما بشأن أختهما لما أتلف مالها صخر[2] .

---

(١) الأغانى جـ ٦٠ ص١٨٨ بولاق

(٢) الأغانى جـ١١ ص ١٦٨

وسيأتى القول فى هذا النوع خلال النقائض العامة .

— ٤ —

تلك هى العوامل الرئيسية التى بعثت النقائض أيام الامويين ، أجملناها هنا على أن تلقاها مفصلة حين نعرض فيما بعد لشعراء النقائض ، وعناصرها ، ونصوصها ، إلا أن هناك نقطة نشير إليها الآن باختصار إلى أن يأتى تحقيقها . ذلك أننا أشرنا إلى أن ما دار بين كعب بن جُعيل والنجاشى الحارثى يُعد أول مظاهر النقائض فى هذه الفترة التاريخية بعد خمودها زمن الخلفاء الأولين ثم استمرت متتابعة الشواهد إلى قيام الدولة العباسية ، ولكن النقائض الخاصة بين جرير وخصومه ، متى بدأت ؟

هناك نص يقول : إن جريراً كان يهاجى غسان عام الجماعة[1] وذلك عام أربعين الهجرى ، ونص آخر يقول : إن جريراً كان يقول الشعر فى حياة معاوية وأن بعض شعره كان يردده يزيد ابنه أمامه فيظن أنه له[2] وهو أول شعر قاله جرير زمن معاوية . وهناك نص ثالث بأن أول شعر قاله جرير إنما كان رجزاً هجا به بنى سليط لمَّا سمع غسَّانَ ابن ذُهيل السَّليطِىَ يَرجُز بقومه ، وذلك وقت ملك ابن الزبير[3] أى بعد موت معاوية ابن أبى سفيان ، وكان هذا الرجز هو الخطوة الأولى لنقائض جرير مع خصومه وبعدها التحم مع البعيث فالفرزدق وغيرهما .

فماذا عسى أن يكون الحق من هذه الأقوال ؟

---

(١) نقائض جرير والفرزدق ص ٢٥ — ٢٦ (٢) الأغانى جـ ٨ ص ٥٠ دار الكتب.
(٣) نقائض جرير والفرزدق ص ٢ .

يروى ابن خلكان أن جريراً عُمِّر نَيِّفاً وثمانين سنة وأن وفاته كانت فى سنة عشر ومائة أو فى سنة إحدى عشر ومائة[1] فيكون ميلاده سنة خمس وعشرين هجرية على وجه التقريب وذلك فى خلافة عثمان بن عفان (٢٣ — ٣٥ هـ) ومعنى ذلك أن يقرب من الثلاثين أيام معاوية فيكون شاعراً على الأرجح، ويجوز أن تكون له أبيات العتاب التى تمثل بشىء منها يزيد بن معاوية مع أبيه وهى التى عاتب بها جريراً أباه كما يرجح ذلك نصها إذ يقول فيها: —

وإنى لمغرور أعَلَّلُ بالمنى ... لَيالىَ أرجو أن مالكَ ماليا
فأنتَ أبى مالم تكن لى حاجة ... فإن عرضَتْ أيقنتُ ألاّ لا أباليا
بأى نِجادٍ تحمل السيف بعدما ... قطعتَ القُوى من مِحمَلٍ كان باقيا
بأى سِنان تطعنُ القومَ بعدها ... نزعتَ سناناً من قناتك ماضياً
ألم أكُ ناراً يَصطليها عدوكم ... وحِرزاً لما ألجأتمُ مِن ورائيا
وباسِطَ خيرٍ فيكمُ بيمينهِ ... وقابضَ شرٍّ عنكم بشماليا
ألا، لاَ تخافا نَبوتى فى مُلِمَّة ... وخافا المنايا أن تفوتكما بِيا[2]

وإن روى أبو الفرج أنه قال هذه الأبيات لابنه[3].

فإذا فرض ذلك صادفنا أمور: منها أن جريراً كان يهاجى غسان من عام اجتمع الناس على معاوية وذلك سنة أربعين فتكون سنه نحو خمسة عشر عاماً وهى سن لا تمنع أن يرجز جرير وإن كانت تبعد ذلك إلى حد، ومنها أن جريراً إنما بدأ مراجزته مع غسان أيام ابن الزبير أى بعد موت معاوية وكانت

---

(١) وفيات الأعيان ج ١ ص ١٠٤ (٢) نقائض جرير والفرزدق ص ١٧٧.
(٣) الأغانى ج ٨ ص ٥٠ دار الكتب.

هذه المراجزة أول ما شَعَر ، فهذه الرواية تناقض شاعرية جرير أيام معاوية ، ومنها أن هذه الأبيات إنما وردت فى نقيضة لجرير يرد بها على على الفرزدق قصيدته : —

ألم تر أنى يوم جَوِّ سُويقةٍ بكيتُ فنادتنى هُنيدَةُ ماليا

وهى أول قصيدة هجا بها جريراً والبعيث[١]، وهى أيضاً رد على قصيدة للبعيث فى هجاء جرير من جهة وفى إجابته للفرزدق[٢] عن قوله فى البعيث : —

ألا استهزأت منى هُنَيدةُ أن رأت أسيرا يُدانى خطوَه حلَقُ الحِجْلِ[٣]

وفى هذه القصيدة يترك الفرزدقُ قيدَه الذى أخذ به نفسُه حتى يجمع القرآن منصرفاً عن الشعر، ويقول إنه قضى ثلاثين عاماً فى عمايةٍ[٤].

ومعنى ذلك أن أبيات جرير السابقة إما أن تكون قيلت أيام معاوية ثم أضيفت إلى النقائض بعد ذلك مسايرة لرواية أبى عبيدة فى ترتيب النقائض ، و إما أن تكون المناقضة بدأت أيام معاوية وفى ذلك مناقضة لرواية أبى عبيدة أن النقائض بدأت أيام ابن الزبير كما أسبقنا .

فإذا تركنا المسألة ، من ناحية جرير ، عند هذا الحد ، وعُدنا إلى الفرزدق ، وجدنا ابن خلِّكان يروى أنه توفى سنة عشر ومائة قبل جرير بأربعين يوما ، وقيل بثمانين يوما ، وقيل إنهما توفيا سنة إحد عشر ومائة ، وقيل إن الفرزدق لقى على بن أبى طالب وتوفى سنة عشرة وقيل اثنى عشر وقيل أربع عشرة ومائة ، ومات وقد قارب المائة[٥] فاذا أخذنا المسألة بالتقريب كان ميلاد الفرزدق سنة

---

(١) نقائض جرير والفرزدق ص ١٦٧ . (٢) نفس المرجع ص ١٣٢ . (٣) المرجع السابق ص ١٢٧ . (٤) نفس المرجع . (٥) وفيات الأعيان ج ٢ ص ٢٠٠ .

خمسة عشر أيام عمر بن الخطاب ، ويؤيد ذلك ما روى عن الفرزدق أنه كان فى خلافة عثمان بن عفان غلاما يهاجى شعراء قومه وكان قومه يخشون معرّة لسانه منذ يومئذ[١] وأنه لقى على بن أبى طالب مع أبيه عام الجمل (سنة ست وثلاثين) وهو شاعر فأشار على بن أبى طالب على أبيه أن يعلمه القرآن[٢]. وليس من شك أنه وفد على معاوية سنة خمسين هجرية وكان شاعرا كامل الأدة جرىء اللسان تطاول على معاوية وافتخر عليه لما ردّ عطاء الحتات المجاشعى إلى بيت المال[٣].

كان الفرزدق يكبر جريرا بنحو عشر سنين أو خمس عشرة سنة ، وذلك أمر مقرر مشهور ، فيكون ميلاد جرير ، سنة خمس وعشرين إلى سنة ثلاثين ، وتكون سنه عام الجماعة من عشر سنين إلى خمس عشرة سنة ، وهنا لا نميل إلى أنه كان يهاجى غسان حين اجتمع الناس على معاوية ، وتكون سنه أيام ابن الزبير نحو خمس وعشرين سنة أو تزيد وهى سن صالحة لبدء المُرَاجزة كما تروى لنا .

بقى أن نعرف الأمر فى رواية الأغانى المتصلة بتمثل يزيد بأبيات جرير ، والأرجح أن هذه الأبيات ليست فى مخاطبة جرير لابيه ، فهى إما متجهة إلى أبيه وإما إلى أخيه بدليل ما يروى : —

فانتَ أخى مالم تكن لى حاجة فان عرضَتْ أيقنتُ أن لا أخاليا

وبدليل ما ورد قبله : —

وإنى لأستحييكَ والخرق بيننا من الأرض أن تلقى أخاً لِىَ قاليا[٤]

ويقول شارح النقائض : إن جريراً يعاتب عمه فى هذه القصيدة لأنه وعده بشىء فلم يف به له وروى أنها فى عتاب جده الخَطَفَى[٥].

---

(١) و (٢) الأغانى حـ ١٩ ص ١٠ . (٣) الطبرى وديوان الفرزدق ص ٤٩ .

(٤) نقائض جرير والفرزدق ص ١٧٧ .

(٥) ديوان جرير ص ١٦٥ مصر ١٣١٣ هـ .

و بعد ذلك أ لاحظ أن هذه الأبيات ليست مَكِينةً فى موضعها من القصيدة فإنّ قبلَها النسيبَ التقليدى و بعدها الفخر فالهجاء ، وهذا هو الطابع العام للنقائض أمّا أن يتوسطها عتاب خاص فهذا شىء غريب . ومهما نقل فى فنون القصيدة القديمة وتعددها والاقتضاب بينهـا ، فإنه يبقى أمامنا هذا العتاب الخاص الذى لايتصل بموضوع النقيضة إلا بتمحُّل غير مألوف ؛ لذلك أميل إلى أنها مضافة إلى هذه النقيضة وليست منها فى أصلها الأصيل .

فإذا صح ذلك ، خرجت رواية الأغانى من صميم المعركة ، وصار وضع المسألة هو : أبدأت النقائض ، بين جرير وغسان ، زمن ابن الزبير أم قبله ؟ و إذا كان الأول فهل كانت هذه المراجزة أول شعر جرير ؟ وإذا لم تكن أول شعره فهل تكون الأبيات السابقة أول شعره ؟ وأما إذا كانت أول شعره فقد بطلت رواية الأغانى ، وكان علينا أن نبحث عن مكان هذه الأبيات من ديوان جرير .

لا أميل إلى أن النقائض بدأت عام الجماعة لصِغَر سن جرير إذ ذاك ، فهل بدأت أيام معاوية ، وقبل مُلكِ ابن الزبير ؟ أميل إلى أنهـا بدأت آخر عهد معاوية وقبل الملك الزبيرى ، وأن هذه المراجزة ليست أول ما شعر بدليل غلبة جرير على غسان — على الرغم من نباهة غسان وقتذاك — و إنشائه القصيد رداً عليه فى الحال ، وأن هذه المراجزة من ناحية جرير كانت مسايرة لفن غسان الذى هجا به رهط جرير .

وأما الأبيات المذكورة فى العتاب فلا مانع عندى أن تكون من شعره أيام معاوية وأن يكون يزيد قد تمثل بها أمام والده .

وهنـا لا نتفق مع شارح النقائض حيث يقول[1] : إن جريراً وقت رجز

---

(١) نقائض جرير والفرزدق ص ٢ .

غسان بقومه كان يرعى على أبيه الغنم لم يقل الشعر بعد ، ذلك أن سن جرير كانت ثلاثين سنة على أقل تقدير . . أفيبلغ جرير هذه السن دون أن يقول شعراً ؟ وإذا كانت نقائضه مع الفرزدق دامت خمسين سنة فيما يقال ، وأن بدأها تأخر عن مراجزته مع غسان ومهاجاته البعيث ، فلا بد أن هذه المراجزة بدأت آخر عهد معاوية .

— ٥ —

أما عن فنون النقائض فلسنا نقول شيئاً جديداً ، بعد ما ذكرنا فى التمهيد ، أنها استغلت جميع فنون الشعر العربى إذ ذاك ، من نسيب ، وحماسة ، وفخر ، وهجاء ، ورثاء ، ووصف وغيرها ، وإن كان الفخر والهجاء فيها الأساسيين يقوّمانها ويُضْفيان طابعَهما على الفنون الأخرى فتتأثر معانيها بالفخر والهجاء .

وهذا أمر طبعى : فإن القصيدة العربية تبدأ بالنسيب عادة وقد غلب ذلك على النقائض ولا سيما عند جرير الذى يعد أستاذ هذا الفن بين زملائه خاصة ، وكانت معانى هذا الفن مجالا للمناقضة فى بعض الأحيان كما سخر جرير باصطناع الفرزدق الجلال والعفة فى ديباجة ميميَّة : —

تَحِنُّ بزوراء المدينـــة ناقتى حنـين عجول تبتغى البوَّرائمِ

فقال جرير فى نقضها عليه : —

أتيتَ حدودَ الله مذ أنت يافع وشبتَ فما ينهاك شيب اللهازم

هو الرجسُ يأهل المدينة فاحذروا مُدَاخِلَ رِجسٍ بالخبيثات عالم

لقد كان إخراجُ الفرزدق عنكمُ طَهورا لما بين المصلَّى وواقم[1]

---

(١) نقائض جرير والفرزدق جـ ١ ص ٣٩٦ طبع أوروبة .

وكانت الحماسة من لوازم الفخر إذ هى فن القوة والتعالى ولا سيما عند ذكر مواقف القتال والظفر بالمجد والسيادة ، فصارت بذلك عنصراً من عناصر هذا الفن القائم على الجدل والملاحاة ، وقد عرض جرير فى رثاء زوجه لهجاء الفرزدق فردَّ عليه وهجا زوجته التى أحسن جرير الثناء عليها فصار الرثاء من مجالى النقائض أيضاً ، وكان وصف الشمائل والرذائل وتصوير ما يلابسها من معانى المهاجاة والمفاخرة حتى عدت بعض الصور غاية فى الهجاء والسخرية أو الفخر والسناء .

غير أننا نلاحظ هنا سراعا ، إلى أن يمر تفصيله ، أن جريرا كان مقدما فى النسيب والهجاء المتصلين بالنقائض ، وأن الفرزدق امتاز بالفخر فى هذا الباب ، وكان الأخطل يفخر ويهجو معتدلا وواصلا ذلك بالمدح والخمريات .

وكل ذلك طبعى عند الثلاثة الفحول الذين يمثلون هذا الفن أصدق تمثيل وأقواه ، وإن اشتركوا جميعا فى تناول هذه الفنون كلها ، ما عدا الخمر ، فلم تكن من فنون جرير والفرزدق ، وكانت الفنون عندهم مختلفة متعاونة غير منفصلة ولا دقيقة الحدود .

اعتمد النسيب عند جرير على رقة طبعه ، وصدق شعوره الإنسانى الطبعى ، وتهذيبه الإسلامى ، فكان عنده فنا رقيقا ، مطردا ، خصبا ، طويل النفس غالبا كأنه دور موسيقى رائع يحتل مطالع نقائضه تعبيرا عن نفسه وإعدادا لها حتى ليُعَد جرير أستاذ الشعراء فى هذا الضرب من النسيب وقد يكون البحترى خليفته فيه ، فإذا أرضى نفسه منه انتقل إلى الفخر أو الهجاء . وقد يصطدم بنسيب مصطنع عند خصمه فيعرض له بعد ذلك ناقضا أو ساخرا مكذبا كالمثال السابق ، فى حين أن الفرزدق مثلا لا يتقيد بهذه الديباجة ناسبا فيهجم على موضوعه أو بنسب موجزا جدا وكذلك الأخطل إلا أن تغلب عليه الخمريات أو ينسب نسيبا لا روح فيه ، فاقرأ رائية الأخطل : —

خفّ القطينُ فراحوا منكَ أو بكروا وأزعجتْهم نَوى فى صَرفها غِيرُ[1]

واقرأ يائية جرير : —

ألا حَيِّ رَهْبى ثم حيِّ المطاليا فقد كان مأنوساً فأصبح خاليا[2]

أو لاميته : —

لِمن الديارُ كأنها لم تُحلَلِ بين الكِناسِ و بين طلْح الأعْزلِ[3]

أو بائيته : —

أقلِّ اللومَ عاذِلَ والعِتابا وقولى إن أصبتُ لقد أصابا[4]

كذلك اعتمد الهجاء على صدق حِسِّه ، وشدة تأثره ، وتحامل خصومه وتألبهم عليه ، وكثرة ما نالوه من نواحى فقره ، وهوان حسبه ، وقلة جوده ، فكان يثور عليهم وينشر مخازيهم أو يخلقها فى صور مضحكة ساخرة انتقاماً لنفسه وتنفيساً عنها ما بها من غيظ واستجابة (لمركب النقص) الذى أصابه ، وساعد ذلك سيرورةُ شعره لسهولة حفظه وعجيب خياله كقوله للأخطل :

والتغلبى إذا تنحنحَ للقِرى حكَّ استَه وتمثَّل الأمثالا[5]

وقوله للراعى : —

فغض الطرف إنّك مِن نُمَير فلا كعباً بلغتَ ولا كلابا[6]

ومن الملاحظ أن الهجاء بلغ على أيدى هؤلاء الفحول حدّ السباب والفحش إلى درجة لم يعرفها الشعر العربى من قبل كما وكيفا .

---

(١) نقائض جرير والأخطل ص ١٤٨ . (٢) نقائض جرير والفرزدق ص ١٧٢ .
(٣) نفس المرجع ص ٢١١ (٤) نفسه ص ٤٣٢
(٥) نقائض جرير والأخطل ص ٨٩ (٦) نقائض جرير والفرزدق ص ٤٤٦

وقد ظفر الفخر عند الفرزدق بطبع قوى ، وحسب ضخم ، وغنى عريض ، ومفاخر شتى ، وأيام عدة ، فاستمد منها عتاداً مكيناً وأسلوباً جزلا وكان سمته الغالبة فى النقائض و إن لم تخل قصائده من هجاء مقذع فاحش، واختلاق للمخازى، وأخذ بالسباب ، ليرد بذلك على جرير كما أن جريراً وجد فى تميم عامة مآثر شتى، وفى يربوع رهطه مفاخر وأياما أشاد بذكرها فى نقائضه ، وفى قيس عيلان مواقفها ووقائعها التى وضعها أمام زميليه ، تجد الفرزدق قوى الفخر فى لاميته : ـ

إنَّ الذى سمكَ السماء بنى لنا بيتاً دعائمه أعـزُّ وأطولُ[1]

وفى ميمته : ـ

تَحِنُّ بزرواء المدينـةِ ناقتى حنينَ عَجُولٍ تبتغى البوَّ رائم[2]

وفى فائيته : ـ

عَرفتَ بأعشاشٍ وما كدتَ تعرِفُ وأنكرتَ مِن حَدراءما كنت تعرف[3]

وفى لاميته : ـ

سمونا لنجرانَ اليمـانى وأهلِه ونجرانُ أرضٌ لم تُدَيَّثْ مقاولُه[4]

وفى نقضائضها لجرير ، وعند الشعراء المغمورين ـ فى باب النقائض ـ مثل لجميع ماسبق ترد عليك فيما يلى .

وقد وجد الأخطل فى أيام نغلب القديمة والحديثة مدداً لفخره كما فخر بدارم على يربوع وقيس عيلان ، واستطاع أن يهجو جريراً بما هجاه به الفرزدق ويعرض ذلك فى صور قبيحة أيضاً كقوله فى رهط جرير : ـ

قوم إذا استَنبح الأضيافُ كلبَهُمُ قالوا لأمهـم : بُولى على النار[5]

---

(١) المرجع السابق ص ١٨٢ . (٢) نفس المرجع ص ٣٤٣ .
(٣) ص ٤٥٨ . ج ٢ (٤) ج ٢ ص ٦٠٠
(٥) نقائض جرير والأخطل ص ١٣٥ .

من قصيدته : ـ

ما زال فينا رِباطُ الخيلِ مُعلَمةً وفى كُلَيبٍ رِباطُ الذل والعار

ونسينا الرثاء ، فلما رثى جرير زوجه خالدة بنت سعد أم ابنه حَزْرة بقصيدته : ـ

لولا الحياء لعادَنِي استِعبارُ ولزُرتُ قبرَكِ والحبيبُ يُزَار[1]

هجا فيها الفرزدق والبعيث فنقضها عليه الفرزدق بقصيدته : ـ

أعَرفْتَ بينَ رُوَيَّتينِ وحَنْبَلِ دِمناً تلوحُ كأنَّها الأسطارُ[2]

وهجا فيها جريراً وزوجه : ـ

كانت منافِقةَ الحياةِ ، ومَوتُها خزىٌ علانية عليك وعارُ

فلئن بَكَيتَ على الأتانِ لقد بكى جزعاً غداةَ فِراقها الأعيارُ

تَبكِى على امرأةٍ وعندك مثلُها قعساء ليس لها عليك خِمارُ

وهكذا كانت الفنون كلها مَعرِضاً للنقائض ، وأدواتِه الناطقة ، يدافع بها الشعراء عن أنفسهم أو يردّون عن غيرهم من الشعراء ومن يلوذ بهم كما هو مقرر معروف[3] .

هذه الفنون ، على الرغم من التطور الذى أصابها فى القرن الأول ، اعتمدت فى معانيها على الأنساب ، والأحساب ، والأيام ، والدين ، والخلق ، وتجويد الشعر ، وعلى حوادث وأمور خاصة طارئة حقيقية أوخيالية مختلفة ، كحادثة السيف ، وجعثن ، والزبير بن العوام ، وجارية جرير ، وأزواج الفرزدق ، وشناعات قيس مع تغلب ، وغيرها تناولها الشعراء ونشروها فى نقائضهم الباقية ، وفى الفصلين التاليين نلم بهؤلاء الشعراء و بتلك العناصر أو المقومات .

(١) نقائض جرير والفرزدق ص٨٤٧ ج ٢ .

(٢) نقائض جرير والفرزدق ص ٧٦٦

(٣) المرجع السابق ص ٢ — ٦ و ١٢٧ و ٤٥١ و ٥٣٧ و ٥٧٦ .

الفصل الثالث

شعراء النقائض الأموية

— ١ —

سُئل جرير : مَن أشعرَ الناس ؟ فقال للسائل : قُم حتى أعرفَك الجواب ، فأخذ بيده وجاء به إلى أبيه عطية وقد أخذ عنزا له فاعتقلها وجعل يمصّ ضَرعها ، فصاح به : اخرج يا أبَتِ فخرج شيخ دميم رَثُّ الهيئة وقد سال لبن العَنز على لحيته ، فقال ألا ترى هذا ؟ قال نعم . قال : أو تعرفُه ؟ قال : لا ، قال: هذا أبي، أفتدرى لم كان يشرب من ضَرع العنز ؟ قال : لا . قال مخافةَ أن يُسمع صوتُ الحلْب فيُطلبَ منه لبن . ثم قال : أشعر الناس مَن فاخر بمثل هـذا الأب ثمانين شاعرا وقارعهم به فغلبهم جميعاً[1].

هذه القصة ، على فرض وضعها ، تدل على كثرة من فاخرهم جرير حتى بلغوا ثمانين شاعراً ، وإن كانت المفاخرة لايتحتم أن تكون فى صورة المناقضة بوضعها الإصطلاحى المعروف . كذلك يحسن أن تلاحظ منذ الآن أن لفظ مفاخرة معناه تبادل الفخر من جانبين ، فهل كان بين جرير وبين هؤلاء الثمانين مفاخرة من الجانبين أو أن الفخر كان أكثر من ناحية جرير على أقل تقدير ؟ ومن هم الثمانون شاعرا الذى التحم معهم جرير فى سبيل أبيه ؟ ألا يجوز أن تكون كلمة (شاعرا) هنا من باب التغليب وأن من بين من افتخر عليهم أو هجاهم عشائر أو أناسى ليسوا من الشعراء ؟ !

---

(١) الأغانى ج ٨ ص ٤٩ دار الكتب

وقال الأصمعى ، وذكر جريرا فقال : كان ينهشه ثلاثة وأربعون شاعرا قينبذهم وراء ظهره ويرمى بهم واحداً واحداً ومنهم من كان ينفحه فيرمى به ؛ وثبت له الفرزدق والأخطل. وقال جرير : والله مايهجونى الأخطل وحده وإنه ليهجونى معه خمسون شاعراً كلهم عزيز ليس بدون الأخطل ، وذلك أنه كان إذا أراد هجائى جمعهم على شراب ، فيقول هذا بيتاً وينتحل هو القصيدة بعد أن يتموها[1] .

ورواية جرير عن الأخطل وشركائه تقرب منها رواية لجرير أيضاً وردت فى إحدى نقائضه حيث يقول : —

أعددتُ للشعراءِ كأساً مُرَّةً ... عندى مُخالطُها السِمامُ المنقَعُ
هَلاّ نَهاهُمْ تِسْعَة قتّلتُهـــــمْ ... أو أربعون حدوتُهم فاستجمعوا
خصّيتُ بعضهمُ وبعضٌ جُدِّعوا ... فشكا الهوانَ إلى الخصِيِّ الأجدعُ
كانوا كمشتركين لمـــا بايعوا ... خسروا وشُفّ عليهمُ فاستوضِعوا
أفَينتهون وقد قضيتُ قضـــاءهم ... أم يصطلون حر نار تَسْفَعُ
ذاق الفرزْدقُ والأخيطلُ حرها ... والبارقيُّ وذاق منهـــا البَلْتَعُ
ولقد قسمْتُ لذِى الرِقاع هَـديّة ... وتركتُ فيـــه وهِيَّةً لاتُرقَعُ
ولقدصككْتُ بَنى الفدَوْكَسِ صَكة ... فَلَقُوا كما لَقِىَ القُرَيد الأصلع[2]

القرد الأصلع هو الفرزدق .

أما قول الأصمعى فيهبط بالعدد إلى نحو النصف ، وهذا شىء يرد تحقيقه . وأما حكاية جرير فلا أظنها حقا بهـذه الصورة التى وصفها ، وإن لم تبعد كثيراً عن قول الأصمعى .

---

(١) نفس المرجع ص ٨ . (٢) النقائض ص ٩٦٦

بقيت قصة أخرى طريفة خلاصتها أن جرير وفد على الحجاج فسأله : علام تشتم الناس وتظالمهم ؟ فقـــال جرير : والله إنى ما أظلمهم ولـكنهم يظالمونني فأنتصر[1] ، وأخذ يسرد له من التحم بهم فى الهجاء فـكانوا عشرة ناقضوه هم غسان بن ذهيل السَليطى ، والبعيثُ المجاشعى ، والفرزدق ، والبلتَعُ وهو المستنير ابن سَبْرة العَنبرى وهؤلاء من تميم ، ثم الأخطل التغلبى ، وجَفنة الهِزّانى وكلاهما من ربيعة بن نِزار ، ثم الراعى من قيس عيلان ، ثم سُراقة البارقى من كهلان ، والعباس بن يزيد الـكِندى ، وسُحمةُ الأعور النبهانى الـكهلانى وهؤلاء من اليمن وهم جميعاً غير ستة أعانوا عليه هم المرّار بن مُنقد التميمى أعان عليه الفرزدق، وحكيم ابن مُعَية التميمى أعان عليه غسان السليطى ، وثور بن الأشهب بن رُميلة النهشلى من تميم أعان عليه الفرزدق ، والدَلهَمَس أحد بنى ربيعة بن مالك بن زيد مناة من تميم أعان عليه الفرزدق ، وقَبضـة الـكلب أعان الدلهمس وقومه ، وعِلْقَة ، والسرَنْدى من بنى الرِّباب (أحياء من ضبّة بن أدّ بن طابخة من مُضر) أعانا عليه ابن لجَأ ، ثم اثنان روَيا شعر الفرزدق هما هُبيرة بن الصلت الربعَى من ربيعة ابن مالك من تميم ، والطهَوى من بنى طُهَيّة بنت مالك بن حنظلة التميمى ، وهناك عَمرو بن لجأ الذى عبث بشعر جرير وأفسد روايته وسخر به ، وعُقبة بن السُمَيع الطُهَوى وكان نَدردم جرير ، وهؤلاء جميعاً هجاهم جرير دون أن يناقضوه وإن هجاه بعضهم[2] .

وهذه القصة كما أوردها أبو الفرج يظهر أنها موضوعة ، لعدة أمور :

أولها : أنها تدل على أن هذه الوفادة كانت أول ما وفد جرير على الحجاج من قبل والٍ له على البَصْرة هو الحـكم بن أيوب الذى رأى فى جرير أعرا بيا شيطاناً وشاعراً

---

(١) الأغانى ج ٨ ص ١٤ دار الـكتب ، وراجع النقائض ص ٥٠٥ بيت ٣٥ و٣٦

(٢) اقرأ القصة فى الأغانى ج ٨ ص ١٤ دار الـكتب

ظريفاً فبعث به إلى الحجاج ، وفى هذا الوقت لم يكن جرير قد التحم بالأخطل ، مثلا ، فإن المقرر أنه التحم به بعدما عرف وشهر بنقائضه مع الفرزدق وقدم الأخطل على بشر بن مروان فرشاه محمد بن عمير بن عطارد الحاشعى ليفضل الفرزدق على جرير ففعل فطار بينهما التهاجى ، والقصة تدل على أن جريراً كان مجهولا عند الحجاج وخليفته الحكم بن أيوب ، ولم يكن اتصل بدمشق ورجال الأسرة الحاكمة .

وثانيها : أن قصة جرير مع جَعْنَةَ الهِزَّانى تدل على أن جعنة سأله الحلة التى كساه إياها الوليد بن عبد الملك ، ولم يكن الوليد خليفة — إذا صح أنه أعطاه إياها وهو خليفة وهو أمر راجح — حين قدوم جرير على الحجاج أول مرة ، إذ كان الحجاج هو الذى بعث بجرير إلى عبد الملك بعدما سارت مدائحه فى الحجاج ، وكانت صلة الشاعر بالخليفة الوليد بعد ذلك لا قبله .

وثالثها : أن أسلوب القصة نفسه يفضح وضعها ويدل عليه ، فإنك تجد الحجاج يسأل جريراً عن خصومه واحداً واحداً فيذكر جرير غسان مثلا فيقول له الحجاج : ماذا قال لك ؟ فيجيبه ، ثم يسأله الحجاج : فماذا قُلتَ له ؟ فيجيبه وهكذا يجرى السياق طبعياً مؤيداً حجة جرير فى أنهم يبدأونه الهجاء فيرد عليهم منتصفاً لنفسه ولكن العجيب أن هناك خصوماً لم يبدأوا جريراً بالشعر وإنما رووا شعر الفرزدق أو أعانوا على جرير ، فنجد الحجاج — وكأنه يعرف هذا الغيب — لا يسأل جريراً عما قال هؤلاء ، وإنما يسأله تواً : فما قُلتَ له ؟ فيجيب جرير بما قال . تجد ذلك شأنه مع ثور بن الأشهب النهشلى ، والدَّهْمَس ، وهبيرة بن الصلت وغيرهم .

هذه القصة بصورتها الواردة فى الأغانى موضوعة من غير شك ولكنها

لا تنفى التحام هؤلاء مع جرير وأن منهم مَن ناقضه كما رأيت فى العشرة الأولين .

وعلى أية حال فهناك رواية الأصمعى تنص على أن من هاجاهم جرير بلغوا ثلاثة وأربعين شاعراً وهى صريحة فى أن المهاجاة كانت من الجانبين ، وهناك رواية جرير الثانية تدل على أن عصبة تبلغ الخمسين شاعراً تعين عليه الأخطل ، وهذه الرواية ليست فى قيمة سابقتها ، إذ لا تنص على أن أحداً من الخمسين قد التحم بجرير مباشرة ، وإن كان الخمسون أعواناً للأخطل ، وهناك العشرون الذين ذكرهم جرير للحجاج ، أو الذين ورد ذكرهم فى هذه القصة ، فلم يناقضه منهم إلا عشرة والباقون إلبٌ عليه .

بقيت رواية الثمانين التى رويت عن جرير وهى مشهورة سائرة وإن لم تعين أحداً منهم ، وهذه يصح أن نقرنها بروايته عن الخمسين أعوان الأخطل لعلها تجمع إليهم سواهم ممن انفردوا بالهجاء أو كانوا مع الفرزدق أو البعيث ، أو كانوا أناساً مهجوين دون أن يكونوا شعراء هجائين .

فما الرأى فى هذا العدد الذى اتصل بجرير فى هذه المعركة الهجائية أو الفخرية كما تقول الروايات ؟!

رجعنا إلى ما بأيدينا من المراجع فتبين لنا أن الذين اتصلوا بجرير فى باب المهاجاة طوائف أربعة : —

١ - شعراء التحم بهم فى صورة مناقضة وهؤلاء لا يتجاوزون ستة عشر شاعراً فى الغالب ، ذكرنا منهم عشرة من قبل ونضيف إليهم عدى بن الرقاع ، والحِمَّانى ، والصلتانَ العبدى ، وخُلَيد عَيْنَين ، وأبا الورقاء عقبة بن مليص المقلدى ، وعَمرَو بن لجأ التيمى .

٢ — وشعراء وغيرهم أعانوا عليه الفرزدق وغيره فهاجهم وقد ذكرنا بعضهم فيما مضى .

٣ — وشعراء وأحياء وأناسيّ هجاهم جرير لأسباب شتى وهؤلاء أكثر عدداً فقد يتجاوزون الستين ، وقد يكون بعضهم هجاء .

٤ — وشعراء عرضوا بينه وبين الفرزدق فلم تلتفتا إليهم كاللعين المنقرى ، وربما كان هؤلاء أقل عدداً .

وجملة هذه الطوائف تبلغ الثمانين أو تزيد[1] .

وربما كان الغريب أن نجد رجلا ، كمُخَرِّق بن شُرَيك من بنى ذُهل بن الدُول بن حنيفة ، ضلعهُ مع جرير ، فينهاه الفرزدق مرتين فلم ينتهِ ، فيهجوه فيردّ عنه جرير[2] .

أمام ذلك تكون قصة جرير مع الحجاج سليمة لا من ناحية صورتها وتاريخها لكن من حيث ماورد فيها من الشعراء الذين ناقضوا جريراً ، أوهاجوه ، أوأعانوا عليه ، أورَووا شعر الفرزدق . ثم تكون رواية الأصمعى صحيحه إذا صح أن الذين هجاهم كان فريق منهم ، على الأقل ، يهجونه أيضاً.

وأخيراً لا يصح عدد الثمانين إلا إذا تساهلنا فى معنى (فاخر) الواردة فى كلام جرير . وأردنا منها مجرد الاشتباك الهجائى ولو من ناحية جرير وحده .

وإتماماً لهذه المسألة نذكر ، أولا ، أن الفرزدق ناقض مع جرير الطِّرِمَّاح ، وابن رُمَيلة النهشلى ، والبعيث ، ومسكينا الدارِمى ، والأصم الباهلى ، وهاجى جندل بن الراعى وذا الأهدام الجعفرى ، وبنى جعفر ومنهم حاجب وحبيب

---

(١) راجع ديوان جرير للصاوى ، والأغانى جـ ٨ ، والشعر والشعراء وطبقات ابن سلام والنقائض .

(٢) النقائض ص٨٤٦

ابنا حميصة[1] وأن الأخطل ناقض مع جرير نُفَيع بن صفار المحاربى ، وتميم بن أبى مقبل العامرى ، كما هجا أرهاطاً وأشخاصاً آخرين وفخر عليهم . ثم نذكر ، ثانياً ، أن كثرة الشعراء الذين التحموا مع جرير من تميم ؛ فقد نشأت نقائضه فى رهطه بنى يربوع ، وامتدت إلى أحياء تميم ، ثم تجاوزتها إلى غيرها من القبائل . كما يتضح مما يلى . وإذا حاولنا ردّ الذين هاجاهم جرير إلى قبائلهم تبين لنا أن حظ تميم أكثر والباقى موزع بين قيس ، وربيعة ، واليمن ، وقريش ، والموالى .

— ٢ —

أما كيف التحم شعراء النقائض معاً فمن الخير للباحث أن يساير تاريخ هذه النقائض الخاصة ثم يفرغ للاشارة إلى شعراء النقائض العامة .

ولما كان جرير حجر الزاوية فى هذا الفن ونقطة اشتراكه رأينا أن نبدأ منه فى بيان مواقف الشعراء فى هـــذه المناقضة راجعين أولا إلى مقدمة نقائضه مع الفرزدق .

١ — كانت بَكْرَةُ بنت مليص أحد بنى مُقَلِّد بن كليب بن يربوع من تميم تحت تميم بن عُلاثة أحد بنى سَليط بن يربوع أيضاً ، فضربها تميم فشجها ، فلقى أخوها زوجَ أختـه تميما فلامه على ضربه وشجه إياها ، فوقع بينهما لحاء ، فشج تميم أخا بكرة أيضاً ، فحمـل هلالُ بن صَعصعة أحد بنى كليب ثلث الدية وهو ثلاثة وثلاثون بعيراً وثلث بعير ، وكذلك دية الآمة (أى الشجّة) فالتأم ما بينهم على دخن .

ثم تنازع بنو جُحيش بن سيف بن جارية بن سليط و بنو الخَطَفَى ـ عشيرة

---

(١) ديوان الطرماح والنقائض والأغانى ، وفى النقائض بخاصة ص ٨٠٧ و ٩٠٩ و ٩٠٧ و ٩٠٢ والشعر والشعراء وطبقات ابن سلام .

جرير — فى غدير بالقاع ، فجعلت بنو الخطفى تهجوهم ، وكان بنو جُحيش مُفحَمين لا يقولون الشعر ، فاستعانوا (بغسَّان) بن ذُهيل بن البَرَاء بن سَليط ، فهجا غسانُ بنى الخطَفى عن بنى عمه بنى سيف بن حارثة ، وجرير بن عطية يرعى غنم أبيه إذ ذاك ، فمر ذات يوم على غسان يُنشد بعشيرته ، فركب بعيراً وأقبل حتى أشرف على غسان والجماعةِ فرجز بهم رجزاً قبيحاً بالغ فيه ؛ ولحم التهاجى بين جرير وغسان لذلك ، وأخذ التهاجى صورة المناقضة الشعرية بعد الرجز ، فقال غسان أبياته :

لعمرى لَئن كانت بَجيلةُ زانها جرير لقد أخزى كُليباً جريرُها

فأجابه جرير بقصيدته : —

ألا بكرت سَلمى فجدّ بُكورُها وشقَّ العَصا بعد اجتماعٍ أميرُها

واستمرا يتلاحيان . وقد ردّ على جرير أيضاً أبو الوَرقاء عُقبةُ بن مُلَيص المقلّدِى من كليب بن يربوع فقال : —

إنّ الذى يَسعى بحُرِّ بلادِنا كمبتحثٍ ناراً بِكَفٍّ يُثيرها

وما حار بتنا مِن مَعَدٍّ قبيلةٌ فَتُقْلِعَ إلا وهى تدمَى نحورُها

وإلاّ رميناها بصدر وكلكل من الشر حتى ما يهرُّ عَقورها

أبالخطفَى وابنَى مُعيدٍ ومُعرِضٍ تُسَدِّى أموراً جَمَّةً لا تُثيرها

وبينا كان غسان ذات يوم يُنشد لَبيد بن عُطارد بن حاجب بن زُرارة بالكُناسة ويحدثه إذْ جاء (جَنْباء) بن جَناب الكلبى ولاحى غسان لاعتزازه بنفسه (وكانت تميم حالفت كلبا اليمنية بعد مقتل عثمان) فقطع هذان الحلفَ وأغار غسان على الكلبى وأخذ إبله فزحفت بنو ثعلبة بن يربوع إلى بنى سَليط فحملها قيس بن حنظلة السليطى عن أخواله ، فقال غسان فى ذلك ، وقد جاء الكلبى يَنشد إبله : —

يُسائلنى جبناء : أين مخاضُهُ فقلتُ له : لا تعلُ عثرةُ تاعِسِ

فأجابه جرير عن جَنباء وحضّ عليه بنى عاصم وعيّره الغـدر بجار بنى يربوع فقال : —

ألاحَيِّ أطلالَ الرسومِ الدوارسِ وآرِيَّ أمهـارٍ ومُوقَد قابسِ

القصيدة ، والح جرير على بنى سليط بالهجاء .

٢ — وفى أعقاب ذلك أتى (العَنَّاب) أعورُ بنى نبهان الطائى بنى أخته (كَهفة) من تُمامة بن سيف بن جارية بن سليط يسترفدهم فى حمالة أو حفر رَكيّة فأعطوه فأرضوه وزينوا له أن يسأل جريراً ، وكان جرير لا يعطى أحداً لا يخافه — وإنما أراد بنو ثمامة أن يمنعه جرير فيهجوه — فلم يرض الأعور النبهانى بجباء جرير فانصرف فهجا جريراً فقال : —

قلتُ لها : أمِّى سَليطا بأرضها فبئسَ مُناخُ النازلين جرير

ولو عندَ غسانَ السَليطىّ عرَّست رغا قَرَنٌ منها وكاس عَقيرُ

وأنت كُليبيٌّ لـكاب وكَلبَةٍ لها عندَ أطنابِ البيوت هريرُ

فقال جرير يرد عليه بقصيدته : —

عفا ذو حَمامٍ بعدنا وحفيرُ وبالسرِّ مَبدًى منهمُ ومَسيرُ

يقول فيها : —

وجدنا بنى نبهانَ أذنابَ طيىء وللناسِ أذنابٌ تُرى وصُـدورُ

وأعورَ مِن نبهانَ أمّا نهـارُهُ فأعمى وأما ليـلهُ فبصـيرُ

٣ — وكان (البَعيثُ) المجاشعى الدارمى من تميم قد سُرقت إبلُه ، سَرَقها ناس من يربوع يقال لهم بنو ذُهَيل ، فطلبها البعيث حتى وجدها فى أيديهم ، فقالوا : إنما كانت مع لص فانتزعناها منه ، وكانت بينه و بينهم صلة رحم من قبل النوار بنت مجاشع ، وكانت ولدتهم ، وغسان يومئذ يهاجى جريراً ، فجعل البعيث

يقول : وجدنا الشرف والشعر فى بنى النوار بنت مجاشع ، فبلغ ذلك عطية بن جعال أحدَ بنى غدانة بن يربوع ، فقال :

وما أنت وهذا يا بَعيث ؟ أتدخل بين يربوع وأنت رجل من بنى مجاشع ؟ !

فبلغ ذلك جريراً فهجا البعيثَ وقومَه بقصيدته : —

طاف الخيالُ ، وأينَ منكَ ، لِماما فارجع لزورِكَ بالسَّلامِ سَلاما

فقال البعيث وقد أغضبه قومه بعد ما كان صفح عن بنى الخطفى : —

أجريرُ أقصِرْ لا تَحِنْ بك شِقوةٌ إن الشقيَّ ترى له أعـــلاما

فركب عطاء بنُ الخطفى إلى بنى مجاشع فقال لهم : أنتم الإخوة والعشيرة وقد قلنا فانتهوا عنا ، فأبى البعيثُ إلا هجاءهم فالتحم الهجاء بين جرير والبعيث فسقط (غسان) وقال البعيث يهجو جريراً : —

ألا حَيِّيا الربعَ القَواء وسَلِّما وربَّعا كجُثمانِ الحمامةِ أدهَما

فقال جرير يرد على البعيث : —

لِمن طَلَلٌ هاجَ الفؤاد المتيَّما وهَمَّ بسلمانينِ أن يَتـكلّما

وألح فيها على بنى مجاشع بالهجاء ، وأخذ يتهاجيان بالنقائض .

٤ — وكان (الفرزدق) قبل قول البعيث ، وقد هجا بنى رُبيع بن الحارث بن عمرو بن كعب بن سعد بن زيد مناة فقال : —

أترجو رُبَيعٌ أن تجيءَ صِغارُها بخير وقد أعيى رُبَيعا كِبارُها

فلما سمعَ قولَ البعيث فى بنى كليب : —

أترجو كُليب أن يجيء حَديثُها بخيرٍ وقد أعيى كُلَيبا قديمها

قال الفرزدق : —

إذا ما قلتُ قافيةً شَرودا تنخَّلها ابنُ حمراء العِجانِ

فأجابه البعيث : —

تناومتم لأعْيَنَ إذ دعاكم بَنى القينات للقَين اليَمانى
تَبادَرَهُ سُيوف بَنى حُوَىٍّ كأنَّ عليهِ شُقَّةَ أُرجُوانِ[1]

حتى إذا غَمّ جريرٌ نساء بنى مجاشع أتين الفرزدق — وكان قيد نفسه حتى يجمع القرآن وعاهد الله ألا يهجو أحدا أبدا — فقلن : قبَّح الله قيدك فقد هتك جرير عورات نسائك ، فلُحِيتَ شاعرَ قوم فأحفظنه ، ففضَّ قيده ، وكان قد تنبّأ بالتحامه مع جرير . فلما رأى ما وقع فيه البعيث قال قصيدته : —

ألا استهزأتْ منى هُنيدةُ أن رأت أسيرا يُدانى خطوَهُ حلقُ الحِجلِ

يَلحى البعيث ، وينهض للدفاع عن قومه فى وجه جرير ويفخر بنفسه وقومه ، فقال البعيث يهجو جريرا ويجيب الفرزدق : —

أهاجَ عليك الشوقَ أطلالُ دِمنةٍ بناصِفةِ الجوَّين أو جانبِ الهَجل

وفيها يلحى الفرزدق ، ويسخر بقيده ، ويفخر بنفسه ، وذبه عن رهطه ، ويذكر مآثر قومه وأيامهم ، ويهجو جريراً وبنى كليب .

فقال جرير يجيب البعيث ويهجو الفرزدق : —

عُوجى علينا واربعى ربَّةَ البَعلِ ولا تقتلينى ، لا يَحلُّ لكم قَتلى

نعى فيها على الفرزدق مسلكه معه ، وذكر إشادته بتميم ودفاعَه عنها ، وهجا البعيث والفرزدقَ ، وافتخر ببربوع ، وأشار فى آخرها إلى أبى خالد الحارث بن أبى ربيعة المخزومى والى البصرة من قبل عبد الله بن الزبير ، وأثنى عليه ، ورجاه ألا يشمت به أعداءه المتربصين به الهلاك .

وظاهر من النصوص والروايات[2] أن الفرزدق كان حريصاً ألا يلتحم

---

(١) راجع شرح البيتين فى النقائض ص ١٢٥ (٢) راجع النقائض ص ١٢٣

بجرير فى المهاجاة ، ولـكنه وجد نفسه محرجاً فقد هجا جرير رهطه فى اشتباكه مع البعيث ، وأحفظه نساء قومه ، وجره البعيث إلى المعركة ، فلم يستطع أن يقف بعيدا واضطر بعد ما سبق ذكره أن يجيب جريراً ولـكنه يهجو معه البعيث بهذه القصيدة التى يقول أبو عُبيدة إنها أول قصيدة هجا بها جريرا : —

ألم تر أنّى يومَ جوّ سُوَيقَةٍ بكيتُ فنادتنى هُنيدَةُ : مَا لِيا

دلّ فيها على البعيث ، ونفاه عن مجاشع ، ورماه بجر الشرور : —

وما أنت مِنا غيرَ أنك تدعى إلى آل قُرْطٍ بعد ما كنت عانيا

تكونُ مع الأدنى إذا كنتَ آمنا وادعى إذا غَمّ الغثاء التراقيا

ثم التفت إلى جرير وقومه ، فأنذره بالويل لما تعرّض له بالهجاء ، وتزل بقومه إلى الحضيض أمام مجد دارم وسنائهم وجلال أحسابهم .

فأجابه جرير بنقيضته : —

ألا حَيِّ رَهْبَى ثم حَيِّ المطالِيا فقد كان مأنوساً فأصبح خاليـا

وفيها يشتفى بالنسيب الرقيق الرائع ، ثم يورد هذه الأبيات التى عاتب بها ابنه أو أباه أو أخاه أو عمه على اختلاف الروايات والتى يقال إن يزيد بن معاوية تمثل ببعضها أمام أبيه فظنها له ، وبها توسل جرير حتى دخل على يزيد لما ولى الخلافة ، ثم افتخر بنفسه ومكانته من خندف والتفت إلى (قيون مجاشع) الذين غدروا بالزبير فى أعقاب وقعة (الجمل)

فقال البعيث للفرزدق — لما وقع الشر بينه وبين جرير وجعلا لا يلتفتان إلى البعيث ، فقال لنا سقط البعيث — :

أشاركتَنى فى ثعلبٍ قد أكلتُه فـلم يبقَ إلا رأسُه وأكارِعُهُ

فدونَك خُصْيَيهِ وما ضمّت استُه فإنك قمامٌ خَبيث مراتِعُه

ستَلفِظُ يوماً إن تمطّقتَ لحمَهُ وتدْسَعُ منه بالذى أنت بالُه

وقال البعيث لبنى عِقان بن محمد بن سفيان بن مجاشع فى شىء كان بينه و بين الفرزدق : —

و إنى لأستبقيكُمُ ولقد أرَى لبئسَ الموالى لو يَرِقّ لكم عَظمى
همُ استنفذوا منى الكُليبىَّ بعدما هوَى بين أنياب شبَكن مِن اللُّحْمِ

فلقى البعيثَ ناجيةُ بنَ صعصعة أخو غالب أبى الفرزدق ، فقال له ناجية : أنت المعيِّرنا بأعين ، والشاتمُ أعراضنا ، والملقى ذنبك علينا ، وقد منّنا عليك ، ورمينا دونك إذ كلّت مراميك ، فقال البعيث لناجية بن صعصعة فى ذلك : —

أناجىَ ، إنى لا إخالُكَ ناجيا ولا مُفلِتِى إلا رَكوباً مُوَقّعا
أناجِىَ قد عُدَّ اللئامُ فلا أرى من الناسِ أدنى من أبيكَ وأوضعا
تمنيتم أن تشتمونا وتُتركوا أصَعصَعَ للنُّوكِ المضَلَّلِ صَعْصَعا
وما ترك الهاجون لى فى أديمكم مَصَحَّحا ، ولكنّى أرَى مُتَرَقَّعَا

قال أبو عبيدة : فلم يزل الفرزدق وجرير يتهاجيان حتى هلك الفرزدق .

٥ — وأما (الأخطل)[1] فقد قيل إنه لما بلغه تهاجى جرير والفرزدق قال لابنه مالك : انحدِر إلى العراق حتى نسمع منهما فتأتينى بخبرهما ، فانحدر مالك حتى لقيهما ثم استمع منهما ، ثم لقى أباه فقال : وجدتُ جريراً يغرف من بحر ، ووجدت الفرزدق ينحت من صخر ، فقال الأخطل : الذى يغرف من بحر أشعرهما ، ثم قال يُفضّل جريراً الفرزدق : —

إنى قضيتُ قضاءَ غيرَ ذِى جَنَفٍ لما سمعتُ ولما جاءنى الخَبَرُ

---

(١) راجع نقائض جرير والفرزدق ص ٤٩٤ و ٨٧٩ والأغانى جـ ١١ ص ٦١ وجـ ٨ ص ٦٢ و ٧٢ و ٣١٥ ونقائض جرير والأخطل ص ١٩٧ .

إن الفرزدقَ قد شالت نِعامته وعضَّه حيَّة مِن قومهِ ذَكرُ

فلما ولى بشرُ بن مروان الكوفةَ سنة اثنتين وسبعين هجرية قدم عليه الأخطل فبعث إليه محمد بن عُمَير بن عطارد المجاشعى بألف درهم و بغلة وكسوة وخمر وقال له : لاتُعِنْ على شاعرنا واهجُ هذا الكلب (يعنى جريراً) الذى يهجو بنى دارم فإنك قد قضيتَ له على صاحبنا فقل له أبياتاً فاقض لصاحبنا عليه ، فقال فى ذلك الأخطل : —

إخسأ كُليبُ إليكَ ، إن مُجاشِعاً وأبا الفوارسِ نهشلاً أخوان
قوم إذا خطرت عليك قُرُومُهم جعلوكَ بين كلاكِلٍ وجِرَانِ
و إذا وضعتَ أباك فى ميزانِهم رجحوا وشال أبوك فى الميزان
ولقد تجاريتم إلى أحسابكم و بعثتُمُ حَكَماً مِن السلطانِ
فإذا كُلَيبٌ ليس تعدل دارما حتى تُوازنَ حَزْرَماً بأبانِ
أجريرُ إنك والذى تسمو له كَعَسيفةٍ فَخرتْ بِحدجِ حَصانِ
و إذا سمعتَ بِدارمٍ قد أقبلوا فاهْرَب إليك مخافةَ الطوفانِ

فبلغ ذلك جريراً فقال يرد عليه حكمه و يهجو محمد بن عُطارد و بنى تغلب والفرزدق وقومَه و يفتخر برهطه ، وذلك فى نقيضته المشهورة : —

لِمَن الديارُ بِبُرقَةِ الرَوْحانِ إذ لانبيعُ زمانَنا بزمانِ

فرد الفرزدق على جرير بنقيضته : —

يابنَ المراغة والهجاء إذا التقت أعناقُه وتماحكَ الخصمانِ

و بذلك دخل الأخطل المعركة مع الفرزدق ، فندم الأخطل لما هجاه جرير وقال : ماأدخلنى بين رجلين من بنى تميم ، وسقط المتعرضون بين جرير والفرزدق، وتكاوح الشر بين الثلاثة ، ولما بلغ الأخطلَ قول جرير : —

لاقَيْتَ مُطَّلِعَ الجِراء بنابِهِ رَوْقٌ شَبِيبَتُهُ وعمرُكَ فانِ

قال الأخطل : صدق ، إنه لشاب : ولقد ولَّيتُ . . . وبقى فى المعركة حتى هلك ، فقال فيه جرير : —

زار القبورَ أبو مالِكٍ فأصبح أهونَ زُوَّارِها

فأجابه الفرزدق فقال : —

زار القبورَ أبو مالِكٍ برغم العُداةِ وأوتارِها[1]

ولما سمع جرير بموت الفرزدق قال : —

هلك الفرزدق بعدما جدَّعتُه ليتَ الفرزدق كان عاش قليلا

ثم بكى ، فسأله القوم ما يُبكيك ، قال بكيت لنفسى والله إن بقائى بعده لقليل ، إنه قَلَّمَا كان اثنان قرينان أو مُصطَحِبان أو زوجان إلا كان أمد بينهما قريباً ، ثم أخذ يرثى الفرزدقَ ، وما غبر بعده إلا قليلا حتى هلك[2] .

٦ — وكان عَرادَة النُميرى من قيس عيلان نديما للفرزدق فقدم (الراعى) البَصرة فاتخذ عَرادة طعاماً وشراباً ودعا الراعى ، فلما أخذت الكأس منهما قال عَرادة يا أبا جَندل : قُل شعراً تفضل به الفرزدق على جرير[3] فلم يزل يزيّن له حتى قال : —

يا صاحِبَىَّ دنا الأصيلُ فَسِيرا غلب الفرزدقُ فى الهِجاء جَريرا

وكان الراعى شاعر مضر وذا سِنِّها فلامه جرير وقال له : إننى وابنَ عمى هذا نستَبُّ صباحَ مَساءَ وما عليك غلَبةُ المغلوب ، ولا لكَ غلبة الغالب ، فإما أنْ تدعنى أنا وصاحبى ، وإما أن يكون وجهٌ منك إلىَّ أن تُغلِّبَنى عليه فإنى أحق

---

(١) نقائض جرير والفرزدق ص ١٠٤١ . (٢) نفس المرجع ص ١٠٤٥ .
(٣) ص ٤٢٧ والأغانى جـ ٨ ص ٢٩ .

بذلك منك لانقطاعى إلى قيس ، وذبى عنهم ، وحَطْبى فى حَبلهم ، فقال له الراعى ـ وهو من نُمير القيسية ـ صدقت ، نعم ، لا أبعدك من خير ، مِيعادك (المِربَدُ) غدا ، فصبحه جرير فبينما هما يستنبث كل واحد منهما مقالة صاحبه رآهما جندل بن عُبيد الراعى فأقبل يركض على فرس له حتى ضرب وجه البغلة التى تحت أبيه الراعى وقال : مالك يراك الناس واقفاً على كلب من كليب ، وصرفه ، فحمى جرير وقال : أما والله يابن بَرْوَع لتأتين بنى نُمير بأعباء ثقال ، إن أهلى ساقوا بى و براحلتى حتى وضعونى بقارعة الطريق بالمربد ، والله ما أكسبهم دُنيا ولا أخرى إلا لأسُبَّ مَن سَبَّهم من الناس ، و إن عُبيداً بعثه أهله على رواحلهم من أكناف (خُلُصَ وهَبُّودَ) يلتمس عليها الميرة والخير ، وايم اللهِ لأوقِرَنَّ رواحلَه مما ساء نِسوةَ بنى نُمير ، وبات جرير ليلته حتى طلع مع الصـــباح على المربد ببائيته المشهورة فى الراعى وابنه وقومه والفرزدق مفتخراً بقومه حتى ملأت قصيدته الآفاق : —

أقلِّى اللومَ عاذِلَ والعِتـابا وقولى، إن أصبتُ ، لقد أصابا

فأجابه الفرزدق بنقيضته : —

أنا ابنُ العاصمينَ بَنى تميم إذا ما أعظَمُ الحـدثَان نابا

وكان الراعى قال وهو يريد نقضها : ـ

أتانى أن جَحش بنى كُلَيْبٍ تَعرّضَ حولَ دِجلةَ ثم هابا
فأولى أن يظَل العبد يطفو بحيث ينازع الماء السحابا
أتاكَ البحرُ يضرب جانبيهِ أغرّ ترى لِجريتِـه حَبابا

ثم كف الراعى ورأى ألا يجيبه وتولى عنه الفرزدق ذلك ، ولـكن هـذه المخالفة بين قيس والفرزدق فسدت بعد موت الراعى ، وسبب ذلك ماقال الفرزدق

فى قيس عيلان حين قُتل قتيبة فهجاه جندل بن راعى الإبل وذو الأهدام الجعفرى فهجاهما الفرزدق وهجا جريراً معهما[1] ، ووقف جرير مع بنى جعفر مناقضاً الفرزدق .

٧ — وكان (العباس بن يزيد الكِندى) لما سمع قول جرير للراعى :

إذا غضبت عليك بنو تميم حسبتَ الناسَ كلهمُ غِضابا

قال : —

ألا رغِمت أُنوفُ بنى تميمٍ فُساةِ التمر إن كانوا غِضابا
لقد غضبت عليك بنو تميم فما نكأت بغضبتها ذُبابا
لو اطّلع الغرابُ على تميم وما فيها من السوءات شابا

فانتهز جريرٌ إثماً تورّط فيه الكندى بعد ذلك بسنين ، فقال له : —

إذا جهل الشقىُّ ولم يقدِّر لبعض الأمر أوشك أن يُصابا
أعبداً حلّ فى شُعَبَى غريبا ألُؤماً لا أبالكَ واغترابا ؟

إلى آخر ما قال مما لا نذكره هنا[2]

٨ — وأما (سُراقة البارقى) فقد حمله بشر بن مروان وأكرهه على هجاء جرير فقال سُراقة :

إن الفرزدقَ برَّزت أعراقُه عَفواً وغُودِرَ فى الغُبار جريرُ
ما كنتَ أولَ مِحْمَرٍ قعدت به مَسعاتُه إن اللئيم عَثورُ
هذا قضاء البارقى وإنه بالميل فى ميزانكم لبَصير

ثم بعث بشر إلى جرير رسولا وأمره أن يجيبه فقال جرير : —

يا بِشرُ حَقَّ لوجهك التبشيرُ هلاَّ غضبتَ لنا وأنت أمير ؟!

---

(١) نقائض جرير والفرزدق ص ٩٠٩ . (٢) الأغانى ج ٨ ص ٢١ .

بِشرُ أبو مَرْوانَ إن عاسَرْتَه عَسِرٌ وعند يسارِهِ مَيسور
إن الكريمةَ ينصرُ الكرمَ ابنُ ا وابنُ اللئيمة لِلئـــامِ نَصور
قد كان حقَّك أن تقول لبارق يا آل بارقَ ، فيمَ سُبّ جرير
وكسحتَ باستِكَ للفخار وبارقٌ شيخان : أعمى مُقعَدٌ وكسير[1]

٩ ـ وكان (عَمرو بن لجأ) التيمى من تيم الرِباب يُنشد أرجوزةً له يصف فيها إبله وجرير حاضر ، فعابها جرير ، فعاد ابن لَجأ ينقد قول جرير ويعبث بشعره ، فقال جرير له إنه مُعين للفرزدق وهجاه بقوله : ـ

هَلاَّ ســـوانا ادَّرأتمْ يا بنى لجأ شيئاً يُقارَبُ أو وَحشاً لها غِررُ
أحينَ كنتُ سِمَـاما يا بَنى لجأ وخاطرتْ بى عن أحسابها مُضرُ
خـلِّ الطريقَ لمن يبنى المنارَ به وابرُزْ ببَرزةَ حَيث اضطرك القدَر
أنتَ ابن برزةَ منسوباً إلى لَجأ عند العُصارةِ والعيـدانُ تُعتَصرُ

فقال ابن لجأ يرد عليه : ـ

لقد كذبْتَ وشرُّ القول أكذَبُه ماخاطرَتْ بك عن أحسابها مُضرُ
بل أنتَ نَزوةُ خـــوّار على أمَةٍ لا يسـبق الحلَباتِ اللؤم والخَوَرَ
ما قُلتَ مِن هـــذه إلا سأنقضها يابنَ الأتانِ ، بِمثلى تُنقضُ المِرَرُ

وتهاجيا بعد ذلك[1] .

١٠ — ووجد ابن لجأ مَن أعانه على جرير وهو (البلْتع ، المستَنير بن سَبْرَةَ العنبرى) فقال لجرير : —

إن التى ربَّتـــك لما طُلِّقَتْ قعدتْ على جحشِ المراغة تمرَغُ

---

(١) المرجع السابق ص ١٨ . (٢) الأغانى جـ ٨ ص ١٨ و ٧٠ والنقائض ص ٤٨٨ .

أتعيبُ مَن رَضِيَتْ قُرَيشٌ صِهرَهُ وأبوكَ عبدٌ بالخـــورنَقِ أذْلَعُ

فأجابه جرير : —

فما مســـتَنيرُ الحُبثِ إلا فَراشَةٌ هَوَتْ بينَ مؤتَجِّ الحريقَينِ ساطعِ

نهيتُ بناتِ المستنيرِ عن الرُّقى وعن مَشيهنَّ الليـلَ بين المزارعِ[1]

١١ — وأقبل (جفنة الهزّانى العَنزى) يمدح جريراً ويسأله فلم يعطه جرير الحلة التى طلبها فمضى جفنة إلى المرّار بن منقذ أحد بنى العدَوِيّة ، فحمله على ناقةٍ له يقال لها القصواء ، فقال جفنة :

لَعمـــــرُكَ للمَرّارُ يومَ لَقيتُه على الشحطِ خيرٌ من جرير وأكرمُ

فقال له جرير : —

لقد بعثَتْ هِزّانُ جَفنةَ مائراً فآبَ وأحذى قومَهُ شرَّ مَغنَمِ

فيا راكبَ القَصواءِ ، ما أنتَ قائلٌ لِهزّانَ إذْ أسلمتَها شرَّ مُسلمِ

أظنُّ عِجانَ التيسِ هِزانَ طالباً عُلالةَ سَبّاقِ الأضاميمِ مِرْجَمِ

كأنَّ بنى هِزّانَ حين رَدَيتُهُمْ وِبارٌ تضاغت تحت غارٍ مُهَدَّمِ

بنى عبدِ عَمرٍو قد فرغتُ إليكمُ وقد طال زجرى لو نهاكم تقدُّمى

ورَصْعاءَ هِزانيةٍ قد تحفشتْ على مِثلِ حِرباءِ الفَلاةِ المعممِ[2]

١٢ — نازع جرير بنى حِمّان — حى من تميم أحد حيى سعد بن زيد مَناة — فى رَكيةٍ لهم ، فصاروا إلى إبراهيم بن عدى باليمامة يتحاكمون إليه فقال جرير : —

أعوذ بالأمير غـــيرِ الجبارْ من ظلم حِمانَ وتحويل الدارْ

ما كان قبلَ حفرِنا من مِحفارْ وضَربى المِنقارَ بعـــدَ المِنقارْ

---

(١) المرجع السابق ص ١٩ .

(٢) ص ٢٢ .

فى جبـــل أصمَّ غيرِ خوارْ يصيح بالجبِّ صياحَ الصرَّارْ
له صَهيل كصهيل الأمهارْ فاسألْ بنى صَحْب ورهط الجرارْ
والسلَمِيِّينَ العظامَ الأخطارْ والجار قد يخبر عن دار الجارْ

فقال الحِمانى : —

ما لِكليبٍ مِن حِمًى ولا دار غير مُقامِ أتُنٍ وأغيـــارْ
قُعْس الظهور دَاميات الأنفارْ

فقال جرير : فعّن مُقامِهن ، جعِلتُ فِداك ، أجادل . فقال ابن عدِى للحِمانى : قد أقررتَ لخصمك ، وحكم بها لجرير[1].

١٣ ـ وقد عرض (الصلَتان العبدى) للحكم بين جرير والفرزدق ، فلم يرض واحد منهما قوله ، فقال الفرزدق : أما الشرف فقد عرفه وأما الشعر فما للبحرانى والشعر ؟ وقال جرير : ـ

أقول ولم أملِك سوابقَ عَبرةٍ متى كان حكم اللهِ فى كرَب النخل

فقال الصلتان : ـ

أعيَّرتَنا بالنخلِ أن كان مالَنـا لَوَدَّ أبوك الـكلب لو كان ذا نَخلِ

فاعترضه (خُلَيد عيْنَيْن) من أهل هَجر فقال : ـ

وأىُّ نَبِىٍّ كان فى غَيرِ قرْيَةٍ وما الحُكم يابنَ اللؤم إلاَّ مع الرُّسل[2]

١٤ ـ هذا وقد التحم الفرزدقُ مع الطِرِمّاح) بن حكيم الطَائى الخارجىِّ ، ومن قول الطرماح فى ذلك : ـ

تَميم بطُرق اللؤم أهدى من القَطا ولو سلكتْ سُبل المكارم ضلَّتِ
فخِرتَ بيوم لم يكن لك فخرُه وقد نهلت منه الرماح وعلّت

---

(١) الأغانى جـ ٨ ص ٦٣ . (٢) طبقات ابن سلام ص ١٤٣ مصر .

كفرِ الإماءِ الرائحات عشيَّةً بِرَقم حُروج الحيِّ لما استقلّت

ومن نقض الفرزدق لهذه القصيدة : ـ

لقدهتكَ العبدُ الطِرِمَّاحُ سِترَهُ وأصلَى بنـــارٍ قومَه فتصلَّتِ
سَعيراً شوَتْ منهم وجوهاً كأنها وُجوهُ خَنازير على النار مُلَّتِ
فما أنجبتْ أم العِلافيِّ طيِّئ ولكن عجوز أخبثت وأقلّت[1]

١٥ ـ وفى أثناء هرب الفرزدق من زياد أتى الروحاء فنزل فى بكر بن وائل فأمن وقال فى ذلك قصيدته : ـ

قد ميّلتْ بينَ المسير فلم تجدْ لعَورتها كالحيِّ بكرِ بنِ وائلِ
أعفَّ وأوفى ذِمَّة يعقدونها إذا وازنتْ شُمُّ الذرى بالكواهل

فقال (الأشهب بن رُميلة النهشلى) ينقضها : ـ

إن تميما شرُّها وأذلُّها وألأمها جيرانُ بكرِ بنِ وائلِ
ولستُ بِرَوّاغ يروغ لظهرِه إذا ركَبَتْهُ الحربُ ذاتُ التلاتلِ[2]

١٦ ـ وفى ثلاث وسبعين هجرية قُتل عبد الله بن الزبير ، وهدأت الفتنة واجتمع الناس على عبد الملك ، وتكافّتْ قيس وتغلب عن المغازى بالشام والجزيرة وظن كل واحد أن عنده فضلا لصاحبه ، وتكلم عبد الملك فى ذلك ولم يُحكم الصلح ، فبيناهم على تلك الحال إذ أنشد الأخطل عبد الملك بن مروان وعنده وجوه قيس قوله : ـ

ألا سائل الجحّافَ هل هو ثائرٌ بِقتلَى أُصيبت من سُليم وعامِر
أجحّافُ إن نهبط عليك فتلتقى عليك بحورٌ طاميات زواخر
تكن مثلَ أبداء الحبابِ الذى جرى به البحرُ تزهاهُ الرياح الصراصر

---

(١) ديوان الطرماح ص ١٢٩ وديوان الفرزدق ص ١٣٥ .

(٢) نقائض جرير والفرزدق ص ٦١٢ — ٦١٥ .

فوثب (الجحّاف) بجر مطرفه وما يعلم من الغضب وهو يقول : ـ

نعم سوف نَبكيهمْ بكل مُهَنَّدٍ ونَبكى عُميراً بالرماحِ الخواطر[1]

فأنت تجد أن اشتراك شعراء العصر الأموى يرجع إلى السياسة ، والقبيل ، والفن ، والطمع والرِشوة ، وأسباب العيش ؛ والسلطان الأدبى ونحوها . ولسنا نجزم بأننا أحطنا بمن اشتركوا مع هؤلاء الفحول الذين يمثلون النقائض الخاصة ، فقد يكون بعضهم خفى علينا .

— ٣ —

ويبقى علينا بعد ذلك هؤلاء الشعراء الذين اشتبكوا فى مناقضات عامة ، وأريدُ بهم جماعة لم يشهروا بهذا الفن ولم يفرغوا له فراغ جرير وصحبه ، وإنما جرت المناقضة على ألسنتهم أحياناً دن أن يلتزموها ، وهؤلاء سنفرد لهم فصلا خاصاً نلم فيه بأمثلة من نقائضهم ، لذلك ندع ذكرهم إلى موضعهم من هذه الفصول .

---

(١) الأغانى جـ ١١ ص ٦٠ بلاق .

الفصل الرابع

مُقوِّمات النقائض الأموية

— ١ —

وإنما نحاول فى هذا الفصل أن نتقدم خُطوة أخرى داخلَ موضوعنا ، فنلم بمقوّمات النقائض فى هذا الطور من تاريخها الأدبى أو بهذه العناصر المعنوية التى اعتمدت عليها النقائض لتقسيم عليها فنونها السياسية ، والهجائية ، والفخرية ، والغزلية ، والرثائية ، والحماسية وما إليها مما ذكرناه فى الفصل الثانى من هذا الباب .

كانت هذه العناصر ، إذاً ، هى المواد الأولية التى يبنى منها المتناقضون قصائدهم ، وكل يتخذ لنفسه منها ما يلائم موقفه ، ويسدد حجته ، ويَروع خَصمه ، ويكسبه هو الظفَر ، وبُعدَ الصيت ، وعُلُوَّ المكانة له ولقبيلته .

وليس من خُطتنا ، هنا ، أن نستقصى المعانىَ الجزئية التى أوردها كل مناقض فى شعره ، وحسبنا أن نقول إنها تدخل فى أبواب : الأيام ، والأنساب ، والأحساب ، والدين ، والشعر ، والشمائل ، والحوادث الاجتماعية ، والمواقف السياسية ، وعلينا أن نشير إلى كل من هذه النواحى بالإيجاز والاستشهاد لعل فى ذلك مفتاحاً للباحثين .

وكانت (الأيام) فى مقدمة هذه العناصر شيوعاً فى النقائض ، استغلها المتناقضون إما فخراً بها إذا كانت فى جانبهم وإما تعييراً لخصومهم الذين كانت عليهم لأى قبيلة كانت . وكانت الأيام جاهلية تتصل بتاريخ القبائل الماضى ،

و إسلامية تلابس تاريخها الحديث ، وكانت الأيام الجاهلية أشد ظهوراً فيما دار بين جرير والفرزدق كما كانت الإسلامية واضحة فيما دار بين جرير والأخطل .

وسنرى أيضاً أن موقف جرير الذى شرحناه من قبل جعله يفتخر بأيام لتميم عامة حيناً ، وأيام ليربوع خاصة حيناً آخر وذلك يكون فى وجه مجاشع رهط الفرزدق ، وأيام لقيس عيلان أمام الفرزدق والأخطل ، وأن موقف الفرزدق جعله يفخر بأيام تميم كثيراً إذ جعل نفسه زعيمها والمتكلم باسمها ، كما جعله يفتخر بأيام لدارم رهطه خاصة ولعل ذلك قليل ، وكان كذلك يذكر أيام تغلب رهط الأخطل يتحدى بها قيس عيلان ويذكر أيام ضَبّة أخواله . وقد ذكر البعيث يوم (أوارة الثانى) على اعتبار أنهم ثأروا له كما يلى . وكان الأخطل يذكر أيام تغلب رهطه ، وأيام دارم خاصة ممالأة للفرزدق ، ويواجه قيس عيلان بما عليها من أيام وهكذا .

وهناك أيام أخرى اشترك فى الفخر بها شاعران أو أكثر لأنها قَدْر مشترك بين القبائل فكان من حق الشعراء أن يساهموا فى الإشادة بها ، أو لأنها ذات جانبين ، كل شاعر له وجهة نظر إليها من حيث تاريخها الواقعى أو من حيث ما لابسها من حوادث .

وذلك استدعى ورود هذه الأيام على ألسنة المتناقضين مفتخرين بها أومعيرين خصومهم بما لابسها من أحداث .

وهناك ظاهرة أخرى هى أن بعض المواقف اقتضت الخروج عن ذلك الأصل العام الذى بيناه من قبل ، من ذلك أن الفرزدق يفخر بيوم (فَيف الريح)[1] وهو لعامر القيسية على بعض القبائل ، وقد دعاه إلى ذلك دفاعُه عن الراعى القيسى

---

(١) نقائض جرير والفرزدق ص ٤٦٩ .

أمام جرير، كما فخر بيوم (المَرُّوت)[١] وهو ليربوع على قُشَير، وهذا فخر يتجه به إلى قيس عيلان فهو يتكلم باسم تميم كلها، وكذلك فعل بيوم (ذو نَجَب) ليربوع على عامر القيسية[٢] ونحو ذلك فخـــر جرير على الراعى القيسى بيوم (الكُلاب الثانى) لتميم على مذحج[٣].

على أن نتائج بعض هذه الأيام وحوادثها موضع خلاف بين الرواة فآثرنا هنا مجاراة شراح النقائض إذا كان ذلك مطابقاً لسياق القصائد وتفسير أبياتها، ومهمة المؤرخ، فى مثل هذا الموقف، أن يصف ما كان يعتقده الشعراء فصوروه فى شعرهم، وإن كان عليه بعد ذلك عمل التحقيق التاريخى، ذلك شىء.

وشىء آخر أننى لم أستقص ما ورد فى النقائض من أيام، إذ كانت كثيرة جداً يعوزها إحصاء دقيق ودراسة خاصة، فاقتصرت على أشهرها واستعنت على حصرها بما ورد منها فى فهارس نقائض جرير والفرزدق، وفهارس نقائض جرير والأخطل، ثم ما ورد فى ديوان الأخطل أيضاً[٤]، وقد آن الأوان لعرض شواهد هذا الجانب من مقومات النقائض وعناصرها متوخياً الإيجاز، وعلى من يريد التوسع أو الاستقصاء أن يرجع إلى النقائض والدواوين وشروحها ففيها ما يشفى غلته.

---

(١) نفس المرجع ص ٣٨٥ و ٣٨٨. (٢) ص ٣٧٥ و ٣٨٨ و ٣٩١ و ٣٩٢. (٣) ص ٤٤٨

«٤» منها أيام: إراب، أقرن، أوارة، الإياد، بزاخة، البشر، تياس، ثيتل، جبلة، جدود، جزع ظلال، حومل، خزاز، الدفينة، ذو قار، ذو نجب، رحرحان، الرغام، زبالة، سفوان، الشيطان، الصرائم، صوءر، طخفة، الغبيط، غول، كنهل، الفروق، فيف الريح، القويرة، قشاوة، الكلاب الأول، الكلاب الثانى، اللوى، المروت، ملزق، النباح وتيتل، النسار، نقا الحسن، النقيعة، الهباءة، هراميت، الوتدات الوقيط، ماكسين، الوثار، فدين، الكبر، المعارك والحضر، البليخ، الكحيل، سنجار، الشرعية، الحشاك، ذو بهدا، العدان، العطالى، راهط، الذنائب، شراحيل، واردات:

١ — كان يوم (إراب) لتغلب على يربوع حين أغار الهذيل بن هبيرة التغلبي على بنى رياح بن يربوع ، وفيه يقول الفرزدق لجرير : —

لقد ترك الهُذَيل لكم قديما ... مخازىَ لا يَبِتْنَ على إرابا[1]

ويقول فى نفس النقيضة : —

نساءُ كُنَّ يومَ إراب خلّت ... بُعولَتهن تبتدرُ الشِعابا[2]

ويقول فى أخرى : —

ولم تمنعوا يومَ الهذيل بَناتِكُم ... بَنى الكلب، والحامى الحقيقةِ مانعُ

غداةَ أتت خيل الهُذَيل وراءكم ... وسُدّت عليكم من إرابَ المطالعُ[3]

ويقول فى ثالثة : —

وكأنَّ راياتِ الهذيل إذا بدت ... فوقَ الخميس كواسرُ العِقبانِ

وردوا إرابَ بجَحفلٍ من وائل ... لجِبِ العَشِىّ ضُبارِكِ الأركان

ويبيتُ فيه من المخافة عائذا ... ألفٌ عليه قوانسُ الأبدانِ

تركوا لِتغلِبَ إذ رأوا أرماحهم ... بإرابَ كُلَّ لئيمة مِدران

يَمشينَ فى أثر الهذيل وتارةً ... يُرْدَفْنَ خلفَ أواخر الرُكبانِ

أحبَبنَ تغلبَ إذ هبطنَ بلادهم ... لما تَمِنَّ وكنَّ غيرَ سِمانِ[4]

٢ — وكان يومُ (أقرُن) لعبس على دارم فعير به جرير الفرزدق : —

عرفتم بنى عبس عشيةَ أقرُنٍ ... فَخُلِّىَ للجيش اللواءُ وحامِلُه[5]

---

(١) نقائض جرير والفرزدق ص ٤٧٣

(٢) نفسه ص ٤٧٦

(٣) نفسه ص ٧٠٢

(٤) نفسه ص ٨٨٢

(٥) نفسه ص ٦٧٨

وفى نقيضة أخرى يقول له : —

هل تعرفون على ثَنِيَّةِ أقرُنٍ أنسَ الفوارسِ يومَ شُكَّ الأسلعُ[١]

٣ — وأما يوم (أوارة الثانى) فكان لعَمرو بن هنـد ، وقد تناوله البعيث مفتخراً بالثأر له بيوم طيىء إذ يقول : —

ونحنُ حـدرنا طيئاً عن بلادها ونحنُ رددنا الحوفزانَ مُكَلَّما[٢]

وعيَّر به جرير الفرزدقَ إذ كانت نازلتُه بدارم فقال : —

ولسنا بذِبْحِ الجيشِ يومَ أُوَارَةٍ ولم يستبحنا عامرٌ وقنا بِلُه[٣]

٤ — ويومُ (الإياد) ليربوع على بكر و به افتخر جرير أمام الفرزدق :

وما شهدتْ يومَ الإياد مُجاشع وذا نجب يومَ الأسنةُ تُرْعف[٤]

٥ — وكان (بُزاخة) لضبة (أخوال الفرزدق) على إياد ففخر به الفرزدق:

مَلِكان يوم بُزاخة قتلوهما وكلاهما تاج عليه مُكلَّلُ[٥]

٦ — ويوم (البشر) من الأيام الإسـلامية المشهورة لقيس على تغلب ، فأخذه جرير وعيّر به الأخطلَ وقاس عليه هزائم مجاشع فقال للفرزدق : —

وقبلك ما أخزى الأخيطلُ قومه وأسلمهم للمأزِق المتـلاحِم[٦]

وقال فى نقيضة أخرى وسماه يوم الرَحوَبين : —

وظلَّ لكم يومٌ بِسنجارَ فاضحٌ ويومٌ بأعطانِ الرَحُوبَين أفضحُ[٧]

وفى يوم البشر أشار الشمَرْذَى البكرى على بنى تغلب أن يحرقوا قتـلاهم لئلا يعيروا بهم إذا قبروهم لكثرتهم ، فوقع شهاب على جنب الشمرذى فأحرقه

---

(١) نقائض جرير والفرزدق ص ٩٧٧ (٢) نفسه ص ٤٥ (٣) نفسه ص ٦٥٢
(٤) نفسه ص ٥٨٠ (٥) نفسه ص ١٩٢ (٦) نفسه ص ٤٠١
(٧) نفسه ص ٥٠٨

ثم قتلته قيس بعد ذلك بالبَلِيخ ، قتله رجل من غَنِيٍّ ، وفى ذلك يقول جرير :

ولقد شفوك من المكوّى جنبُهُ والله أنزله بدارِ هَوانِ (١)

ويقول للأخطل بلسان قيس عيلان : —

ولقد شقّقتْ يوم الرَحوبِ سُيوفُنا عواتقَ لم يثبُتْ عليهنّ محمَلُ (٢)

ويقول فى أُمِّ الأخطل : —

أُمُّ الأخَيطلِ بالرَحوبِ إذا انتشت علِقتْ بِشِقْشِقَةِ العِجان هديرا (٣)

وفى هذا اليوم يقول نُفَيع بن صفّار المحاربى القيسى للأخطل : —

أبا مالكٍ لو أدركتكَ رماحُنا لحرّ البواقى من نواجذكَ الُخضرِ

وإنّ نداماكَ الذينَ خذلتَهم أبا مالكٍ عند المؤاساة والصبرِ

ثَوَوا إذ لقُونا بالرَحوب كما ثوت ثمودُ إلى يوم القيامةِ بالحِجْرِ (٤)

ويقول جرير أيضاً . —

رقصت بعاجنة الرَحوب نساؤكم رقصَ الرئال ومالَهُنَّ ذُيُولُ

أينَ الأراقمُ إذ تجرُّ نساءهم يومَ الرَّحوب مُحاربٌ وسَلولُ

قد كان فى جِيَفٍ بدِجلةَ حُرِّقت أوفى الذين على الرَحوب شغول (٥)

٧ — ويُعد يوم (جبلة) من أعظم أيام العرب لعامر وعبس على تميم وذبيان وفيه أسر حاجب بن زُراة الدارمى من تميم ، ادعى أسره ذو الرُقَيْبَةِ القُشَيرىّ من عامر بن صعصعة من قيس عيلان وادعاه الزَهْدَمان من عبس فحكّمته عبس وعامر فى نفسه فحكم أنه أسيرُ ذى الرُقيبة وأعطاه ألفَ بعير ، وأطلق له مائة

(١) نفسه ص ٨٩٩

(٢) نقائض جرير والأخطل ص ٦٩

(٣) نفسه ص ١٢٦

(٤) نفسه ص ٣٩

(٥) نفسه ص ١٨٦

أسير من أسارى قيس فى بنى تميم ، وأعطى العبسيين بما نالا من ثيابه مائة ناقة ، وإنما ديات الملوك ألفُ بعير فزادهم حاجب على فداء الملوك مائة ناقة ومائة أسير وافتك نفسه من الأسر .

هذا الحادث تناول منه الفرزدق جانباً يلائم فخره وهو جانب الافتداء ، وسكت عن جانب الأسر فقال من نقيضة مفتخراً :

وما علِمَ الأقوامُ مثلَ أسيرِنا أسيراً ، ولا أجدائِنا بالكواظم[1]

أما جرير فقد عيّر الفرزدق بهذا الأسر وقرنَ به قتلَ لقيط بن زُرارةَ هذ اليوم ، وفِرَارَ عَمرو بن عَمرو الدارمى ، فقال جرير :

كأنك لم تشهدْ لقيطاً وحاجبا وعمرو بن عَمرو إذ دعوا يا لَدارِم[2]

ثم عيّر قوم الفرزدق بذلك اليوم (وسماه الصفا) ومعه يوم الوَقيط (الحزن) : —

ويومَ الصفا كنتُم عبيداً لعامرٍ وبالحزن أصبحتم عبيدَ اللهازِم[3]

ثم وقف عند مسألة الافتداء فنقضها على الفرزدق وفسرها بأنها خضوع لحكم مفروض ، وذلة لقهر غالب :

ألم تُعطِ غَصْباً ذا الرُّقَيبة حُكمَهُ ومُنيةَ قَيْسٍ فى نصيبِ الزهادِم[4]

٨ — و (ذو نَجَب) يوم لبربوع على عامر بن صَعْصعة من قَيس عيلان ، أما جرير فقد اعتزّ به على الفرزدق وقرنه بيوم (جِزع ظِلال) وإن كان اليوم على عامر القيسية، قال جرير : —

---

(١) نقائض جرير والفرزدق ص ٣٧٩ (٢) نفس المرجع ص ٤٠٩ .
(٣) نفسه ص ٤٢٦ . (٤) نفسه ص ٤٢٥ .

فاسألْ بذِى نَجب فوارسَ عامرٍ واسألْ عُيينةَ يومَ جِزع ظِلالِ[١]

ويقول فى بائيته المشهورة : ـ

حَمينا يومَ ذى نَجب حِمانا وأحرزْنا الصنائعَ والنهابا[٢]

ويقول فى نقيضة له : ـ

بذى نَجب ذُدنا وواكل مالكٌ أخا لم يكن عند الطِعان يُواكله[٣]

ثم يقول فى أخرى هاجياً الفرزدق :

أقَيْنَ بن قين لا يَسرُّ نساءنا بذى نَجبٍ أنَّا ادعينا لدارم[٤]

وغير ذلك . أما الفرزقُ فقد حلّق بهذا اليوم فى أفق أوسع واتخذه لتميم عامة وافتخر به على قيس عيلان وقال جرير فى شأن قيس : ـ

وكان لهمْ يومانِ كانا عليهمُ كأيام عاد بالنُحوس الأشائم[٥]

يريد يومَ ذى نجب ويومَ الوقِدات ، ويقول فى نفس القصيدة : ـ

بذى نجب يومٌ لقيسٍ شَريدُه كثيرُ اليتامى فى ظلال المآتم[٦]

ويقول الفرزدق لبنى جعفر بن كلاب من قيس فى فارس (قُرزُل) وهو طفيل ابن مالك بن جعفر الذى فر من يربوع يوم ذى نجب على فرسه قُرزل :

هل تعرفون إذا ذكرتم قُرزُلاً أيامَ ندّ بفارسٍ مذعورِ[٧]

٩ — وكان يوم (صوءَر) ـ وإن لم يكن قتالا بل مذبحة حيوانية ـ مُعاقرة بين غالب بن صعصعة المجاشعى والد الفرزدق وبين سُحيم بن وَثيل الرياحى من يربوع أيام عثمانَ بنِ عفانَ وقد أسرف غالب فى عقر النوق مواءمة حتى غطى على عمل سُحيم، وأنكر ذلك علىٌّ بن أبى طالب وحرَّمَ أكل لحومها لأنها أُهِلَّت لغير الله . أما الفرزدق فقد أكثر الفخر بهذا اليوم فذكر به أباه وهو يعد رجال قومه : ـ

---

(١) نفسه ص ٣٠١ (٢) ص ٤٣٨ (٣) ص ٦٣٧
(٤) ص ٧٦٩ (٥) ص ٣٧٥ (٦) ص ٣٩١ (٧) ص ٩٣١

وصاحبِ صَوءرٍ وأبى مُريح وسَلمى من دعائم ثابتات[١]

وذكر النوق التى عقرت ذلك اليوم أثناء فخره بالكرم : ـ

وما جبرَت إلا على عَتَبٍ بها عراقيبُها مُذ عُقِّرت يوم صوءر[٢]

ولكن جريراً أخذ يسخر بهذا اليوم ، ويقرنه بأيام العراك ، ويضحك الناس بادعاء الفرزدق له ، فيقول بجانب مسألة السيف الآتية : ـ

ضربتَ به عُرقوبَ ناب بِصوءَرٍ ولا تضربون البَيض تحت الغَمائِم[٣]

ويقول له فى نقيضة أخرى : ـ

ولا يستوى عَقرُ الكزوم بصَوْءَر وذو التاج تحت الراية المتسيِّف[٤]

ثم يقول فى أخرى : ـ

لقد سَرَّنى ألا تَعدَّ مجاع مِن الفخر إلا عقرَ نابٍ بِصوْءَرِ[٥]

١٠ — وكان يوم (الكُلاب الأول) لسلمة بن الحارث الكِندى ، ومعه تغلب ، على أخيه شرحبيل ، وبهذا اليوم يفخر الأخطل على قيس ويهجو جريراً ورهطه :

أبنى كُليب إن عَمَّىَّ اللذا قتلا الملوكَ وفكّكا الأغلالا

وأخوهما السفَّاح ظَمَّأ خيلَه حتى وردن جِبَى الكُلاب نِهالا

يخرجن من ثغر الكُلاب عليهم خبب السباع تُبادِرُ الأوشالا[٦]

وهكذا ، ويأتى جرير فتذكر أنهم قتلوا فى هذا اليوم أبا مندوسة مرة بن مجاشع والصمة بن الحارث الجُشمى (جار بيبة المجاشعى) :

ندسْنا أبا مندوسَة القينَ بالقَنا وما رَدَمٌ مِن جار بيبةَ ناقعُ[٧]

وأما (الكلاب الثانى) فكان لتميم على مذحج ، قال جرير يفخر به على

---

(١) نقائض جرير والفرزدق ص ٦٢٥ و ٧٧١ . (٢) ص ٩٥٣ .

(٣) ص ٤١٣ (٤) ص ٥٨٠ (٥) ص ٩٥٥ (١) ديوان الأخطل ص ٤٥

(٢) النقائض ص ٦٩٣

الراعى وقومه ، ويذكر تعريضه قيساً للهجاء ، كما يذكر مآثر تميم :

وبئس القرضَ قرضك عندقيس ... تهجِّيهمْ وتمتـــدح الوِطابا
فلن تسطيعَ حظاتى وسـعدى ... ولا عمـرى بلغتَ ولا الربابا
هُمُ ملـكوا الملوك بذات كهف ... وهم منعـوا من اليمن الكُلابا
إذا غضـبت عليـك بنو تميم ... حسبت الناس كلهم غِضابا[1]

وكذلك الفرزدق ، لم ينس هذا اليوم فأشار إليه فى غير موضع فقال :

وأبى لذى ورد الـكلابَ مُسوِّما ... والخيـل تحت عَجاجِها المُنجال[2]

١١ — وقد قلنا إن يوم (المرُّوت) كان لير بوع على قُشير القيسية ، ووجدنا جريراً يفتخر به على البعيث فيقول :

وقد أثكلت أمَّ البَحيرين خيلُنا ... بِوِردٍ إذا ما استَعلَنَ الروعُ سوَّما[3]

وقال وسماه يوم (العُناب) :

رَددنا بخبراء العُناب نِساءَكم ... وقد قُلنَ عِتقُ اليوم أو رِقُّنا غدا[4]

وقال: ـ

ألا تسـألون المردَفاتِ عشـيةً ... مع القوم لا يَخبأنَ سـاقاً لمُجتلِ[5]

وقال أيضاً : —

ونحنُ تدارَكْنا بَحيراً وقد حوى ... نِهابَ العُنَابين الخميسُ لير بَعا
فعاينَ بالمرُّوتِ أمنـعَ مَعشرٍ ... صريخَ رياح واللواءَ المزعزعا
فوارسَ لا يدعون بالَ مجاشِعٍ ... إذا كان يوماً ذا كواكب أشنعا[6]

ويأتى الفرزدق فيفخر به على قيس وإن كان لير بوع خاصة فيقول :

ويوم جعلنا الظل فيـه لعامرٍ ... مُصَمِّمةً تفأى شـئون الجماجِم

(١) نفس المرجع ص ٤٤٨ (٢) نقائض جرير والفرزدق ص٢٨٩ (٣) ص ٧٠
(٤) ص ٤٨٢ (٥) ص ٧٠٩ (٦) ص ٨٣٥

فمنهن يوم للبريكين إذ ترى بَنُو عامرٍ أن غانمٌ كلُّ سالِمِ[١]

والبُرَيكان هما بُرَيك وأخوه بارك من بنى قُشير بن كعب قتلهما بنو يربوع يومَ المرُّوت .

١٢ ـ ومن أيام قيس على تغلب يوم (الكُحيل) ذكره جرير الأخطل فقال:

وحامَى الفوارسُ يومَ الكُحيلِ ولم تحمِ تغلبُ أدبارها[٢]

١٣ ـ وكان (الثَرثار الأول) لتغلب على قيس فذكره الأخطل فقال فى نقيضة:

لعمرى لقد لاقت سُليم وعامِر على جانب الثرثار راغية البَكر[٣]

ولما كان (الثرثار الثانى) لقيس على تغلب ذكره جرير ، فيما يظهر، فقال:—

لقيتم بالجزيرة خيلَ قيسٍ فقلتم : مارَ سَرْجِسَ لا قِتالا

فلم أر خيلكم صبرت لخيلى ولا أغنت رجالكم رجالا

وأسلمتم شُعيث بنى مُنَيل أصاب السيفُ عاتِقَهُ فمالا[٤]

١٤ ـ وكذلك يوم (الشرْعبية) لتغلب على قيس ، قال الأخطل :

ولقد بكى الجحّاف مما أوقعت بالشرْعَبيَّة إذ رأى الأطفالا[٥]

ولكن جريراً ذكره فى جانب قيس عيلان حيث يقول :

ألم تر قيساً قيس عيلان دمَّرت خنازيرَ بين الشرعبية والدرب[٦]

١٥ — ويوم (الحشّاك) لتغلب على قيس وفيه قتل عمير بن الحباب السُلَمى ، وفيه يقول الأخطل من نقيضة يمدح فيها عبد الملك بن مروان ويهجو قيساً و بنى كليب بن يربوع مشيرا إلى موقف تغلب من الأمويين :

وقد نُصرتَ أميرَ المؤمنين بنا لما أتاكَ ببطن الغُوطةِ الخَبَرُ

يُعرِّفونك رأس ابنِ الحباب وقد أضحى وللسيفِ فى خيشومهِ أثَرُ

---

(١) نفسه ص ٣٨٥ (٢) نقائض جرير والأخطل ص ٤٦ (٣) نفسه ص ٣٤ (٤) ص ١٩٥
(٥) ص ٨٠ (٦) نفسه ص ١١٣

لا يسمع الصوتَ مُستَكا مسامعُه ... وليس ينطقُ حتى ينطقَ الحجرُ
أمستْ إلى جانب الحشاكِ جيفته ... ورأسُـه دونَه اليحموم والصورُ[1]

وقد أمسكتُ عن الاستمرار كارهاً ، خوف الإطالة والإملال ، ولـكن هذا الجانب فى حاجة إلى أن يُفرد له مؤلف خاص يتناول الأيام وما دار حولهـا من مفاخر ، وأهاج ، ومناقضات ، وأقاصيص ، ويُبَيِّن كيف يكون ذلك كله مصدراً لتصوير شخصيات القبائل ، والأبطال ، والحوادث تصويراً تاريخياً أو خيالياً .

ويجب أن يلاحظ أن هذه الأيام حين كانت ترد على لسان شاعر فإن خصمه كان يضع نظائرها أمامها أو ينقضها مكذباً أو مفسراً تفسيراً آخر كما قدمنا وكما يمر بك بعضه .

— ٢ —

وأما مسألة الأنساب فلسنا فى حاجة إلى الوقوف عندها بعدما أسبقنا من القول فى الفصل الثانى من الباب الأول ، وكلُّ ما نشير إليه هنا أن هذا العنصر اعتمد عليه المتناقضون الأمويون واتخذوه مفخرة لهم حيناً كما غمزوا به خصومهم حيناً آخر ، فجرير يذكر أن أم البعيث من سَبى أصفهان : —

أُنبِئتُ أنك يا بن (وَردةَ) آلفٌ ... لِبَنى حُدَيَّةَ مقعدا ومُقاما[2]

وردة هِبة من القَعْقاع بن معبد بن زرارة لأبى البعيث وحُدَيةُ أم بنى ذهَيل غسان وإخوته ، ويقول فيه من نقيضة : —

لَعمرى لقد جارى دَعِى مُجاشِعٍ ... عَذوماً على طول المجاراة مِرْجَما[3]

ويأتى البعيث فى إحدى نقائضه فيعتز بنسبه الدارمى : —

فإنى امرؤ من آل يَربـوعَ نابِهٌ ... وسـادَ بنى سُفيانَ أولُهم قبـلى

(١) نقائض جرير والأخطل ص ١٦١
(٢) نقائض جرير والفرزدق ص ٤٠ (٣) نفس المرجع ص ٦٣

وجدتُ أبى مِن مالك حلَّ بيتُه بحيث تَنصَّى كل أبيض ذى فضل
من الدارميـــين الذين دماؤهم شفاء من الداء المجنة والخبل[1]

ولـكن الفرزدق ينفى البعيث عن مجاشع الدارميين فيقول له : —

وما أنتَ مِنا غـــير أنك تدَّعى إلى آل قُرطٍ بعد ما ثبتَ عانيا[2]

قرط بن سفيان بن مجاشع ، والعانى ههنا العبد الخادم .

وجرير ينسب الفرزدقَ إلى القَين ومعه مجاشع ، وذلك لعبد كان لصعصعة ابن ناجية بن عقال يسمى جُبَيراً فنسب جرير غالباً أبا الفرزدق إلى القين فقال : —

وجدنا جُبَـــيْراً أبا غالب بعيـــدَ القرابة مِن مَعبدِ
أتجعَلُ ذا الـكير مِن دارمٍ وأينَ سُهيلٌ من الفَرقَدِ[3]

ويقول للفرزدق : —

أعيتْكَ مأثرةُ القيونِ مُجاشعٍ فانظُر لعلكَ تدّعى مِن نهشل[4]

فإذا فخر الفرزدق بآبائه فى حنظلة بن مالك وأخواله ضبة فقال : —

وأنا ابنُ حنظلةَ الأغرِّ وإنتى فى آل ضبة للمُعِمِّ المخـــولُ
فرعان قـــد بلغ السماء ذُراهما وإليهما مِن كل خوف يُعقَلُ[5]

نقض عليه جرير ذلك فقال : —

كان الفرزدقُ إذ يَعوذُ بخـاله مثلَ الذليلِ يعود تحت القرمَلِ
وافخر بِضَـبةَ إن أمك مِنهمُ ليسَ ابنُ ضَبة بالمعِم المخوِلِ[6]

ويمدح الفرزدق سعدَ بن زيد مناة من تميم فيقول له جرير : —

---

(١) نفسه ص ١٧٢ (٢) ص ١٧٠ .
(٣) النقائض ص ٧٨ (٤) المرجع السابق ص ٢١٤ .
(٥) نفسه ص ٢٢٥ (٦) ص ٧٠٨

أتمدح سعداً بعدَ أسلاب جاركم وجَرِّ فتاةٍ عقرها لم يُحلَّلِ[١]

والجار هو ابن الزبير ، وقاتلهُ ابنُ جُرموز السعدى ، ولكنَّ الفرزدق يذكر لجرير غدر بنى يربوع بسعد حين أدركوا الحوفزانَ ومن معه من بكر ابن وائل فى إغارتهم على بنى رُبيع : —

أتنسَى بنو سَعد جَدودَ التى بها خذلتم بنى سعد على شرِّ مَخْذَلِ
عشيةَ ولَّيتم كأنَّ سُيوفكم ذآنينُ فى أعناقكم لم تُسلَّلِ[٢]

وينزل الفرزدق بسُليم فى حضيض قيس عيلان مكانة وعدداً فيقول : —

فما أنتمُ مِن قيس عيلانَ فى الذُّرَى ولا مِن أثافيِّها العِظامِ الجماجمِ
إذ حُصِّلت قيسٌ فأنتم قليلُها وأبعدُها من صُلب قيس لعالمِ
وأنتُمْ أذلُّ قيسِ عيلانَ حُبوةَ وأعجزُها عند الأمور العوارمِ[٣]

ثم يأتى الأخطل فى رائيته فينفيهم عن قيس كذلك حيث يقول : —

ولا يُلاقون فرَّاصا إلى نَسَبٍ حتى يُلاقِىَ جَدى الفرقَدِ القمرُ
ولا الضِباب إذا اخضرّت عيونهمُ ولا سَواءةَ إلا أنهم بشر[٤]

وأما شاعرا تميم فقد أكثرا الفخر بنسبهما التميمى أحيانا ، وأحيانا يرتفعان به إلى مضر وخندف ، وكثيراً ما اتصلا بقريش المضرية ، يقول الفرزدق : —

أنا ابن تميم والمحامى وراءها إذا أسلمَ الجانى ذِمارَ المحارمِ[٥]

ويقول جرير : —

مضرُ أبى وأبو الملوك فهلْ لكم يا خُزرَ تغلبَ مِن أبٍ كأبينا[٦]

---

(١) نفسه ص ٧٠٨
(٢) ص ٧١٠
(٣) ص ٣٩٣
(٤) نقائض جرير والأخطل ص ١٦٠ .
(٥) نقائض جرير والفرزدق ص ٣٧٩ .
(٦) ديوان جرير ص ٥٧٩ .

— ٣ —

وإذا كان الحسب ما يُعد من مفاخر الآباء أو هو المال أو الدين أو الكرم أو الشرف فى الفعل أو الشرف الثابت فى الآباء[1] ، فقد كان كل ذلك من أهم مقومات النقائض وأكثرها شيوعا فيها ، وأبعثها على الملاحاة والجدل ، وأدعاها إلى البحث عن مفاخر القبائل والرجال أو مثالبهم للمفاخرة والمهاجاة . اجتهد فى ذلك الفحول وغيرهم فرأينا لكل من دارم ، ويربوع ، وقيس ، وتغلب ، وتميم ، واليمن ، مآثر تنشر ، ومثالبَ تذاع ، كما رأينا ذلك للشعراء ، والزعماء ، والنساء ، سواء أكانت حقائقَ مقرَّرة أم أكاذيب مختلقة ، وفى أثناء ذلك رأينا حُرمات تُنتهك ، وأعراضاً تمزق ، وصوراً شنيعة تنشر ، وتهماً تكال جزافا ، وأحقاداً تُنبش ، وعصبيات تحيا وتثور ، ومعارك تقوم ، والدولة ترى ذلك وكأنَّها راضية عنه ، مطمئنة إليه ، حتى عادت النقائض ، فى بعض نصوصها ، نوعاً من الأدب القبيح الذى ينافى الذوق ، والخلق ، والدين ، ومن عجب أن يكون ذلك فى ظل الإسلام ، وأن يبلغ من ذلك مالم يدر بخلد الجاهليين .

ونذكر هنا بعض شواهد هذا العنصر من عناصر النقائض تاركين مالا يصح أن نورده هنا اعتماداً على وروده فى النقائض والدواوين يرجع إليه من شاء الدرس والاستقصاء .

ولا شك أن دارما ، قوم الفرزدق ، ذات مآثر جمة ، ومفاخر مأثورة ، وأن أسرة الفرزدق ترجع إلى حسب ضخم ومكارم عدة ، وإن نشر لها جرير

---

(١) راجع القاموس المحيط مادة حسب .

مثالب شتى وصوراً قبيحة ، وقد ذكر الفرزدق بعض مآثر قومه فى مطلع نقيضته التى يرد بها على جرير إذ يقول :

مِنَّا الذى اختيرَ الرجالَ سماحةً ... وخيراً إذا هبَّ الرياحُ الزعازعُ
ومنَّا الذى أعطى الرسولُ عطيةَ ... أسارى تميم والعيونُ دوامعُ
ومنَّا خطيبٌ لا يُعابُ وحاملٌ ... أغرُّ إذا التفّت عليه المجامع
ومنا الذى أحيى الوئيدَ وغالب ... وعمرو ومنا حاجب والأقارع
ومنا الذى قاد الجيادَ على الوَجى ... لنجران حتى صبّحتها الترائع
أولئكَ آبائى فجئنى بمثلهم ... إذا جمعتنا يا جرير المجامع (١)

الأقرع بن حابس كلم الرسول فى أصحاب الحجرات من تميم فرد سبيهم ، وخطيب الناس هو شبة بن عقال ، والحامل هو عبد الله بن حكيم المجاشعى الذى حمل الحملات يوم المربد ، ومحيى الموءودات هو جد الفرزدق صعصعة بن ناجية ابن عقال ، وغالب أبوه صاحب (صوءر)(٢) ، وعمرو بن عمرو بن عُدُس ، والأقارع الأقرع وفراس ابنا حابس بن عقال ، والأقرع بن حابس هو الذى أغار على أهل نجران .

وقد افتخر كل من البعيث والفرزدق بهذه الحكومة التى كانت فيهم منذ الجاهلية إلى ظهور الإسلام ، كان الأقرع بن حابس أحدَ حُكام تميم فقال البعيث : —

وعمّى الذى اختارت معدّ فحكّموا ... فألقوا بأرسانٍ إلى حَكَمٍ عَدْلِ (٣)

وقال الفرزدق : —

---

(١) نقائض جرير والفرزدق ص٦٩٦ — ٦٩٩ . (٢) ص ٤١٤ .
(٣) النقائض ص ١٣٩ .

إنى وجـدتُ أبى بنى لى بيتَهُ فى دَوحة الرؤساء والحكام[1]

كذلك افتخر الفرزدقُ بقومه تميم فى نقيضة وذكر فيهـا فك آل مجاشع للأسرى ومنادمتهم للملوك : —

ومُكبَّلٍ ترك الحـديدُ بساقِهِ أثراً مِنَ الرسفَانِ فى الأحجالِ
وفَدت عليه شُيوخ آلِ مُجاشعٍ منهمْ بكل مُسـامحٍ مِفضالِ
ففدَوه لا لِثوابِه ولقـد يُرَى بيَمينه نَدَبٌ من الأغـلالِ
ما كان يلبس تاج آل مُحرِّق إلا همُ ومَقـاولُ الأقوالِ
كانتْ منادمة الملوك وتاجُهم لمجاشع ، وسُـلافةُ الجِريال[2]

كذلك ذكر الإجارة بقبر أبيه مع مسألة الموءودات فقال : —

وكان لنا شيخان ذو القبر منهما وشيخ أجارَ الناسَ مِن كل مَقبَرِ
على حـينِ لاتحيا البناتُ وإذ همُ عُكوف على الأنصاب حول المدوَّرِ
أجار بناتِ الوائدين ومَن يُجِرْ على الفقر يعلم أنه غـير مُخفَرِ[3]

وقد مرت أبياتٌ لجرير يفخر فيها بالدين والخلافة ، وهذا الفرزدق يفعل ذلك إذ كانت مضر مؤئل هذين فيقول من نقيضه : —

مِنَّا النبيُّ محمـد يُجلى به عنَّا العَمَى بمصدَّقٍ مأمـورِ
خـيرِ الذين وراءه وأمامَه بالمكرَمات مُبَشِّر ونذيرِ
إن النُّبُوَّةَ والخِلافة والهُدى فينا وأولُ مَن دعا بِطَهورِ[4]

بجانب ذلك نشر جرير للفرزدق وأسرته ورهطه مثالب شتّى بعضها كذب واختلاق ، منها مسألة القيون السابقة ، ومنها فسق الفرزدق وزِناه إذ يقول جرير من نقيضة : —

(١) نفس المرجع ص ٢٦٥ . (٢) ص ٧٧٢ . (٣) ص ٣٨٠ و ٩٤٩ .
(٤) ص ٣٩٣ .

لقد ولدتْ أم الفرزدق فاجرا وجاءت بِوَزوازٍ قصير القوائم
وما كان جارٌ للفرزدقِ مسلمُ ليأمنَ قِردا ليله غيرُ نائم
يوصِّل حَبْليه إذا جَنَّ ليله ليرقَى إلى جاراتِه بالسلالِم[١]

ولذلك نفاه عمر بن عبد العزيز من المدينة : —

هو الرجسُ يأهلَ المدينةِ فاحذَروا مَداخِلَ رجسٍ بالخبيثاتِ عالِم
لقد كان إخراج الفرزدق عنكمُ طَهوراً لما بينَ المصَلّى وواقم[٢]

كذلك شنَّع جرير (بِجِمْثِنَ) أختِ الفرزدق ورماها بسوء هى منه براء ونسب هذا إلى فتيانٍ من مُقاعِس إذ استخرجوها من خِبائها ثم سحبوها ليُسَمِّعوا بها[٣] فعيّره جريرٌ بهذه القصة وبالغ فيها ، وصوَّرها أقبحَ تصوير ، ومع هذه قصةٍ أخرى وقعت فى مجاشع هى غدرُهم بالزبير بن العوام مُنصرَفه من وقعة (الجمل) إذا قتله عَمرو بن جُرموز ابنِ الذَيَّال وأخذ سلَبه[٤] فقال للفرزدق فى هذين الأمرين : —

قُتِلَ الزُّبَيرُ وأنت عاقدُ حُبوَةٍ تَبًّا لحُبوتك التى لم تُحلَلِ
واقاك غدرُك بالزُبير على مِنًى ومَجرَّ جعثِنِكم بذات الحرمَلِ[٥]

ثم حادثه السيف وضربة الرومى فقد حَجّ سليمان بن عبد الملك وقدمت إليه أسرى الروم فجعل يدفعهم إلى وجوه الناس لقتلهم ، وقدِّم لجرير رجل فضربه فأبان رأسه ، ودفع إلى الفرزدق أسير فضربَه فلم يصنع شيئا فضحك الناس وغضب الفرزدق وأخذ يعتذر عن ذلك بالشعر وقال جرير فى ذلك : —

أكلَّفتَ قيساً أنْ نبا سيفُ غالبٍ وشاعت لهُ أحدوثة فى المواسم

---

(١) نفسه ص ٣٩٥ . (٢) نفسه ص ٣٩٦ . (٣) النقائض ص ٢٢٢ .
(٤) نفسه ص ٨٠ (٥) نفسه ص ٨٠ و ٢٢٢

بسيفِ أبى رَغوانَ سيفِ مُجاشع ... ضربتَ ولم تضرِب بسيفِ ابن ظالم
ضربتَ به عندَ الإمام فأُرعِشت ... يداكَ وقالوا : مُحدَثٌ غيرُ صارِم
ضربتَ به عُرقوبَ ناب بصوْءَرٍ ... ولا تضربون البَيضَ تحت الغمائم
عنيفٌ بِهزِّ السيفِ قينٌ مُجاشع ... رفيقٌ بأخراتِ الفؤوسِ الكرازم (١)

وقال الفرزدق فى ذلك : —

فَلا نقتل الأسرى ولكنْ نفكّهم ... إذا أثقلَ الأعناقَ حملُ المغارِم
فهل ضربةُ الرومىّ جاعلةٌ لكم ... أباً عَن كُليبٍ أو أبا مثلَ دارِم
كذاكَ سُيوفُ الهندِ تنبو ظُباتُها ... ويَقطعْنَ أحيانًا مَناط التمائم (٢)

فقد سخر جَرير بخيبةِ الفرزدق وردّها إلى خيبة رهطه ، وقرنَها بحادث صَوْءَر ومَسألة القيون ، وأما الفرزدقُ فقد اعترف بالحادث وأخذ يعتذر عنه أولا بأنهم اعتادوا فك الأسرى دون قتلهم ، ثم هوّن مِن شأنها فلن تُشرِّف جريراً أو ترفعَ من قدره ، وضرب مثلا بالخيبة تلم بالظافرين .

وهناك أمور أخرى تتصل بدارم نتركها إلى حين نعرض نقائض جرير والفرزدق .

أما عن يربوع فقد أذاع جرير مفاخرها وهى كثيرة فيظهر أنها على فقرها كانت معروفة بالشجاعة والإقدام والبلاء فى الحروب حتى كان الفرزدق يفتخر بأيام يربوع على قيس عيلان كما بينا ، وذلك غير الردافة (٣) فكانت فى بنى يربوع من رياح ، منهم أرداف الملوك وقد احتفظوا بها دون بنى دارم وفى ذلك يقول جرير : —

مَن مِثلُ فارسِ ذى الخِمار وقَعْنبٍ ... والحَنْتَفَين لِلَيلَةِ البلبَالِ

(١) نفسه ص ٤١٣ (٢) نفسه ص ٣٨٣ (٣) نفسه ص ٢٩٨

والردفِ إذ ملكَ الملوكَ ومَن له عِظمُ الدسائع كل يوم فِضالِ[1]

كذلك الإجازة ، قال جرير يخاطب الراعى ، وقد حلّق بهذا المعنى إلى أفق أعلى : —

عَلوتُ عليك ذروةَ خِندفيٍّ ترى مِن دونِها رُتَباً صِعابا
له حوض النبى وساقياه ومَن ورث النبوة والكتابا
ومِنا مَن يجيز حجيجَ جَمْعٍ وإن خاطبْتَ عَزَّكم خِطابا[2]

كانت الإجازة فى الجاهلية لِصفوان بن شُجْنة بن سعد بن زيد مَناة من تميم . ويريد بالبيت الأخير ما كان يجيز كَرِب بن صفوان الناسَ من عرفات إلى المزدلفة ، وهى جَمْع ، وأبو سَيَّارة عُمَيلة بن الأعْزل يجيز من مزلفة إلى منى ، وكانت صوفة ، وهم بنو الغوث بنِ مُرّ ، يجيزون من مِنى إلى الأبطح ، وبكر بن وائل من الأبطح إلى الكعبة .

كذلك ذكر جرير رجال يربوع خاصة أمام الفرزدق والأخطل فقال : —

كذبَ الأخَيطلُ إن قومى فيهمُ تاجُ الملوك ورايةُ النُعمانِ
منهم عُتيبةُ والمُحِلُّ وقعنبٌ والحنتفانِ ومنهم الرِدفانِ[3]

يريد عُتيبةَ بن الحارث بن شِهاب ، والمُحلّ بن قدامة من ثعلبة بن يربوع وقعنبَ ابن الحارث بن رِياح اليربوعى ، والحَنْتَفان حَنتفُ بن السِجف وأخاه وهما ثعلبيان ، والرِدفان عتابُ بن هَرْميّ بن رياح وابنه عوف بن عتّاب ، وأما حماسة تميم وشجاعتها وعزتها فقد بلغ جرير فى ذلك مدى بعيداً : —

وقد عَلِمَ الأقوامُ أن سُيوفنا عَجمْنَ حَديدَ البَيْض حتى تَصدَّعا

---

(١) النقائض ص ٦٦ ، ٨٩٨ (٢) نفسه ص ٤٥٠ (٣) نفسه ص ٨٩٧

ألا رُبَّ جبَّار عليه مَهابةٌ سقيناه كأس الموت حتى تضلّعا
نقودُ جِياداً لم تَقُدها مُجاشِع تكونُ مِنَ الأعداء مرأى ومسمَعا
أخيلُك أم خيلي ببلقاءَ أحرزت دعائمَ عرشِ الحيّ أن يتضعضعا
ولو شهِدتْ يوم الوقيطين خيلُنا لما فاظت الأسرى القِطاطَ ولعلعا[1]

ولم يفت الفرزدق والأخطل أن ينشرا ليربوع صحفاً سيئة ، ومثالب شتى : —

وإذا عددتَ بنى كُليب لم تجد حسَباً لهم يُوفى بِسِبْعِ قِبالِ
لا يمنَعون لهم حَرامَ حليلةٍ بمهابة منهم ولا بِقتالِ
أجريرُ إن أباكَ لو أتعبتَهُ قصُرت يداه ومدّ شرّ حِبالِ
إن الحجارة لو تكلم خبّرت عنكم بألأم دِقّةٍ وسِفالِ
لو تعلمون غداة يُطردُ سيبُكم بالسفحِ بينَ مُلَيحةٍ وطِحالِ[2]

ذلك قول الفرزدق ، وقال الأخطل : —

أما كُليبُ بنُ يربوع فليسَ لهمْ عندَ المكارم إيرادٌ ولا صدَرُ
مُخَلّفُون ويقضى الناسُ أمرهمُ وهم بغيب وفى عمياء ما شَعروا
مُلطَّمونَ بأعقار الحياض فما ينفكّ مِن دارِميّ فيهمُ أثَرُ
قومٌ تناهتْ إليهم كلُّ مُخزيةٍ وكلُّ فاحشةٍ سُبّت بها مُضَرُ
الآكلون خبيثَ الزاد وحدهُم والسائلون بظهر الغيب ما الخبر[3]

ثم رمى الفرزدقُ جريراً بأمه[4] وبإنيان الأتُن[5] واتهم أمه بالزنا[6]

---

(١) النقائض ص ٤٣٨
(٢) نفسه ص ٢٨٤
(٣) نقائض جرير والأخطل ص ١٦٢
(٤) النقائض ص ٢١٠
(٥) نفسه ص ١٠٤
(٦) نفسه ص ٢٠٥

مما لا نذكره هنا ، ويعود إلى جرير فيتهمه بخيانة قومه ، والحطب فى حبل قيس ، طمعا فى الرشوة : —

تُعيِّرنا أيامَ قيسٍ ولم ندع ... لِعيلانَ أنفاً مُستقيمَ الخياشِمِ
فما أنتَ مِن قيسٍ فتنبِحَ دونها ... ولا مِن تميم فى الرءوس الأعاظم
وإنك إذ تهجـــو تميما وترتشى ... تبا بينَ قيس أو سُحوقَ العمائم
كمهريقِ ماءٍ بالفَلاةِ وغـرّهُ ... سَرابٌ أثارته رياح السمائم (١)

وقال البعيث لجرير من نقيضة :

ألستَ كليبياً إذا سِيمَ خُطةً ... أقرَّ كإقرار الحليـلةِ للبَعَلِ
وكل كُلَيبيٍّ صـــحيفةُ وجهِهِ ... أذلُّ لأقدامِ الرجال من النعل
وكل كليبيٍّ يســـوقُ أتانَه ... له حاجة من حيث تُثفَر بالحبل (٢)

ويرى بعض بنى كليب أن هذه الأبيات أشد ما هجوا به .

ونقف عند الأخطل وقومه فقد استطاع جرير أن يهاجمهم من عدة نواح فى بعضها إحراج للأخطل كالدين ، والجزية ، والسكر ، والقذارة ، والبعد عن قبيلة الخلافة والسلطان ، كما وقف الأخطل يهاجمه هو وقيسَ عيلان ويُشيد بأحساب بنى تغلب قومه ، قال جرير :

قبح الإله وجوهَ تغلبَ كُلّما ... شبحَ الحجيجُ وكبروا إهلالا
عبدوا الصليب وكذّبوا بمحمد ... وبجـــبرئيل وكذبوا ميكالا
والتغلبى إذا تنحنـــح للقِرَى ... حكّ استه وتمثـل الأمثـالا
أنسيتَ يومَك بالجزيرة بعد ما ... كانت عوقبُه عليـــك وَبالا
حملتْ عليكَ حُماةُ قيس خيلَها ... شُعثاً عوابسَ تحمـل الأبطالا

---

(١) نفسه ص ٧٣٧و٥١٢ (٢) ص ١٥٧

ما زلتَ تحسبُ كل شيء بعدهمْ خيلا تشد عليكمُ ورجالا[1]

والطريف فى هذه النقيضة أن يعترف جرير بمساوىء مجاشع رهط الفرزدق بأسلوب طريف أيضاً ثم يعود إلى تغلب مجهزاً عليها فيقول :

أوَجدْتَ فينا غيرَ غدر مُجاشع ومَجـــرّ جِعْثِنَ والزبيرِ مقالا
إن القـوافىَ قدْ أُمِرَّ مَريرُها لِبنى فَدَوْكَس إذ جدَعْنَ عِقالا
لولا الجِزَى قُسِمَ السوادُ وتغلِبٌ فى المســـلمينَ فكنتمُ أنفالا[2]

فيقول له الأخطل يهجوه و يفضل عليه دارماً رهط الفرزدق :

ولقد جشمتَ جريرُ أمراً عاجزاً ووهبتَ ســـوءةَ أمِّك الجهّالا
فانعَقْ بضـأنكَ يا جريرُ فإنما منّتكَ نفسك فى الخلاء ضـلالا
منّتك نفسك أن تكونَ كدارمٍ أو أنْ تُوازِنَ حاجِباً وعِقـالا[3]

ثم يلتفت الأخطل إلى قومه فيُشيد بحماستهم على نَهج عمرو بن كلثوم ، و يقول من نقيضة :

فضَـلنا الناسَ أن الجارَ فينا يُجير ، وأىُّ جار يُستجارُ
وأنا نُطعمُ الأضياف قِدماً إذا العـذراءُ أخرجها القُتارُ
وأنا الضـــاربون إذا لقينا كِباشَ القوم قد علمت نِزارُ
نُدَافِعُ فى الكريهة عن بنينا ونعلمُ أن جُبنَ القوم عار
بِضربٍ لا كِفاء له وطعنٍ كأفـــواهِ المزادِ له شِرار[4]

وتجد فى رائيتى جرير والأخطل صورتين متقابلتين لموقفى الشـاعرين وما يمثلان من قبائل أو يهاجمانها .

---

(١) نقائض جرير والأخطل ص٨٧
(٢) نفس المصدر ص٩٧ (٣) نفس المصدر ص ٨١ (٤) نفسه ص ١٢٨

هذه أمثلة قليلة جداً لمسألة الأحساب تركت كثيراً جداً غيرها تمثل معانى أخرى ، خوف الإطالة ورغبة أن يعود القراء إلى النقائض فى مراجعها . ففى ذلك خير كثير ، و إدراك تام لعناصر المناقضة ، والاطلاع على ما لا يحسن ذكره هنا .

— ٤ —

وهناك غير ما سبق حوادث أخرى جزئية دخلت فى بناء النقائض المعنوى وكانت متأثرة بتيارات سياسية ، أو عصبيات قبلية ، أو دوافع شخصية ، أو غيرة خلقية . من ذلك أنه لما تهاجى جرير والفرزدق فقام جرير بالمربد وقام الفرزدق فى المقبرة أرسل الحارث بن عبد الله المخزومى أخو عمر بن أبى ربيعة — وهو القُباع[1] — وكان والى البصرة لابن الزبير ، وكان متنسكا يُروى عنه الفقه ، الى الدارين اللتين كانا ينزلانها فشتّت منهما لينتهيا ، فقال الفرزدق فى ذلك من نقيضة :

أحارثُ داري مرتين هدمتَها ... وكنتَ ابنَ أختٍ لا تُخاف غوائلُهْ
وأنت امرؤ بطحاء مكة لم يزل ... بها منكم معطى الجزيل وفاعِلُه
فقلنا له لا تُشمتَنّ عدونا ... ولا تنسَ من أصحابنا مَن تواصِلُه
فقبلك ما أعييت كاسر عينه ... زياداً فلم تقدر علىّ جبائلُه[2]

وقال جرير كذلك فى نقيضتها :

أحارثُ خُذ مَن شِئتَ مِنا ومِنهمُ ... ودعنا نَقِسْ مَجداً تُعَدُّ فواضِلُهْ
فما فى كتاب الله تهديمُ دارِنا ... بتهديم ماخور خبيثٍ مَداخِلُهْ
وفى مَخدَعٍ منه النوارُ وشَربه ... وفى مَخدَعٍ أكيارُه ومَراجِلُه[3]

---

(١) نقائض جرير والفرزدق ص٦٠٨ (٢) المصدر السابق ص٦٠٧ (٣) نفس المرجع ص٦٨٣

اتفق الشاعران على لوم الحارث ثم اختلفاً فى نزعة الفرزدق الجاهلية ونزعة جرير الإسلامية ، وفى تحدّى جرير لخصمه الفرزدق بطلبه من الحارث ترك الدور والمقايسة بين الرجال ومجدها ، وفى الموازنة بين بيته الطاهر و بين بيت الفرزدق الخبيث ، ثم فى الإشارة إلى النوّار زوج الفرزدق و الى مسألة القيون وحرقتهم ، فكانت براعة جرير فى أن أحال المسألة مناقضة وسلكها بين عناصرها كما رأيت .

وحادث آخر هو مقتل أعيَن بن ضُبيعة المجاشعى أبى النوّار امرأة الفرزدق[1] وكان على بن أبى طالب وجهه إلى البصرة فقتل بها ، قتله رجل من بنى حُوَىّ ابن عوف بن سفيان بن مجاشع فعير البعيثُ وجرير الفرزدق بذلك . فلما قال الفرزدق للبعيث : —

إذا ما قلتُ قافية شَرودا تنخّلها ابنُ حمراءِ العِجانِ

أجابه البعيث :

تناومتُم لأعينَ إذ دعاكم بنى القَينات للقين اليمانى
تبادَرهُ سُيوف بنى حُوَىٍّ كانّ عليه شُقّةَ أُرجُوانِ

وحادثة مقتل قتيبة بن مسلم الباهلى بخراسان قتله وكيع بن حسان بن قيس بن أبى سُود بن كليب بن يربوع فى حديث طويل متصل بالبيعة لسليمان بن عبدالملك سنة ست وتسعين هجرية[2] فقال الفرزدق فى ذلك : —

نبحتَ لقيسٍ نَبْحة لم تدع لها أنوفاً ومرّت طيرها بالأشائم
ندمتَ على العصيان لما رأيتنا كأنا ذرى الأطواد ذات المخارم
على طاعة لو أن أجبالَ طيّىء عمَدْنَ لها والهضْب هضْبَ التهائم

(١) نفس المرجع ص ١٢٥ (٢) ص ٣٤٩

لينقلنها ، لم يستطعن الذى رسا لها عند عالٍ فوقَ سبعين دائم[1]

ويقول جرير جامعاً بين إبعاد مجاشع عن فخر هذا الحادث اليربوعى و بين الاعتذار لقيس عيلان :

فغيرُك أدّى للخليفة عهده وغيرُك جلّى عن وجوه الأهاتم
فإن وكيعاً حين خارت مُجاشع كفى شَعبَ صَدعِ الفتنة المتفاقِم
لقد كنتَ فيها يا فرزدق تابعاً وريشُ الذُنَابى تابعٌ للقوادِم
ندافعُ عنكم كلَّ يومٍ عَظيمةٍ وأنت قَراحِىٌّ بسيف الكواظم
أجُبناً وفَخراً يا بَنى زَبَدٍ استها ونحنُ نَشُبُّ الحربَ شِيبَ المقادِم
أباهِلَ ما أحببتُ قتل ابن مُسلم ولا أن تروعُوا قَومَكم بالمظالِم
أباهلَ قد أوفيتُكم من دمائكم إذا ما قتلتُم رهط قيسِ بنِ عاصمِ[2]

وأمر آخر هو ما دار بين جرير والفرزدق حول أزواج الثانى وجارية الأول وهو كثير[3] نكتفى منه بقصة الفرزدق لما برم بالنوار زوجه تزوج عليها حدراء بنت زِيق بن بسطام بن قيس بن مسعود الشيبانى فعابتها النور فأخذ الفرزدق ينظم الشعر فى مدح حَدْراء فأغضب ذلك النوار وقالت للفرزدق : والله لأخزينّك يا فاسق ! و بعثت الى جرير فجاءها ، فقالت : ألا ترى ما قال لى الفاسق ! وشكت اليه فقال جرير :

فلا أنا مُعطِى الحُكم عن شِفِّ مَنصِبٍ ولا عن بَنات الحنْظَليِّين راغِبُ
وهُنَّ كماء المُزْن يُشفَى به الصدَى وكانت مِلاحاً غيرهن المشارِبُ
لقد كنتَ أهلا أن تسوق دِياتِكم إلى آل زِيقٍ أن يعيبَك عائب
وما عدلتْ ذاتُ الصليب ظعينةً عُتيبةُ والرِدفان منها وحاجبُ

---

(١) نفسه ص ٣٧٣ (٢) النقائض ص ٣٩٩ (٣) الاغانى ج ١ ص ٣٢٤

ألا رُبما لم نُعط زِيقاً بِحكمهِ وأدَّى الينا الحكم والغُلُّ لازب
حوَينا أبا زيقٍ وزيقا وعمَّه وجدّةَ زيق قد حوتها المقانب[1]

وكان أجداد حَدراء نصارى ، فأجابه الفرزدق بقصيدة منها :

ألَستَ اذا القعساء أنسلَ ظهرها الى آلِ بِسطام بن قيس بخاطبِ
فَنَلْ مِثْلَها مِن مِثْلِهم ثم لُمهُمُ بِملكك من مالٍ مُراحٍ وعازبِ
فلو كنتَ من أكفاء حدراء لم تَلُم على دارمى بين ليلى وغالبِ
وإنّى لأخشى إن خطبتَ إليهمُ عليكَ التى لاقى يسارُ الكواعبِ
ولو قبلوا مِنّى عطيةَ سُقْتُهُ إلى آل زِيق من وَصيف مُقاربِ
همُ زَوَّجوا قَبلى ضِرارا وأنكحوا لَقيطاً وهم أكفاؤنا فى المناسبِ
ولو تُنكحُ الشمس النجومَ بناتِها إذاً لنكحناهنّ قبل الكواكب[2]

وهكذا تجد النقائض غاصة بحوادث منها ما لا يحسن إيراده فى هذه الفصول .

— ٥ —

وكان لفن الشعر وقيمته الأدبية نصيب فى بناء النقائض وملاحاتها ، وقد روينا قبل ذلك ، وسيأتى فى الفصل التالى ، هذه الملاحاة بين مكانة اليمن وعدنان فى الشعر ، وكانت بين ابن ميادة وعقال بن هاشم ، وهنا نجد الفرزدق فى نقيضته (الفَيْصَل) كما دعاها يذكر أخذه الشعر عن الفحول السابقين حتى انتهى إلى الأخطل فيقول : —

---

(١) نفس المرجع ص ٣٣٣ والنقائض ص ٨٠٧
(٢) النقائض ص ٨١٢ .

إنّ التى فُقِئَتْ بها أبصارُكم ... وهى التى دَمَغَتْ أباك ، الفَيْصَلُ
وهبَ القصائدَ للنوابغ إذ مَضَوا ... وأبو يزيدَ وذو القُروح وجَرولُ
والفحلُ علقمةُ الذى كانت لهُ ... حُلَلُ الملوكِ ، كلامُهُ لا يُنحَلُ
وأخو بَنى قَيسٍ وهنَّ قتلنَهُ ... ومُهلهِلُ الشعراء ذاك الأوَّلُ
والأعشيان كلاهما ومُرَقِّشٌ ... وأخو قُضَاعـــةَ قولهُ يُتمثَّلُ
وأخُو بنى أسدٍ عَبيـد إذ مضى ... وأبو داؤد ، قـــولهُ يَتَنَحَّلُ

الأبيات[1] ثم يأخذ عليه الآفاق بسيرورة شعره من عُمانَ إلى مِصرَ ويدله على أبيات ذات ألقاب خاصة مُتَحدِّياً فيقول : —

تَعَنَّى يا جريرُ لِغيرِ شيءٍ ... وقد ذهبَ القصائدُ للرُواةِ
فكيف تَرُدُّ ما بِعُمانَ منها ... وما بجبالِ مِصرَ مُشهَّرَاتِ
غَلبتُكَ بالمُقفِّىء والمعَنِّى ... وبَيتِ المحتَبى والخافِقَاتِ[2]

وتدل إحدى الروايات على أن الفرزدق كان فى هجائه واقعياً محققاً ، فإنه لما أراد هجاء بنى جعفر بن كلاب القيسيين وذا الأهدام الضبائى صار إلى عمرو ابن لَجإ فعرف منه مثالب الجعفريين وسجلها فى نقيضته التى يقول فيها : —

ونُبِّئتُ ذا الأهدام يَعوى ودونه ... من الشام زَرّاعاتُها وقصورها
إلىَّ ؟ ولم أترك على الأرض حيَّة ... ولا نابحاً إلا استَسَرَّ عَقُورها[3]

ورمى جريراً بسرقة شعره فقال له : —

انَّ استراقَكَ ياجريرُ قصائدى ... مثلُ ادعاءِ سِوَى أبيكَ تَنَقُّلُ[4]

فيرد عليه جرير فيقول : —

---

(١) النقائض ص ٢٠٠ . . (٢) نفس المرجع ص ٤٧٤ .
[٣] ص ٧ ، ٩ . (٤) نفسه ص ٢٠٢

حَسبُ الفرزدقِ أن تُسَبَّ مُجاشِعٌ ... ويَعُدَّ شعرَ مُرَقِّشٍ ومهلهل[١]

ويقول له فى نقيضة أخرى : —

ستعلمُ مَن يصيرُ أبوه قَيناً ... ومَن عُرِفَتْ قصائدُه اجتلابا[٢]

على أن جريراً كان يلقب قصائده بألقاب اعتزازا بها فسمى نقيضته : —

لولا الحياءُ لها جنى استعبارُ ... ولزُرتُ قبرَكِ والحبيبُ يُزارُ

الجوساء لذهابها فى البلاد[٣] وسمى بائيته : —

أقلِّى اللومَ عاذلَ والعتابا ... وقولى ، إن أصبتُ ، لقد أصابا

الدمَّاغة ، والدَهقانة ، والمنصورة[٤] ، ثم يعتز بسيرورة شعره وذهابه فى البلاد حقاً حتى اتهمت الجن بإذاعتها[٥] ويقول جرير فى ذلك وهو يناقض البعيث : —

وعاعوَى مِن غير شىء رَمَيْتُهُ ... بقارِعةٍ أنفاذُها تقطُرُ الدما

وإنى لقوّالٌ لكلِّ غريبَةٍ ... ورُود إذا السارى بِلَيل تَرَنّما

خَرُوجٍ بأفواهِ الرَواةِ كأنّها ... قَرَى هُدُوانِىّ إذا هُزَّ صَمَّمَا

فإنى لَهاجيهِمْ بِكلِّ غَريبَة ... شَرود إذا السارى بِليل تَرَنَّمَا

غرائب ألآقا إذا حان وِردُها ... أخذن طريقاً للقصائد مَعْلَماً[٦]

وهذه الأبيات سمعها الراعى يتغنى بها رجل فقال : ما لجرير لعنه الله ! علام يلومنى الناس أن غَلبنِى هذه ؟ ! وقد ذكرنا كيف اعترف الفرزدق

---

(١) نفسه ص ٢١٨ (٢) نفسه ص ٤٣٤

(٣) نفسه ص ٨٤٧ (٤) نفسه ص ٤٣٠

(٥) الاغانى جـ ٨ ص ٣١ دار الكتب وراجع النقائض ص ٦٨٨

(٦) النقائض ص ٦٢

لجرير برقة شعره[١] ومكانته[٢] وكذلك عرف جرير أن الفرزدق ألحل خصومه[٣] : وقد ظهرت مكانة الفرزدق لمـّا تحداه ابن أبى بكر بن حزم بشعر حسان وهو بالمدينة فأسكته بفائيته المشهورة الواردة أول الجزء الثانى من النقائض : —

عَرفتَ بأعشاش وما كِدْتَ تعرِف وأنكرت مِن حدارء ما كنتَ تعرف[٤]

وقد نقضها عليه جرير . وعرفت ، حين ذكرنا شعراء النقائض أن الجانب الفنى جعل جريراً يلتحم مع كثرة من الشعراء منهم الأخطل . وليس من شك أن هؤلاء الشعراء جميعاً كانوا يتأثرون فى فنهم كلٌّ بغيره كما يظهر ذلك لمن استقصى دراسة النقائض وقد يمر بك بيان ذلك .

— ٦ —

وكانت المعانى والموضوعات السياسية من أصول النقائض وعمدها ، وقد بينا من قبل مواقف الشعراء السياسية[٥] فلا نعيد ذلك هنا وإنما نشير إلى أن معانى السياسة وجدت فى هذا الفن متأثرة بمواقف الشعراء وقد رأيت فى الأمثلة السابقة كيف تناول جرير والفرزدق مسألة البيعة لسليمان بن عبد الملك إثر مصرع قتيبة فإذا رجعنا إلى كتاب نقائض جرير والأخطل وجدنا فيه كثرة من هذه المعانى منها ما قاله زفر بن الحارث الكلابى القيسى وهو يناقض عمرو بن المخلاة الكلبى حول وقعة (مَرْج راهط) : —

---

(١) نفسه ١٠٤٧ (٢) نفسه ١٠٤٧
(٣) نفسه ١٠٤٨ (٤) نفسه ص ٥٤٨
(٥) تاريخ الشعر السياسى للمؤلف ب ٣ ف ٦

فإن نكُ نازعنا قُريشاً فإنهم أخونا ومولانا الذين ننازعُ
فأى قبيلينا وأمُّك ما يكن له الملك، تتبَعْه وخذُك ضارع[1]

وما قاله جوّاس الكلبي فى مناقضته مَعبداً الكُلاعى يعتب على الأمويين أن لم يعرفوا لبنى كلب بلاءهم فى نصرتهم على قيس يوم المرج : ـ

ضَرَبنا لكم عن مِنْبَر الملك أهلَه بجَيرون اذ لا تستطيعون مِنبرا
وأيامَ صِدق كلّها قد علمتم نصرُنا ويوم المرج نصرا مؤزّرا
فلاتكفُروا حسْنَى مَضتْ من بلائنا ولا تمنحونا بعد لين تجَبُّرا[2]

ومنها ما احتج به الأخطل للأمويين وحقهم فى الملك حتى عد شاعر القصر الملكى الأموى ، وسمى شاعر أمير المؤمنين ، وهو القائل :

بَنِي أميـــةَ نُعما كُم مُجللةٌ تَمَّتْ فلا مِنّةٌ فيها ولا كدَرُ
أعطاكُم الله جداً يُنصرون به لا جَدَّ إلا صغيرٌ بعدُ مُحتقَرُ
لم يأشِروا فيه إذ كانوا مواليه ولو يكونُ لِقومٍ غيرهم أشروا
بَنى أميَّـةَ إنى ناصحٌ لكمُ فلا يبيتَنَّ فيكم آمناً زُفَرُ
وأتخذوه عدواً إنّ شاهِدَه وما تَغَيَّبَ من أخلاقِهِ دَعَرُ
بنى أمية قد ناضلتُ دونكمُ أبناء قوم هُمُ آوَوا وهم نَصروا
أخمتْ عنكم بنى النجار قد علمت عُليا مَعَدٍّ وكانوا طالما هدَروا[3]

من نقيضة له مع جرير ذكرفيها ملكهم العتيد وحسن سياستهم ، وحذرهم قيس عيلان وزعيمها زُفر بن الحارث ، وامتن عليهم بما أعانهم على الأنصار حين هجاهم لما حمله يزيد بن معاوية على ذلك بسبب تشبيب عبد الرحمن بن حسان بن ثابت برملة أخته فى حديث طويل[4] .

---

(١) نقائض جرير والأخطل ص١٩ (٢) نفسه ص ٢٠
(٣) و (٣) نقائض جرير والاخطل ص ١٥٦ (٤) الأغانى ج ١٤ ص ١١٩

نكتفى بهذا القدر ، ونريد فى ختام هـذا الفصل أن نشير إلى مسألة جديرة ببحث خاص هى تبين شخصيات القبائل ، والشعراء،والزعماء من خلال النقائض وواضح أن دارماً قبيلة ذات مآثر ، ورجال معروفين ، وثراء عريض وأن يربوعاً قبيلة الشجاعة والنجدة وإن كانت فقـيرة ، وأن قيساً وتميما متكافئتان فى المكانة العامة والأيام فكانتا ركنى مضر ، ولتغلب ماضيها الجاهلى الحماسى وإن ذلّت فى الإسلام وبقيت على نصرانيتها .

وهذه السمات القبلية وضحت فى شخصيات الشعراء والزعماء مما لا نفصله هنا ونرجىء بعضه إلى فصل (فنّ النقائض)

ونرجوا أن نبدأ عرض شىء من نصوص النقائض العامة ثم نتبع ذلك بوصف النقائض الخاصة .

obeikandl.com

الفصل الخامس

فى النقائض العامة

— ١ —

كان من الطبعى ، بعد أن شرحنا عصر النقائض الأموية ، ونشأتها وفنونها ، وألممنا بشعرائها وعناصرها ، أن نعرض للنقائض نفسها فنورد بعض نصوصها ، ناظرين فيما يلابسها من نواح فنية ، أو تاريخية ، أو موضوعية ، متبينين منها بعض المظاهر التى تكوّن طابعها العام . وإذا كنا قد لاحظنا فى غير موضع من هذه الفصول أن النقائض نوعان : نوع عام متناثر جرى على ألسنة بعض الشعراء دون أن يفرغوا له أو يكثروا منه ، ونوع خاص استفرغ جهود الفحول ومن اتصل بهم أولَ أمره كالبعيث ، فإنا نكسر هذا الفصل على عرض شواهد النوع الأول تاركين مَن انتحموا بجرير ممن ذكرناهم فى الفصل الثالث من هذا الباب ، وسنجعل الأمثلة تجىء موضحة نفسها دون حاجة إلى تمهيد عام .

٢ — من ذلك ما حدث بين هُدبَةِ بن خَشرم العُذرى وبين زيادة بن زيد ابن مالك من بنى رقاش ، وذلك أن كانت بينهما ضغائن بسبب رهان ثم اصطحبا مقبلين إلى المدينة من الشام فى ركب من قومهما فكانا يتعاقبان السوق بالإبل وكان مع هدبةَ أختُه فاطمة فنزل زيادة فارتجز : —

عُوجى علينا واربَعى يا فاطِمَا ما بين أن يُرَى البعيرُ قائمـا
ألا تَرين الدمعَ مِنّى ساجِمَا حِذار دارٍ منكِ لن تلائما

فعرّجتْ مُطرداً عراهِما فَعْماً يبُذُّ القُلّصَ الرواسِما
كأنّ فى المثناةِ منه عائما إنك والله لأن تُباغِما
خَوْداً كأن البوصَ والماَ كما منها نَقاً مخالط صرائما
خيرٌ مِن استقبالكَ السمائما ومِن مُنادٍ تبتغى مُعاكما

فغضب هُدبة حين سمع زيادة يرتجز بأخته فنزل فرجز بأخت زيادة وكانت تدعى أم خازم أو أم قاسم : —

لقد أرانى والغلامَ الحازما نُزْجى المطىَّ ضُمَّراً سَواهِما
مَتى تقولُ القُلّصَ الرواسما والجِلّةَ الناجيـــة العياهما
يبلغن أمَّ خازم وخازما إذا هبَطْنَ مُستحيراً قاتما
ورفَّع الحادى لهـــا الهمَاهما ألا ترينَ الحزن منى دائما
حِذار دارٍ مِنك لن تلائما واللهِ لا يَشفى الفؤادَ الهائما
تَمْساحُكَ اللبّاتِ والماَ كما ولا اللمامُ دون أن تلازما
ولا اللزامُ دون أن تفاقما ولا الفِقامُ دون أن تُباغِما

هذه المراجزة ، وهى من المناقضة ، متوافرة العناصر ففيها وحدة الموضوع والقافية ، وكانت المناقضة فيها تقوم على الموضوع أولا من حيث أنه نسيب بالمحارم ، ثم كان الثانى أشد جرأة ومبالغة فى المعانى حتى شتمه زيادة وشتمه هدبة وتسابا طويلا ، وأسكتهما القوم على ما فى نفسيهما ، وهُدبه أشدهما حنقا لأن زيادة رجز بأخته وهى تسمع منه بخلاف أخت زيادة فكانت غائبة ، ولما أتما حجهما وعادا إلى عشائرهما أخذا يتناقضان ، فقال زياد قصيدته : —

أراكَ خليلا قد عزمتَ التجنُّبَا وقطعت حاجاتِ الفؤاد فأصحبا

وأجابه هُدبة :—

تذكر شجوا مِن أُمَيمةَ مُنصِباً تَلِيدا ومُنتاباً من الشوقِ مُجلِبَا[1]

ولم يزل هُدبة يطلب غرة من زيادة حتى أصابها فقتله .

٢ — وقد ذكرنا فى (التمهيد) ما كان بين ابن الدُمينة عبيد الله الخثعمى الكهلانى وبين امرأة من قومه تدعى (أُمَيمة) فهامَ بها مدة ، فلما وصلته تجنى عليها ، وجعل ينقطع عنها ، ثم زارها ذات يوم فتعاتبا طويلا ، ثم أقبلت عليه ، فقالت له : —

وأنتَ الذى أخلفتَنى ما وعدتَنى وأشمتّ بى مَن كان فيكَ يلومُ
وأبرزتَنى للناس ثم تركتَنى لهم غرَضاً أُرمى وأنتَ سَلِيمُ
فلو أن قولا يكلِمُ الجِسم قد بدا بجسمى من قول الوُشاةِ كلوم

فأجابها ابن الدُمينة فقال : —

وأنتِ التى قطعتِ قلبى حرارةً ومزّقتِ قرحَ القلبِ فهو كَلِيمُ
وأنت التى كلّفتِنى دَلجَ السُرَى وجُونُ القطا وجَلهتَينِ جُثومُ
أنتِ التى أحفظتِ قومى فكلهم بَعيدُ الرضا دامى الصدور كظومُ[2]

قامت هذه المناقضة الغزلية على طريقة الموازنة أو المقابلة ، فقد رمته بخلف الوعد وتعريضها لشماتة العُذال ، وجعلها هَدَفاً للألسنة حتى ليكاد كلام الوشاة يدمى جسمها من شدة وقعه . ويجىء وهو يضع بإزاء معانيها ما يقابلها فهى التى مزّقت قلبه بحرارة الوجد مع الهجران ، وهى التى كلفته السرى والمشاق فى سبيلها ، حتى غضب عليه قومه وأضمروا له البغض والكراهية .

---

(١) الاغانى جـ ٢١ ص ٢٦٤ . (٢) الأغانى جـ ٥ ص ١٥١ بولاق .

٣ — كذلك أشرنا إلى ما كان بين قَتادة بن معرب وبين أبى كلدة الجُشمى البكرى ، فقد قال رجل للبعيث : أى رجل هو أبو كلدة ؟ فقال : قتادة بن معرب أعرف به حيث يقول : ـ

إن أبا كَلدةَ مِن سُكرِهِ ... لا يعرف الحقَّ من الباطلِ
يزداد غياً وانهماكاً ولا ... يسمع قولَ الناصح العاذلِ
أعيا أبوه وبنو عَمِّهِ ... وكان فى الذروةِ من وائلِ
فليتَه لم يك مِن يَشكرٍ ... فبئس خِدنُ الرجلِ العاقلِ
أعمى عن الحق بصير بما ... يعرفه كل فتى جاهلِ
يُصبح سكرانَ ويُمسى كما ... أصبح لا أُسقِى من الوابلِ
شدَّ رِكابِ الغَىِّ ثم اغتدى ... إلى التى تُجلبُ من بابلِ
فالسجنُ ، إن عاش ، له منزل ... والسجنُ دارُ العاجز الخاملِ

وقال أبو كَلدة يجيبه : —

قُبِّحت لو كنتَ امرأ صالحا ... تعرفُ ما الحقُّ مِنَ الباطِلِ
كففتَ عَن شَتمى بِلا إحنَةٍ ... ولم تُورِّط كفَّةَ الحابِلِ
لكن أبتْ نفسُك فعلَ النُهى ... والحزمِ والنجدةِ والنائل
فتحتَ لى بالشتم حتى بدا ... مكنونَ غِشٍّ فى الحشا داخِلِ
فاجهد وقُل لا تترُك جاهداً ... شتم امرىء ذى نجدة عاقِل
تعذُلنى فى قهوة مُزَّةٍ ... دِرْياقةٍ نُجْلَبُ مِن بابل
ولو رآها خرَّ مِن حُبِّها ... يسجدُ للشيطان بالباطِلِ
ياشرَّ بكر كلها مَحتِداً ... ونُهزَةَ المختلسِ الآكلِ

عرضَك وفّره ودعنى وما أهواه يا أحمقَ من باقِلِ [1]

تدور المناقضة على أن أبا كلدة يشربُ الخمـــــر ، ولا يستمعُ لناصحيه ، ولا يعرف الحق من الباطل ، حتى اتّضعت منزلته ، وسلك مسلك الجهال ، فورد السجن . وقد نقض أبو كلدة على خصمه بطريقين : الأول : طريق التسليم بأنه يعاقر الخمر و يوجه ذلك بلذتها الآسرة . والثانى طريق الموازنة فقد وصف خصمه بالزيغ والجهالة والحمق ونفى عنه الفضائل ، ثم قلب عليه مارماه به .

٤ — وقد وقع بين أرطاة بن سُهيَّة المرِى من غطفان و بين زُمَّيل قاتل ابن دارة لِحاء فتوعده زُمَّيـل وقال : إنى لأحسبك ستجرع مثل كأس ابن دارة فقال أرطاة : —

يا زُمَّلُ إنى إن أكن لكَ سائقا تركضْ برجليك النَجاةَ وألْحَقِ
لا تحسبَنِّى كامرىء صادفْتَه بمضيَعـةٍ فخدَشْتَه بالمِرْفَقِ
إنى امرؤ أوفى إذا قارعتُكم قَصبَ الرهانِ وما أشأ أتعرقِ

فقال له زُمّيل : —

يا أرطَ إن تَكُ فاعلا ما قُلتَهُ والمرء يستحيي إذا لم يَصـدُقِ
فافعل كما فعـلَ ابنُ دارةَ سالمٌ ثم امْشِ هوناً نحوَك سادراً لا تَتَّقى
و إذا جعلتُك بين لَحَيَىْ شابكِ الـ أنيابِ فارعُد ما بدا لك وابرُقِ [2]

يدعى أرطاة أنه غالبه إذا غالبه ، وأنه ليس فى هوان ابن دارة ، وأنه محقق عزيمته ، فأتى زميل يكذبه فى دعواه ، و يتحداه بإنجاز وعده ، و يتهدده بالويل ساخراً به .

---

(١) الأغانى جـ ١٠ ص ١١٨ بولاق . (٢) نفسه جـ ١١ ص ١٤٣

٥ — وقد كانت ملاحاةٌ بين ابن مَيَّادة المُرِّى الغطفانى و بين حَكَم بن مَعمر الخضرِىّ المحاربى ومناقضات كثيرة وأراجيز شتى منها ما قال حكم فى ابن ميادة : —

فيا مُرُّ قد أخزاكِ فى كل مَوطن ... من اللؤم خلاتٌ يزدْنَ على عَشرِ
فمنهنّ أن العبـــدَ حامى ذِمارِكم ... و بئسَ المحامى العبدُ عن حَوْزَةِ الثغرِ
ومنهن أن لم تمسَحوا وجهَ سابِقٍ ... جوادٍ ، ولم تأتوا حَصاناً على طُهْرِ
ومنهُنّ أن الجارَ يسكنُ وسْطَكم ... بريئاً فيُلقَى بالخيانة والغَدرِ
ومنهن أن الشيخ يُوجـد منكمُ ... يَدبُّ إلى الجارات مجدودِبَ الظهر

فأجابه ابنُ ميادة مجيباً عن هـذه الخِصال التى سبّهم بها وسلك فى نقضه طريقة الموازنة على العموم فذكر لبنى محارب خصال سوء تجاه ما ذكر حكم لبنى مرة بن غطفان ، قال ابن ميادة : —

لقـــد سبقتْ بالمخزياتِ مُحاربٌ ... وفازت بخَلات على قومها عَشْرِ
فمنهـــنّ أن لم تعقروا ذاتَ ذِرْوَةٍ ... لحقٍّ إذا ما احتيج يوماً إلى العَقرِ
ومنهن أن لم تضربوا بسيوفكم ... جماجمَ إلا فيشـــلَ القُرَّح الُحمرِ
ومنهن أن كانت شـيوخ مُحاربٍ ... كما قد علمتم لاتَريش ولا تَبْرِى
ومنهن أن لو كان فى البحر بعضكم ... لخبّث ضاحى جِلدِه حومةَ البحر[1]

وقد مر فى (التمهيد) ما دار بين ابن مَيَّادة وعِقال بن هاشم حول مكانة عدنان (قيس وخندف) فى الشعر و بين اليمن ، وكانت المناقضة على طريقة اعتراف عقال بمكانة عدنان الأدبية ولـكنه فضل الحى اليمـانين بالسبق إلى ذلك وأخذ الناس عنهم .

---

(١) الأغانى ج ٢ ص ٩٧

٦ — كانت مهاجاة بين حارثة بن بدر اليربوعى وأنس بن زُنَيم الليثى فتهاديا الشعر زمناً عند عبيد الله بن زياد ووقع بينهما شر حتى قدم سلم بن زياد عاملا على خراسان وسجستان فعرَض على أنَس صُحبتَه وجعل له أن يستعمله على كُورَة فاستمهله ، وكتب أنس إلى عبيد الله : —

ألم ترَنى خُيِّرتُ والأمرُ واقعٌ ... فما كنتُ لمّا قلت بالمتخيِّر
رِضاكَ على شىء سواه ولم يكنْ ... إذا اختار ذا حزم من الأمر يظفرِ
قعدتُ لترضى عن جهادٍ وصاحبٍ ... شقيقٍ قديمِ الوُدِّ كان مُؤَمَّرى
على أحَدِ الثغرين ثم تركتُه ... وقد كنتُ فى تأميره غيرَ مُمتر
فأمسكتُ عن سَلمٍ عنانِى وصُحبتى ... ليعرفَ وجهَ العُذرِ قبل التعذرِ
فإن كنتَ لما تدر ماهى شِيمتى ... فسَلْ بِىَ أكفانى وسَلْ بىَ مَعشرى
ألست مع الإحسانِ والجود ذا غنى ... وبأس إذا ما كفّروا فى التَستُّرِ
ورأى، وقد أعصَى الهوى خشيةَ الردى ... وأعرفُ غِبَّ الأمر قبل التدبُّرِ
وما كنتُ ذاك ترتَدّ بُغيَتى ... علىَّ ارتدادَ المظلم المتحيِّر

فردّ عليه حارثةُ بنُ بدر بأمر عُبَيْد الله بن زياد : —

أَلِكْنى إلى مَن قال هذا وقُل له ... كذبتَ فما إن أنتَ بالمتخيِّر
وأنك لو صاحبتَ سَلْماً وجدتَه ... كعهدكِ عهد السوء لم يتغيّر
أتنصحَ لى يوماً ولستَ بناصح ... لنفسك فاغشُشْ ما بدا لك أو ذَر
كذبتَ ولكن أنت رَهن بِخَزيةٍ ... ويومٍ كأيام ، عَبوس مذكَّر
كأشقر يُضحى بين رُمحين إن مضى ... على الرُمح يُنحرْ أو تأخر يُعقَّر (١)

(١) الأغانى جـ ٢ ص ٢٢

يمتن أنَس على عبيد الله بأنه آثر رضاه والبقاء معه على منصب يعرضه عليه سلم وفاء لابن زياد ، ثم أتبع ذلك بالفخر بشمائله مِن غنى ، وجود ، وبأس ، وحزم ، وذكاء ، ولولا فضائله لتركه وانصرف . وكان النقضُ أن كذبه حارثة ، وأنه لو صاحب سلماً لما ارتاح إليه ، ودعاه أن ينصح نفسه ولا قيمة لرأيه عند عبيد الله ، وصوّر له حاله بأنه لاقٍ شراً لامحالة أقام أم رحل .

وأعجبت الأبيات عبيد الله وقال : لعمرى ، لقد أجبته على إرادتى ، وأمسكها عبيد الله فى يده فلما دخل عليه أنَس دفعها إليه فنظر فيها ثم قال لعبيد الله : لقد رَدّ على مَن لا أستطيع جوابه وظن أن عبيد الله قالها ، وخرج أنس والصحيفة فى يده فلقيه عبد الرحمن ابن رألان فدفعها إليه أنَس ، فلما قرأها قال : هذا شعر حارثة بن بدر ، أعرفه ، فقال له أنَس : صدقت والله ، ثم قال لحارثة . —

عَجبتُ لِهُوجٍ من زَمانٍ مُضَلَّل ... رأى لألباب الرجال مُغَيَّر

القصيدة[1] .

٧ — كانت بنوعجل قد جاورت بنى يربوع فى سنة أصابت عجلا فكان الأبيردُ الرياحى اليربوعى يعاشر رجلا منهم يقال له سعد ويجالسه ، وكان قصده امرأةَ سعد هذا فمالت إليه فومقته وعُرف أمرها ولام الأبيردَ قومُه فتلكأ فاعترضه سلمان العِجلى فهجاه وهجا بنى رياح فقال : —

لَعمرُك إننى وبنى رياحٍ ... لكالعادى فصادف سَهمَ رامِ

يسوقون ابنَ وجْرَة مُزْبَئرا ... ليَحميَهم وليس لهم بحام

وكم مِن شاعِر لبنى تميم ... قصير الباع من بَقرٍ نِيام

وإن يُذكر طعامُهمُ بشرٍّ ... فإن طعامَهم شرُّ الطعام

---

(١) نفس المرجع

وســـوداءِ المغابِن من رياح على الكِرْدَوْس كالفأس الكَهام

فقال الأبيردُ مجيباً له : —

عوى سَلمانُ من جوٍ فلاقى أخو أهل اليمامة سهمَ رام
بنو عِجلٍ أذلُّ مِن المطايا ومن لحم الجزور على الثمام
تُحَيِّي المسلمون إذا تلاقَوا وعِجلٌ ما تُحَيِّي بالسلام
إذا عِجْلية ولَدت غُلاماً إلى عِجلٍ فقُبِّحَ مِن غلامِ
خَبيثُ الريح يُنشأ بالمخازى لئيم بين أبنـــاء لِئام
أنا ابنُ الأكرمينِ بنى تميم ذَوى الآطال والهمم العِظامِ
وكائنْ مِن رئيس قطَّرته عواملنا ومن ملك هُمامِ
وجيشٍ قد ربعناه وقومٍ صبحناهُمْ بذى لَجبٍ لُهامِ[1]

فبنو رياح ، فى رأى العجـلى ، يعتمدون على حام لهم ضعيف ، وشعراؤهم لئام أخساء ، بخلاء فقراء ، ونساؤهم قذرات عجفاوات .

و بنى عجل ، فى رأى الأبيرد ، أذلاء ، زنادقة ، لئام الأصـول ، أقذار ، ولـكن بنى تميم كرام ، أمجاده شجعان .

فالمناقضة مقابلة الهجاء بالهجاء وقد زاد الثانى بالفخر .

٨ — كذلك سبقت الإشارة إلى ما كان بين المغيرة بن حبناء بن زيد مناة من تميم وأخيه صخر من مناقضات ، ولـكنا نقتصر هنا على ما دار بينهما بسبب أخت لهما ، فقد جاءت المغيرة تشكو إليه أخاها صخراً أنه أسرع فى مالها وأتلفه وأنها منعته شيئاً يسيراً بقى لها فمد يده إليها وضربها فقال له المغيرة معنفاً :

ألا مَن مُبلغ صخر بن ليلى فإنى قد أتانى من نثا كا

---

(١) مهذب الأغانى جـ ٥ ص ١٠٢

رسالةَ ناصح لك مستجيب ... إذا لم ترعَ حُرمته رعاكا
فإنك لا ترى أسمـــاء أختاً ... ولا تَرَيَنَّـــنِي أبداً أخاكا
فإن تعنُف بها أولا تصِلها ... فإن لِأُمها ولداً سِـــواكا
يَبرّ ويستجيب إذا دعتهُ ... وإن عاصيتَه فيها عصاكا
وكنتُ أرى بها شرفاً وفضلا ... على بعض الرجال وفوق ذاكا
جزاني الله منك وقد جزاني ... ومني في مَعاتبتـــا جزاكا
وأعتَبَ أصدقَ الخصمين قولا ... وولى اللـؤم أولانا بذاكا
فلا والله لو لم تعص أمرى ... لـكنت بمعـزل عما هناكا[1]

أخذ المغيرة على أخيه عقوقه الأخوة ، وعنفه بأخته أسماء مع غناها عنه ، وأنه مستعد لإكرامها ومخاصمته في سبيلها ، وهي تبز الرجال شرفاً وفضلا ، ثم دعا الله أن يجزيَ كلا بما يستحق ، ويرضى عن أصدقنا ويغضب على مذنبنا ، وذلك كله ناشىء عن عصيان صخر نصحَ أخيه المغيرة : وقد أجابه أخوه صخر بقوله :

أتاني عن مُغـــيرةَ قول زُور ... تعمّده ، فقلتُ له : كذاكا
يَعُم به بَني ليـــــلى جميعاً ... قولٌ هجاءهم رجـلا سواكا
فإن تكُ قد قطعتَ الوصل مني ... فهذا ، حـــين أخلفني مُناكا
تُمنّيني إذا ما غِبتَ عـني ... وتُخلفني مُنـاي إذا أراكا
وتُوليني مَـلامة أهلِ بيتي ... ولا تُعطى الأقارب غير ذاكا
فإن تكُ أختُنا عتِبتْ علينـا ... فلا تصرِم لِظنّتهـا أخاكا
وإن تكُ قد عتبت عليّ جهلا ... فلا ، والله ، لا أبغي رضاكا
فقد أعلنتُ قولكَ إذ أتاني ... فأعلِنْ عن مقالي ما أتاكا

---

(١) مهذب الأغاني جـ ٥ ص ١١٢

سيُغنى عنكَ صخراً ربُّ ضخر ... كما أغناكَ عن صخرٍ غناكا
ويُغنيني الذى أغنـاكَ عنى ... ويكفينى الإلهُ كما كفاكا
ألم ترنى أجودُ لكم بمالى ... وأرمى بالفَواقِرِ مَن رماكا
وأنى لا أقود إليك حرباً ... ولاأعصيك إن رجلٌ عُصاكا
ولكنى وراءكَ شَمَّرِيٌّ ... أُحامى، قدعلمتَ ، على حماكا
وأدفع ألسُنَ الأعداء عنكم ... ويَعنينى العدو إذا عناكا
وقد كانت قريبة ذاتَ حق ... عليك فلم تطالعها بذاكا
رأيت الخير يقصر منك دونى ... وتبلغنى القوارص مِن أذاكا

فكان نقض صخر قائماً على تكذيب أخيه ، ورميه بعقوق أهله و بخله عليهم و يرمى أخته بسوء الظن فيما ادعت على صخر ، و يعلن أخاه القطيعة ، ثم ينصرف عنه إلى الله الذى يغنيه عنه كما أغنى المغيرة، ثم يأخذ صخر فى الامتنان على المغيرة بكرمه عليهم ، وذبّه عنهم ، مع عقوق المغيرة أهله و بخله على أخيه وشدة هجائه. فدخل النقض فى أبواب التكذيب ، والموازنة ، والافتخار . وتدل القصة كلها على أن المغيرة غنى شحيح ، وصخراً فقير طامع متلاف .

٩ — ومن ظريف مادار من النقائض ما قال حكيم بن عياش الكلبى الكميت الأسدى : —

ماسرَّنى أن أُمى منْ بنى أسد ... وأن ربىَ نجـانى منَ النار
وأنهم زوجونى من بناتهم ... وأن لى كل يوم ألف دينار

فقد رفض الجنة إذا كانت سبيلها أن تكون أمه أسدية كما رفض ألف دينار تأتيه كل يوم ثمناً لزواجه من الأسديين ، فأخذه الكميت بنقض منطقى إذ نفى الأسدية

عن أمه ودفع به إلى النار ، ثم عاد فهجاه بها إذ كانت من قوم ذوى ضعة حتى أكسبوا هذا الكلبي الخزى والعار لكون أمه منهم ، فقال الكميت :

يا كلب مالك أمٌّ مِن بنى أسد ... معروفةٌ فاحترق يا كلب بالنار

لكن أمَّك من قوم شنئتَ بهم ... قد قنَّعوك قِناع الخِزى والعار

فقال له الكلبي :

لن يبرحَ اللؤم هذا الحيَّ من أسدٍ ... حتى يفرّق بين السبت والأحد[1]

١٠ — كان بين بنى السيد بن مالك الضبّ و بين عدى بن عبد مناة تراٍم على خَبراء بالصَّمَان يقال لها ذات الزِجاج نشأت عنه دماء قتل فيها سالم العدوى فقال فى ذلك خالد بن علقمة أخو عبد الله بن دارم :

أسالمُ ما منَّتكَ نفسُك بعد ما ... أتيتَ بَنى السيدِ الغواةَ الأشائما

أسالمُ قد منَّتك نفسك ، إنما ... تكون دِياتٌ ثم ترجع سالما

كذبتَ ، ولكن ثائرٌ متبسِّل ... يُلَقِّيك مصقول الحديدة صارما

أسالمُ ما أعطى ابنُ مامة مثلَها ... ولا حاتمٌ فيما بَلا الناسُ حاتما

أسالمُ إن أفلتَّ مِن شر هذه ... فوائل فِراراً إنما كنت حالما

وقد أسلمت تيم عدياً فأربعت ... ودَلّت لأسباب المنية سالما

فأجابه سُويد بنُ كراع العُكلىّ — وعكل وضبة وعدِىّ وتيم هم الرِّباب :

أشاعرَ عبد الله إن كنتَ لائما ... فإنى لما تأتى من الأمر لائمُ

تحضّض أبناء الرِّباب سفاهة ... وعرضك موفور وليلك نائم

وهل عجب أن تدرك السيد وِترَها ... وتصبرُ للحق السَراةُ الأكارم

---

(١) مهذب الأغانى ج ٥ ص ٢١٢ .

رأيتُك لم تمنع طُهيَّةَ حُكمها وأعطيتَ يربوعا وأنفُك راغِمُ
وأنت امرؤ لا تقبلُ النصحَ طائعاً ولكن متى تُقهَر فإنك رائمُ[1]

لام الدارمى سالماً اطمئنانه إلى بنى السيد فقتلوه ، ونبهه أنه كان من الغفلة بحيث جاد بما لم يجد به أكرم الأكرمين وهو نفسه ، ودعاه إلى الفِرار إن أفلت مِن أيديهم لأنه كان رهن نفسه لبنى السيد الغادرين . فنقض سويد على الدارمى بأنه جبان يعرض الناس للشر وينأى عنه ، وبأن السيد قتلت سالماً بمن قتل من بنى عدى فهجاه وكذب دعواه . ثم غمزه بما ليربوع على قومه دارم من مواقف وأنه لا ينتصح إلا راغماً .

* * *

ونكتفى بهذه الشواهد للنقائض العامة ، لنفرغ لعرض النقائض الخاصة : بين جرير والفرزدق أولا ، ثم بين جرير والأخطل ثانياً .

---

(١) مهذب الأغانى جـ ٥ ص ٢

الفصل السادس

نقائض جرير والفرزدق

— ١ —

فى كتاب الفهرست لابن النديم عنوان: « أسماء من ناقض جريراً وناقضه جرير » تحته : نقائض جرير والأخطل ، نقائض جرير وعمر بن لجأ ، نقائض جرير والفرزدق[1] .

هناك ، إذاً ، هذه المجموعات الثلاث من النقائض ، ولكنها ليست كلّ ما دار من هذا القصيد بين الشعراء ، ولعل نقائض جرير والبعيث تكوّن مجموعة أكبر من نقائض جرير وعمرو بن لجأ فضلا عن نقائض جرير مع كل من الفرزدق والأخطل ، ومع ذلك فليس أمامنا من هذه المجموعات منشوراً سوى نقائض جرير والفرزدق ، ونقائض جرير والأخطل ، وسنكسر هذا الفصل على الكلام فى أولاهما .

نشر كتاب نقائض جرير والفرزدق الأستاذ أنتونى أشلى بيڤان Anthony Ashley Bevan فى جزءين كبيرين عدد صفحاتهما أربع وخمسون وألف صفحة عدا جزء ثالث ضمنه فهارس قيمة منظمة ، وطبع فى مدينة ليدن بمطبعة بريل سنة ١٩٠٧ .

---

(١) الفهرست لابن النديم ص ٢٢٥ طبعة مصر .

اعتمد الناشر على مخطوطات ثلاثة كما قال فى التمهيد Introduction : —

مخطوطة أكسفورد ، ومخطوطة لندن ، ومخطوطة استراسبورج[١] .

أما مخطوطة أكسفورد فموجودة بمكتبة بودليان Bodleian وحرْدُها[٢] مؤرخ ٢٧ رجب سنة ٩٧١ هـ (١٣ مارس سنة ١٥٦٤ م) تحتوى على ٢٢٧ ورقة واضحة الخط على العموم وفى بعض صفحاتها الأخيرة بياض كثير يدل على أن مكانه نصوص لم يمكن قراءتها فيما نقلت عنه وعنوان هذه المخطوطة الوارد على الحَرْد هو « كتاب النقائض نقائض جرير والفرزدق » ويحتوى على : —

١ — تمهيد قصير .

٢ — ومجموعة من القصائد يختلف طولها بين البيت الواحد والمائة والخمسة والخمسين ، وقد رمز إليها فى النشر بالحرف الانجليزى O .

٣ — وخاتمة تحتوى على ملاحظات متصلة بتراجم و بعض مقطوعات شعرية إضافية .

ومن قصائد هذا الأصل المائة والثلاثة عشرة ، ثنتان وستون لجرير وثمان وثلاثون للفرزدق ، وست للبعيث ، وخمس لغسان بن ذُهيل السَليطى ، وواحدة لعُقبة بن مُلَيص المقلَّدى ، وواحدة للنعمان بن شريك .

وهذه القصائد مصحوبة بشروح لغوية حيناً ، وتاريخية حيناً آخر ، وهذه الأخيرة ، على طولها الشديد أحياناً ، تدور على حوادث الشعراء أو أيام العرب .

---

(١) راجع المقدمة والتمهيد بالانجليزية فى صدر الجزء الأول .

(٢) ذيل صفحة العنوان Colophon .

ومن المقدمة والخاتمة يفهم أن الكتاب تأليف أبى عبيدة (مَعمر بن المثنى التيمى المتوفى سنة ٢٠٧ هـ) رواه بالتواتر أبو جعفر (محمد بن حبيب المتوفى سنة ٢٤٥ هـ) والحسن بن الحسين (السكرى المتوفى سنة ٢٧٥ هـ) وأبو عبد الله (محمد بن العباس اليزيدى المتوفى سنة ٣١٠) .

وواضح أن المصادر التى أخذ عنها أبو عبيدة كثيرة جداً لأنه ذكر أكثر من خمسين شخصاً استمد منهم معارفه . وهناك زيادات من وضع محمد بن حبيب ، والسكرى ، وأخرى كثيرة من إضافة اليزيدى ، كما أن هناك روايات منسوبة إلى سعدان بن المبارك تلميذ أبى عبيدة والأصمعى اقتبسها عنهما مشافهة ، وقد شرح النقائض كما ورد فى الفهرست لابن النديم وشرحه هو المعروف بشرح أبى عثمان .

وهذه المخطوطة كانت أساس نشر هذا الكتاب الضخم ، إذ هى أوفى الثلاثة ، مع الاستعانة بالنصين الآخرين فى التحقيق والإكمال والإصلاح .

أما مخطوطة لندن London الموجودة فى مكتبة المتحف البريطانى ، فقد رمز إليها الناشر بالحرف الانجليزى L وتحتوى على ٢٠٠ ورقة ضاع أولها وآخرها ، وقد يرجع العهد بهذه المخطوطة إلى القرن الثانى عشر الميلادى لرداءة الخط ، وصعوبة قراءته ، وعدم نقط حروفه بحيث لا يمكن الاعتماد عليها عند اختلاف النصوص اختلافا قائماً على النقط . على أنها لا تشمل جميع القصائد الواردة فى نسخة أكسفورد ، وما ورد بها بعضه منقوص ، وكذلك نجد فيها بعض أبيات زائدة وأخرى ناقصة . وأما شروحها وملاحظاتها التاريخية فأقل مما ورد منها فى نسخة أكسفورد . ومع هذا فالأصلان يشتركان فى مواد كثيرة وينفرد كل بمادة خاصة به .

أما مخطوطة ستراسبورج الموجودة بمكتبة جامعتها بالألزاس فقد رمز إليها الناشر بالحرف الانجليزى S وتحتوى على ١٧٤ ورقة فقد بعضها فى مواضع متفرقة. وحَرْدُها مؤرخ منتصف ربيع الآخر سنة ٦٨٧ هـ (مايو سنة ١٢٨٨ م) . وهذا الأصل جميل لكنه كتب بإهمال وفيه بعض الأخطاء وينقصه بعض القصائد، واختلافه عن نسخة أكسفورد قليل. وتنقصه القصص الطويلة الواردة فى الأصلين الأولين . أما مصادر هذه المخطوطة فغير واضحة فإن نصوصها تنسب إلى أبى عبيدة مباشرة وإن كانت هناك إشارات قليلة إلى اليربوعى والأصمعى وأبى سعيد السكرى . وقد ذكر محمد بن حبيب مرة ، لكنّ اسمى اليزيدى وسعدان بن المبارك وردا هنا ، وربما كان هذا الأصل أقدم من زميليه أو مختصراً عنى صاحبه بالملاحظات التاريخية كما يبدو ذلك من الكلمات الأولى للحرد وهى « تم كتاب النقائض عن أبى عبيدة بأخباره وتفسيره » مما تدل على أنه مختصر من أصل أقدم منه مشتمل على روايات غزيرة تستحق العناية .

هناك أصلان آخران للنقائض مؤرخان بسنة ١٢٩٧ هـ أحدهما بمكتبة جامعة Yale والآخر بالمكتبة الخديوية بالقاهرة (دار الكتب المصرية) وهذان الأصلان صورتان بسيطتان لنسخة ستراسبورج ، فليست لهما ، إذاً ، قيمة خاصة . ثم استعان الناشر بما ظفر به من نسخ ديوانى جرير والفرزدق ، مع مراجع شتى ذكرها بعد المقدمة متبعاً منهجاً وضّحه آخر التمهيد[1] .

و بعد نشر الجزء الأخير من المجلد الثانى تلقى الناشر خطابا من الأب أنستاس مارى الكرملى ببغداد يخبره أن لديه مخطوطة من النقائض بتاريخ ٩٢٥ هـ وقد

---

(١) ص ١٧

استظهر الناشر أن نسخة بغداد مأخوذة عن نسخة استراسبورج كما أوضح ذلك فى مقدمة الجزء الثالث الخاص بالفهارس .

ولا يسع القارىء إلا الإعجاب العظيم بمجهود بيفان والتقدير الخالص ليده على لأدب العربى بنشر هذا الكتاب .

— ٢ —

يبدأ ديوان النقائض بهـــذه العبارة : « قال أبو عبد الله محمد بن العباس اليزيدى : قال الحسن بن الحسين السكرى : قال أبو جعفر محمـد بن الحبيب : حكى عن أبى عبيدة مَعمر بن المثنَّى التَيْمى من تَيم قريش مولًى لهم فغلب عليه نسبهم ، قال : كان التهاجى بين جرير والفرزدق فيما ذكر له مِسحل بن كُسَيب ابن عمران بن عطية الخطفى ، وأمُّ مِسحل زَيداءُ بنت جرير بن عطية ، وكانت بَكرة بنت مَليص أحد بنى مقـلد بن كليب تحت تميم بن عُلاثة أحـد بنى سَليط . . الخ » .

ولم يذكر ابن النديم كتاب النقائض بين كتب أبى عبيدة[1] ولـكنه ذكر فى أخبـار ابن حبيب[2] أنه روى عن أبى عبيدة وغيره وأن كتبه صحيحة منها كتاب نقائض جرير والفرزدق وكتاب نقائض جرير وعمرو بن لجأ وورد نحو ذلك فى معجم الآدباء لياقوت الحموى[3] .

وفى معجم الأدباء فى ترجمة الحسن بن الحسين السكرى (٢١٢ ـ ٢٧٥هـ) أنه سمـع محمد بن حبيب وروى عنه ، وللسكرى من الـكتب على ما ذكره محمد

---

(١) ص ٧٩ من الفهرست طبع مصر (٢) نفس المرجع ص ١٥٠ .
(٣) جـ ١٨ ص ١١٢ طبع مصر .

ابن إسحاق النديم كتاب النقائض[١]. وفى الفهرست لابن النديم عند الكلام على ما عمله أبو سعيد السكرى « ولم يعمل السكرى شعر جرير ، والذى عمله جماعة من العلماء منهم أبو عمر الشيبانى ، والأصمعى ، وابن السِكِّيت ، والذى روى شعر جرير أيضاً عنه مِسحل بن كُسَيب بنِ عمّار ابن عُكابة بن الخَطَفى . هذا من خط ابن الكوفى فى نقائض جرير والفرزدق عملها أبو عبيدة مَعمر بن المثنى ورواها الأصمعى دون تلك الرواية وعملها أبو سعيد الحسن بن الحسين فجوّدها ، وقد عملها أبو المغيث الأوْدِى ، رواها عنه ثعلب »[٢].

وفى ابن خلكان فى ترجمة أبى عبد الله محمد بن العباس اليزيدى « كان محمد المذكور إماماً فى النحو والأدب ونقل النوادر وكلام العرب ، له تصانيف كثيرة ، وكان قد استُدعى فى آخر عمره إلى تعليم أولاد المقتدر بالله فلزمهم مدة ، وتُوفى أبو عبد الله المذكور ليلة الأحد أول الليل لاثنتى عشرة ليله بقيت من جمادى الآخرة سنة عشر وثلثمائة وعمره اثنتان وثمانون سنة وثلاثة أشهر »[٣].

سلسة الرواة عن أبى عبيدة قائمة متواترة فابن حبيب أخذ عن أبى عبيدة ومن كتبه نقائض جرير والفرزدق ، والسكرى أخذ عن محمد بن حبيب ، وينسب هذا الكتاب للسكرى ، واليزيدى أدرك السكرى وعاش معه نحو نصف قرن ، وبذلك كانت فاتحة النقائض صحيحة من هذا الوجه .

---

(١) ج ٨ ص ٩٤ طبع مصر . (٢) الفهرست ص ٢٢٤ .
(٣) وفيات الأعيان ج ٦ ص ٥٠٢ .

obeikandi.com

— ٣ —

أما ترتيبُ النقائض ترتيباً تاريخياً فلم يتوافر فى جميع الأصول ، وسنحاول هنا بعد عرض الكتاب أن نضيف بعض الملاحظات إلى ما لحظه الناشر راجين أن نصلَ إلى ترتيب معظم القصائد ولو فى فترات تاريخية متوالية معتمدين على نصوصها ، وموضوعاتها ، وصلاتها بالحوادث التاريخية وشخصيات الخلفاء والأمراء والولاة وغيرهم ، لعلنا نفرغ فيما بعد لتلمُّس الوثائق التى تساعدنا على ترتيبه ترتيباً دقيقاً ونشره بشرح أوفى وأنفع[1] .

وأولُ ما يلقانا من ذلك ترتيب كل نقيضتين معاً ومعرفة أيهما أسبق إذ أن هذا يشوبه شىء من الغموض ، فبينما نجد فى النقيضة الثانية ردودا صريحة على الأولى إذ نجد فى الأولى أبياتاً هى ردٌّ على نظيرة لها فى الثانية أوقطع السبيل عليها ، ولعل منشأ ذلك أن بعض الأبيات كانت تقال فى مناسبة طارئة ثم تدخل بعد ذلك فى النقائض ، أو أن بعض النقيضة كان ينشأ فى وقت ما ثم تكمل بعد ذلك كبائية جرير فى الراعى وبنى نمير ، وهناك أبيات مكررة فى القصائد كما هى أو بتغيير القافية ، وذلك من عمل الشاعر نفسه أو رُواته .

من شواهد ذلك قول الفرزدق فى قصيدة مصرع قتيبة بن مسلم الباهلى : —

فلا تقتلِ الأسرى ولكن نفكّهم ... إذا أثقل الأعناقَ حملُ المغارم
فهل ضربةُ الرومى جاعلةٌ لكم ... أباً عن كُليب أو أباً مثلَ دارم
كذاك سيوف الهند تنبو ظُباتُها ... ويقطعْنَ أحيـــاناً مَناط التمائم[2]

ردًّا على قول جرير فى نقضه قصيدة الفرزدق المتضمنة الأبيات المذكورة ، قال جرير فى نقيضته : —

---

(١) راجع نقائض جرير والفرزدق للدكتور محمود غناوى الزهيرى ص ٦٢ مطبعة دار المعرفة ببغداد

(٢) النقائض ص ٣٨٣ .

أكلفتَ قيساً أن نبا سيفُ غالب ... وشاعتْ له أحدوثة فى المواسم
بسيفِ أبى رَغوانَ سيفِ مُجاشع ... ضربتَ ولم تضربْ بسيف ابن ظالم
ضربتَ به عند الإمام فأرعشت ... يداك وقالوا : محدَث غير صارم
ضربتَ به عُرقوب ناب بصوءَر ... ولا تضربونَ البيضَ تحتَ الغماغم
عنيفٌ يهزّ السيفِ قَينُ مجاشع ... رَفيق بأحرات الفؤوس الكرازم[1]

فإذا وقفنا عند نصوص النقائض فقط كان غريباً أن يرد الفرزدق على أبيات لم يقلها جرير ، وكان علينا أن نلتمس حلا لهذه الظاهرة ، وكان من الفروض الجائزة أن يكون الفرزدق قد سبَق ليقطع على خصمه خط الهجوم ويرد على ما يدور بخلد جرير ، ولكن قصة هذه الأبيات الواردة فى شرح النقائض تيسر علينا فهم هذه الظاهرة[2] إذْ لمَّا كَلَّ سيف الفرزدق فى ضرب الأسير الرومى فى حضرة سليمان بن عبد الملك وضحك به الناس وشمتت بنو عبس أخذ الفرزدق يعتذر عن عجزه بالشعر متمثلا بسيف ورقاء بن زهير العبسى وعجزه عن قتل خالد بن جعفر ، ومعتمدا على تأخر القدر ، وكان جرير حاضرا هذا الحادث واستطاع أن يقتل أسيرَه بضربة سيف قاطع دسته إليه بنو عبس ، فكان من الطبعى أن يستغله فى المناقضة وقد فعل . ويجوز أن تكون هذه الأبيات قيلت قبل النقيضتين ثم دخلتهما بعد ذلك .

وقد ذكرنا من قبل قصة اصطحاب جرير والفرزدق إلى هشام بن عبد الملك مرتدفين على ناقة ، وكان هشام يومئذ بالرصافة فنزل جرير لقضاء حاجته فجعلت الناقة تتلفت فضربها الفرزدق وقال : —

إلامَ تلفّتين وأنتِ تحتى ... وخيرُ الناسِ كُلّهم أمامى

---

(١) ص ٤١٣ .
(٢) ص ٣٨٣ — ٣٨٥ .

متى تردى الرُصافةَ تستريحى مِن التهجير والدبَرِ الدوامى

ثم قال : الآن يجىء جرير فأنشده البيتين فيقول :

تلفَّتُ أنها تحت ابن قـينٍ إلى الكيرَين والفأس الكهام

متى ترد الرصـــافة تخزَ فيها كخِزيك فى المواسم كلَّ عام

فجاء جرير فأنشده الفرزدق البيتين الأولين فأنشده جرير البيتين الآخرين ثم رأينا بيتى الفرزدق فى نقيضـــة له[١] و بيتى جرير فى الرد عليها[٢] ، وهذا الشاهد ورد الترتيب فيه طبَعياً .

قال أبوعبيدة : وقف جرير بالمربد وقد لبس درعاً وسلاحاً تاماً وركب فرساً أعاره إياه أبو جَهْضَم عَباد بن حُصَين الحَبَطىّ فبلغ ذلك الفرزدقَ فلبس ثيابَ وشيٍ وسواراً وقام فى مَقبرة بنى حصين ينشـد بجرير والناس يسعون فيما بينهما بأشعارهما فلما بلغ الفرزدقَ لباسُ جريرٍ السلاحَ والدرع قال :

عجبتُ لراعى الضـأنِ فى حُطَمِيَّة وفى الدرع عَبدٌ قد أصـيبتْ مقاتلهْ

وهل تَلبَس الحُبلى السلاح وبَطنها إذا انتطقت عِبء عليها تُعادلهْ

ولما بلغ جريراً أن الفرزدق فى ثياب وَشى قال :

لبستُ أداتى والفرزدق لُعبة عليه وشاحاً كُرَّج وجلاجِلهْ

أعِدُّوا مع الحَلْى الملابَ فإنما جرير لـكم بعل وأنتم حلائله

وأعطوا كما أعطتْ عَوانٌ حليلَها أقرتْ لبَعلٍ بعدَ بعلٍ تُراسِلهْ

ثم رأينا هذه الأبيات تدخل النقائض[٣] بترتيب ورودهما إن صـــح ترتيب الرواية .

---

(١) النقائض ص ١٠١٠ (٢) ص ١٠١٦ وابن خلـكان ج ١ ص ١٠٣

(٣) النقائض ص ٦٢٣ و ٦٥٠

وفى شرح النقائض[1] أن جريراً فى هجائه الراعى قال من قصيدته البائية ثمانين بيتاً حتى أتى فى آخر الليل على قوله :

فغُضَّ الطرفَ إنك مِن نُمير فلا كعباً بلغتَ ولا كِلابا

ثم قال لراويته : حسبك ، أطفئ سِراجَك ونَمْ ، ثم إن جريراً أتم هذه القصيدة بعد ، وكان يسميها الدَّمَّاغة ، والدهقانة ، والمنصورة .

هذه الشواهد تشير إلى أن ترتيب الأبيات بين كل نقيضتين معاً قد يشوبه شىء من الاضطراب وعدم الإحكام ، وسنرى شواهد تؤيد ذلك ، وتدل أيضاً على أن ترتيب النقائض جميعاً غير متوافر فى هـذا الديوان المنشور ، وذلك أثناء عرض هذا الديوان .

بدأ ديوان النقائض هذه بذكر ما دعا إلى التحام جرير مع غسان السَليطى كما قدمنا وما رجز به جرير غسان ومن معه فرماهم بالجبن والبخل وأهدى إليهم فى رجزه حميراً قبيحة الصورة ووصم رجالهم بالضعة ونساءهم بالقذارة وذلك فى الأراجيز الخمسة الأولى فنشط غسان وأخذ يرد على جرير بالشعر فى القطعة السادسة :

لعمرى لئن كانتْ بَجيلةُ زانَهَا جرير لقد أخزى كُليباً جريرها

يوازن بينه و بين جرير بن عبد الله البجلى الصحابى الشهير[2] و يرمى كليباً بالجبن واللؤم والبخل وجريراً بالعجز عن حماية قومه و بحماقة أصـــله ، فأجابه جرير بقصيدته :

ألا بكرتْ سَلمى فجدَّ بكورها وشَقَّ العصا بعد اجتماع أميرها

و بعد نسيب قصير يسخر بغسان و يرميه بالعجز عن حماية قومه سليط و يصف قومه بالجبن والفرار والدناءة والهوان فيقلب عليه معانيه و يحـــذرهم التعرض

---

(١) ص ٤٣٠ — ٤٣٢ (٢) الاصابة لابن حجر ج ١ ص ٢٣٣ مصر سنة ١٩٣٩م

لبنى الخطفى حول الغدير الذى اختلفوا عليه بالقاع ، فإن بنى الخطفى أنقذوهم من قيس عيلان أيام (سُوفةَ) بالمروت وردوا إليهم (بئر حِصْن) من بنى مرّةَ بن حِمّان ، ويهددهم بشعره ، ويعيرهم بيوم (الحِداب) لبكر بن وائل على سَليط فاستنقذتهم بنو رياح وبنو ثعلبة ابنا يربوع .

وهنا يرد على جرير أبو الورقاء عُقبة بن مُليص المقلّدى يهدده ويعتز بقومه على معدكلها ويحذر جريراً ورهطه أن يعرضوا لما لا يقدرون عليه .

ويستمر جرير وغسان حتى نجد فى القطعة الحادية عشرة غسان يذكر تقدم سنه وطول تجربته ، وشدة بأسه ، ويرمى بنى كليب بالضعف وخفة الأحلام والذلة واللؤم ، فيجيبه جرير فى القطعة الثانية عشرة ، ويأخذ منه معنى خفة الأحلام فيرده عليه : —

أَبَنِي أُدَبرة إنّ فيكمْ فاعلموا خَورَ القُلوبِ وخِفّةَ الأحلامِ

ويعيرهم بيوم (قشاوة) لبسطام بن قيس الشيبانى حتى أنقذهم همام بن رياح ابن يربوع ، وهنا يذكر الشارح خبر هذا اليوم .

وهكذا حتى نصل إلى ما كان بين غِسان وبين جَبْناء الكلبى وردّ جرير عن جبناء ، وتعييره غسانَ بالغدر بجار اليربوعيين وحضّه بنى عاصم عليهم كما مر ، ويلح جرير على غسان وقومه ، ثم يأسف لأن غسان شغله عن أن ينشر من أيام بنى سليط مالا يَبيد جَدّ الدهر إذ كانوا فُرساناً .

ويصادفنا بعقبِ ذلك تعرُّضُ فضالة العُرَنِي من ثعلبة بن يربوع لجرير وتهديده إياه بالقتل لأن جريراً يشتم أخواله بنى سَليط فيقول له جرير : —

أتُوعِـــدُنى وراءَ بنى رياح كذبتَ لتقصُرَنّ يداكَ دُونى

عَرِينٌ مِن عُرَينةَ ليس مِنـا برئتُ إلى عُرينـةَ مِن عَرينِ

الأبيات[1] ثم تعرّض الأعور النبهانى لجرير وسؤاله ، دفعه إلى ذلك بنو أخته من سَليط ، فلم يُشبع جرير أطماعه فانصرف وهجا جريراً بقوله : —

فقلتُ لها : أمِّى سَليطاً بأرضِها فبئس مُناخُ النـازلين جريرُ

ولو عند غسان السَليطى عرّست رغا قَوَنٌ منهـا وكاسَ عقيرُ

وأنتَ كُلَيبيّ لكلبٍ وكلبةٍ لها عند أطناب البيوت هَريرُ[2]

فقال جرير يرد عليه : —

عفا ذو حَمام بعـــدنا وحَفيرُ وبالسِرِّ مَبدًى مِنهمُ ومَصيرُ

ويرمى بنى نبهان الطائيين باللؤم والهوان والفجور ويصور نسـاءهم صوراً قبيحة ثم يمتن على خصمه بما أكرمه ويجهز عليه .

ثم يلتحم جرير والبعيث كما سبق ذكره ، وذلك بالقطعة السادسة والعشرين لجرير وفيها يتهم البعثَ بنصره غسانَ ، ويهجو أمـه ، وينذره ، فيرد عليه البعيث واصِفاً رهطه باللؤم مُنذِرَه بالشر هاجياً أمه أيضاً ، مفتخراً بأيام مجاشع قومه كيوم (طَيّىء) ويوم (نَجْران) فيردّ عليه جرير ويُطيل النسيب ويفخر بشعره وينذره هو وقومَه بالويل ويذكر أمه ، وكانت أمَةً من سَبْى أصبهان[3] فحقت عليه الجزية يؤديها لسادته ، ويرميه باللؤم وأمه بالسوء . ثم يفخر جرير ببأس قومـه يربوع وفروسيتهم ويذكر يوم (ذى طلوح) ليربوع على بكر ، وخبرَ الرِدافة[4] مع المنذر بن ماء السماء ويوم (المرّوت) ليربوع على عامر ويوم (أعْشاشِ) ليربوع على شَيْبان ، ثم يذكر جرير غدرَ مجاشع بالزُبير بن العوام

---

(١) النقائض ص ٣١ (٢) نفسه ص ٣٢

(٣) نفسه ص ٦٣ (٤) نفسه ص ٦٦ .

إثر وقعة الجمل[١] ومسألةَ القيون ، وقِراهم النازلين بالخزير ، ويذكر الشارح حديثَ داحِس[٢].

ويعود البعيث فيهجو جريراً ، ويتعالى عليه ، ويذكر هذا البيت الذى أخذه من الفرزدق وأغضبه : —

أترجو كليبٌ أن يجيء حديثُها بخير وقد أعيى كليباً قديمُهـا

فأجابه جرير : —

ألا حَيِّ بالبُرديْنِ داراً ولا أرى كدارٍ بِقَوٍّ لا تُحَيَّى رُسُومُها

وهى القطعة الثلاثون ، وفيها يتعالى على مجاشع ويذكر يوم (اللِوى) ويوم (عبيد الله بن زياد) ومبايعة تميم لعبد الله بن الحارث الهاشمى مِن غير مشورة اليمن وربيعة[٣] إثر موت يزيد بن معاوية ثم ذودَهم عن المِنبر الشرقى أيام فتنة البصرة[٤] وعن الكعبة مناصرةً لابن الزبير : —

عَنِ المِنبر الشرقىّ ذادت رِماحُنا وعن حُرمةِ الأركان يُرمى حَطيمُها

وهذا يقرِّب إلينا تأريخ هذه القصيدة فهى بعد حصار مكة سنة ٦٤ هـ وبعد فتن البصرة عقب ذلك[٥] ، ثم ذكرَ يومَ (عاقل) لبنى حنظلة من تميم على جُشَم من ربيعة ، وألحَّ على أمِّ البَعيث بالهِجاء الفاحش وهجا مجاشعاً ثم قال له : —

أتشتِم يَربوعاً لأشتِمَ مالكا وغيرُك مَولى مالكٍ وصميمُها

ومالك أصل دارم ومجاشع ، ولعل جريراً يشير إلى أن الفرزدقَ أحقُّ من البَعيث بالدفاع عن مالك والتكلم باسمها .

---

(١) نفسه ص ٨٠ (٢) نفسه ص ٨٣ — ١٨٠

(٣) النقائض ص ٦١٢ (٤) و (٥) نفسه ص ١١٨

وهنا تلوم نساء مجاشع الفرزدق لتركه جريراً يهتك عوراتهم ويأكل البعيث أكلا ، فاضطر الفرزدق أن يدخل المعركة كارهاً وأن يشتبك مع جرير ويسقط بينهما البعيث[1] .

ويلاحظ أن الفرزدقَ فى القصيدة الحادية والثلاثين يتقدم إلى المعركة منثاقلا ويذكر أنه قضى ثلاثين عاماً فى غواية ثم قَيَّدَ نفسه لجمع القرآن إذ يقول :

ألا استهزأتْ مِنِّى هُنيدةُ أن رأتْ أسيراً يُدانى خطوَه حلَقُ الحِجْلِ

الأبيات ، ومعنى ذلك أن سنه فى ذلك الوقت (وهو سنة ٨١ هـ) كانت نحو ست وخمسين سنة على ما يفهم من ذلك النص ومن أنه قارب المائة ومات سنة عشر ومائة هجرية .

وشىء آخر ، إذا كان البعيث قد سقط منذ التحام جرير والفرزدق كما قال الناس ، فمعنى ذلك أن هذين الفحلين قد انصرفا عنه إلى ما بينهما ، وانعدم أوندر التحامه بأحدهما ولا سيما أنه قد شاخ فصار ذكره فى النقائض ذكرى أو مثلا للعدو المهزوم وأخذ يختفى من تاريخ هذه المناقضة المطّردة النامية ، لذلك يرجح أن يستمر ترتيب النقائض هكذا ؛ فالقطعة الثانية والثلاثون مرتبطة بما قبلها إذ كانت رداً عليها وهى للبعيث فى هجاء الفرزدق وجرير ، وتليها القطعة الثالثة والثلاثون لجرير فى الرد على البعيث وهجاء الفرزدق وفيها مدح الحارث بن أبى ربيعة المخزومى والى البصرة من قبل ابن الزبير (٦٥ — ٦٧ هـ) : وبعدها النقيضتان الرابعة والثلاثون للفرزدق أول ما هجا جريراً والخامسة والثلاثون لجرير فى الرد على الفرزدق وفراغ كل منهما لصاحبه . ثم يلى ذلك على الأرجح القطع التى ذكر فيها البعيث ، منها القصيدة الخامسة والستون لجرير يهجو الفرزدق والبعيث

---

(١) من ١٢٤ — ١٦٧ .

ونقيضتها السادسة والستون للفرزدق ، ثم التاسعة والستون للفرزدق يهجو جريراً ويعرض بالبعيث ونقيضتها السبعون لجرير يهجو الفرزدق وقد أنشئتا بعد ما ترك البصرة خالدُ بنُ عبد الله بن خالد بن أسيد الأموى إلى الشام وكان قد دخل البصرة داعياً إلى عبد الملك لما تركها مصعب إلى قتال عبد الملك سنة سبعين هجرية[١] ، ويمكن أن يعقب ذلك أو يتصل به من قرب القطع الحادية والسبعون إلى الثانية والثمانين المتصلة بزوجات الفرزدق من عهد ابن الزبير الذى لجأت إليه (النوار) إلى عهد عبد الملك لتدخل الحجاج فى إحدى هذه الزيجات .

كذلك يمكن تقريب تاريخ النقائض الرابعة والتسعين للفرزدق والخامسة والتسعين لجرير ومعهما قصيدة الأخطل الواردة فى نقائضه مع جرير[٢] إذ أنشئت الثلاثة مدة ولاية بشر بن مروان الكوفة بعد قتل مصعب بن الزبير سنة إحدى وسبعين هجرية ، وتكون اللاميتان[٣] بعد هذه القصائد لورود الأخطل فيهما ، وكذلك كل نقيضة ورد فيها ذكره ، ومنها « نقائض جرير والأخطل » .

وأما القصيدة الخامسة والخمسون لجرير فقد أنشئت بعد ولاية الحجاج على العراق سنة خمس وسبعين هجرية ففيها مديحه ، وترتبط بها السادسة والخمسون نقيضتها للفرزدق ،وكذلك أنشئت النقيضتان الحادية والخمسون والثانية والخمسون سنة ست وتسعين بعد مصرع قتيبة بن مسلم الباهلى فى عهد سليمان بن عبد الملك .

وهناك القصيدة الواحدة بعد المائة لجرير قيلت سنة ٦٠١ هـ بعد قتل الخيار ابن سَبْرة الجاشعى ، قتله بنو المهلب فى فتنة يزيد بن المهلب ، وكان الخيار أميراً على عُمان وكان أمَّرهُ عَدى بن أرْطاةَ الفزارى ، وكان عدى عاملا لعُمر بن عبد العزيز على البصرة[٤] :

---

(١) النقائض ص ٧٤٩ .
(٢) ١٩٧ .
(٣) النقائض ص ١٨٢ و ٢١١ .
(٤) ص ١٧٤ .

قَتَلَ الخِيارَ بنو المهلبِ عَنوةً فخذوا القلائد بعدَهُ وتقَنَّعُوا
وُطىء الخيارُ ولا تُخَافُ مجاشعٍ حتى تَحطَّمَ فى حشاه الأضلع
ودعا الخِيارُ بنى عِقالٍ دَعوةً جَزعا وليس إلى عِقالٍ مَجزَعُ

وأما النقيضتان الثانية والثالثة بعد المائة فقد قيلتا لخالد بن عبد الله القسرى والى العراق (١٠٦–١٠٩هـ) وكذلك القصيدة الخامسة بعد المائة للفرزدق قيلت فى مدح هشام ابن عبدالملك (١٠٥–١٢٥هـ) ومعها نقيضتها لجرير يهجو الفرزدق والبعيث والأخطل وسُراقة البارقى والكندى . وأما رثاء جرير للأخطل فكان سنة خمس وتسعين هجرية ومعه ردّ الفرزدق عليه .

— ٤ —

ونعود إلى عرض الكتاب بعد هذا الاستطراد مسايرين نصوصه فنياً وتاريخياً قدر الاستطاعة .

لما قال الفرزدق قصيدته الأولى فى هذا الفن وفكّ قيدَه ، وأنذر جريراً ونهض لحماية قومه وارتفع بهم إلى منزلة الملوك هجاه البعيث مع جرير لأن الفرزدق رمى البعيث بسرقة شعره كما مر[1] فسخر بقيد الفرزدق فى نقيضته الثانية والثلاثين وامتنّ على مجاشع بدفاعه عنهم وفخر بنفسه و بآله من دارم ، وهدّد بشعره ، وذكر حكومة قومه فى الجاهلية[2] ورجالاتهم و بأسهم ، ويومَ (جَدُود)[3] لبنى مِنقَر من تميم على بكر من ربيعة ، ويوم (الكُلاب الثانى)[4] لتميم على مَذحج ، وأنحى على جرير وقومه بالهجاء فأجابه جرير ، ويهجو الفرزدق بنقيضته الثالثة والثلاثين : —

---

(١) النقائض ص ١٢٥ (٢) ص ١٢٩ . (٣) ص ١٤٤ . (٤) ص ١٤٩ .

عُوجي علينا وار بَعي رَبَّةَ البغْلِ ولا تقتُليني لا يَحلُّ لكم قتلي

أطال فيها النسيب وعتب على هؤلاء التميميين الذين يرجون له الردى (وهم البَعيث ، والفرزدق ، وغسّان ، وابن لَجَأ ، والبلتْع) وهجا البعيث هجاء خبيثاً هو والفرزدق ، ووقف بجانب يربوع رهطه الأدنين ، وهاجم مجاشعاً ، ومدح الحارث بن أبي ربيعة المخزومي والي البصرة من قبل ابن الزبير ورجاه ألا يُشْمتَ به أعداءه ، وذلك يجعل تاريخ هذه القصيدة بين الخامسة والستين والسابعة والستين للهجرة ، فأجابه الفرزدق وكانت أول قصيدة هجا فيها جريراً ، وهذا هو بدء النقائض بينهما سنة سبع وستين هجرية على أبعد تقدير متأخر وتكون مدة النقائض بينهما ثلاثاً وأربعين سنة اذا صح أن موتهما كان سنة ١١٠ هـ

وقد تضمنت قصيدته هجاء البعيث ودلت على بغضه ما هو قادم عليه من مهاجاة ثم عكف على جرير يهدده ويصف ذلته ويضعه دونه ويذكر شيوخ قومه هو وسناءهم الرفيع . ولكن اجابة الفرزدق هذه للبعيث لم تتحد فيها القافية وان اتحد البحر ، وقد التفت جرير الى الفرزدق ينقض عليه قصيدته بالقطعة الخامسة والثلاثين التي تضمنت نسيباً رائعاً ، وعتاباً تحدثنا عنه كثيراً ، وفخراً بأصله الخِندفي وبأسه ، وهجاء لمجاشع بجبنها ،وشاعريها ، والغدر بالزبير بن العوام فلما التحما قال الناس : سقط البعيث[1] فغم أمر البعيث واضطرب موقفه كما يدل على ذلك القطعتان السادسة والثلاثون والسابعة والثلاثون ثم عُنى كل من الفحلين بصاحبه .

---

(١) ص ١٨٠ .

— ٥ —

يلقانا بعد ذلك اللاميتان ، ولا بد أن تكونا بعد القصائد النونية الثلاث لجرير والفرزدق والأخطل لذكر الأخطل فى اللاميتين وادعاء الفرزدق سرقة جرير شعره .

طرق الفرزدق موضوعه مباشرة دون هذه الديباجة التقليدية فافتخر بقومه وهجا جريراً وقومه ، وذكر بأس مجاشع وطوائفهم ، وفخواتهم ، وأحلامهم ، وألم بأعمامه وأخواله ضبة وفوقهم على كليب ، وذكر يوم (نقا الحسن)[1] لضبة على شيبان ، ومقتل عمارة بن زياد العبسى يوم (أعيار)[2] وهو يوم النقيعة ، وجيرة بدر بن حمراء الضبى لبنى تميم[3] ويوم (الجمل)[4] وهجا أبا جرير ، ولقّب قصيدته هذه (بالفَيصل) ثم ذكر وراثته الشعر عن الماضين حتى الأخطل ، ورمى غُدانة باللؤم والخَوَر وجريراً بسرقة شعره وادعائه نسباً دارمياً ، ويقول له : —

ليس الكرامُ بناحليكَ أباهمُ حتى تُرَدَّ إلى عَطيةَ تُعتَلُ
وزعمت أنك قد رضيت بما بنَى فاصبرِ فما لك عن أبيك مُحوَّلُ

فمتى وأين زعم ذلك جرير ؟ ربما ظفرنا ببيان ذلك فى النقيضتين الستين والرابعة والستين لجرير الآتيتين ، ثم هجا أمه وقال له :

أسالتَنى عن حَبوتى ما بالَها فاسأل إلى خَبرَى وعمَّا تسألُ

فمتى سأله ؟ أيجوز أن يكون هذا القول صنعة فرزدقية خيالية ؟ ثم يرمى جريراً بإتيان الأتن ، ويدعى أنه أتى (حِقّة) امرأة جرير أو أمه[5] ويرمى

---

(١) النقائض ص ١٩٠ . (٢) ص ١٩٣ . (٣) ص ١٩٨ . (٤) ص ٢٠٢ .
(٥) ص ١٩٧ .

بام جرير بالزنا وجريراً بالحبَل لشربه المنى[١] ولذلك قصة . أما جرير فقد نسب أولا ، ثم قال : —

أعـــددتُ للشعراء سُمًّا ناقِعاً فسقيتُ آخرهم بكأس الأولِ
لما وضعتُ على الفرزدق مِيسَمى وضَعَا البعيث جدعتُ أنف الأخطلِ

ثم دخل فى المناقضة فهدم بيتَ الفرزدق ، وعيّره بالقيون ،ومقتل أبيه بكاظمة بلدتهم فى قصة[٢] وبحديث البراجم[٣] ثم نقض على الفرزدق احتفاءه بالشعراء ، وغمزه بأن (فُقَيرةَ) جدتهم بنت زِنا ، أمها المِذَبَّةُ وَليدةُ كِسرى وهبها إلى زُرارة بن عُدُس[٤] ثم ذكر الزُبَير وجِعْثِنَ قُبالة أم جرير[٥] وشنع بها كثيراً ، وغمزه بارتضاع الفيشل موازاة شرب المنى[٦] ورمى مجاشعا باللؤم والضعف ، وتعالى بقومه وحلومهم أخذاً من الفرزدق ، واستأنس بحَكَمَىْ قريش : هشام وأمية أو عبد مناف وهاشم[٧] . وذكر أرهاطه موازنة ما ذكر خَصمه وهجا ضَبَّة ومُجاشِعاً ، وذكر أم الفرزدق بصورة قبيحة مقابلة لما قال زميله ، وذكر يوم (رَحْرَحان)[٨] لعامر على تميم ولم تشترك فيـــه يربوع ، ثم خصاء الفرزدق ، وعورات مجاشع ، وقيونَهم ، وهدّد الفرزدق .

وبعد ذلك القصيدة الحاديه والأربعون للفرزدق يبدأها بنسيبه بزوجه (النوار) وهجائه (ابن المراغة) وبنى كليب ، وفجر بناتهم ، ولؤمهم ، ثم يفخر بأخواله وبيوم الشَقِية)[٩] لضبة على شيبان ويوم (النِسار) لضبة وتميم على عامر[١٠] .

---

(١) نفسه ص ٢٠٦ . (٢) ص ٢١٤ . (٣) ص ٢١٩ . (٤) نفس المرجع
(٥) النقائض ص ٢٢٣ . (٦) ص ٢٢٣ . (٧) ص ٢٢٤ . (٨) ص ٢٢٦ .
(٩) ص ٢٣٣ . (١٠) ص ٢٣٨ .

فرد عليه جرير فهجاه هو والبعيث وسخر بهما — وهذا يرجح أن يكون مكان هذه المناقضة قبل هذا الموضع — ثم فخر بنفسه وقومه ورجالهم و بيوم (الصَرائم)[١] ليربوع على بنى جَذِيمة العبْسى ، وهجا مجاشعاً وضبة هجاء قبيحاً كما فعل صاحبه به .

و يبدأ جرير النقيضة الثالثة والأربعين بالنسيب وهجاء الفرزدق ومجاشع والموازنة بين مراودته مُضِيفتَهُ و بين حادث (جِعثن)[٢] و يذكر مقتل أبى(النوَار) دون ثأر ، وأنه تزوج الفرزدق والبَعيث وأن هذا أتى أمه ، و يفخر ببأس قومه وشجعانهم ، و يختمها بالزُبير وجِعْثنِ ورهن عوف مزاد بن الأقعس المجاشعى وعوف بن القَعْقاع .

فيُجيبه الفرزدقُ دونَ نسيب ، و يذكر شؤم جرير على قومه ، و يفخر بما حمله قومه من مكارم ، و برجاله ، و يتعالى بهم على كُليب و يذكر يوم(النِسار)[٣] و يرمى كليباً بالمهانة ، و يطلب إلى جرير محاكمته إلى قُضاعة ونِزار .

و يبدأ الفرزدق هذه المرة فيرمى جريراً بأمه ، وقومَه بالذل ، و يفخر (بِهُنَيدة)[٤] و بأسرته و يعيد ذل جرير وقومه .

و يجيبه جرير بالسادسة والأربعين ناسباً وهاجياً كليباً وجريراً بصور قبيحة وموازناً بين رهطيهما ، وفاخراً بيوم (الكُلاب) .

فيرد عليه جرير ناسباً ، ذاكراً سيرورة هجائه ، مشيراً إلى البَعيث

---

(١) ص ٢٤٨ (٢) ص ٢٥٤

(٣) ص ٢٥٨ (٤) ص ٢٦٤

ملحقاً به الفرزدق ، مفتخراً بنفسه وقومه ، ذاكراً (الرِدافة)[١] ويوم (ذى نجب)[٢] لتميم على عامر وحيادَ قومه ويقول : —

أحسبتَ يومَك بالوقيط كيومنا يومَ الغَبيط بقَـلّةَ الأرْحالِ[٣]

والوَقيط لبكر على تميم ، والغَبيط لشَيبان على يربوع ، ويستمر هاجياً ذاكراً أعين ، والزبير ، وجِعْثن يصورها صورا قبيحة ، ولباسهما فى المربد[٤] والقيونَ ونساء مجاشع بشكل مُزْر ثم يُنحى على ضَبة بالهجاء .

ثم قال الفرزدق يهجو جريرا ويردّد ما قاله ويذكر يوم (جَدُود)[٥] لتميم على بكر ويستشهد بهوازن على عز مجاشع ويفخر بقومه ويهجو جريراً وقومه .

فأجابه جرير ، فهجا البعيثَ وأُمّهُ وأباه مع الفرزدق ومجاشع ونوّه بيوم (الصرائم)[٦] بين عبس ويربوع ، وشنع بنساء مجاشع وقال : —

سار القصائد واستبحْنَ مجاشعاً ما بينَ مِصرَ إلى جنُوب وَبارِ

وقرن نوار إلى جعْثن ، وهنا نجد البيت الذى سألنا عنه قبلا : —

لما بنى الخَطَفى رضيتُ بما بنَى وأبو الفرزدق نافخُ الأكيار[٧]

أليس هذا يرجح أن تكون هذه النقيضة قبل لاميّة الفرزدق التاسعة والثلاثين ؟

ونترك الميميتين فى مصرع قتيبة سنة ٩٦ هـ إلى أن نحللهما بالتفصيل ، وإن كان قد ورد فى أثنائهما حادث قتيبة[٨] ويوم (جبلة)[٩] وإجارة الفرزدق

---

(١) النقائض ص ٢٩٨ (٢) ص ٣٠٢ (٣) ص ٣٠٥ — ٣١٧ .
(٤) ص ٣٢٠ (٥) ص ٣٢٦ (٦) ص ٣٣٦ (٧) ص ٣٤٢
(٨) ص ٣٤٩ — ٣٧٠ (٩) ص ٣٧٩ .

بقبر أبيه[١] وضربة الرومى[٢] وقدوم الفرزدق على عمر بن عبد العزيز بالمدينة وإخراجه منها[٣] وحادث الأخطل وقومه مع الجحّاف فى حضرة عبد الملك[٤] وما أعقب ذلك من يوم (البِشر) ويوم (القُويرة)[٥] ويوم (جَبَلة)[٦] ويوم (الرّغام)[٧] ويوم (صَوْءَر)[٨] ويوم (القَرُوقَين)[٩] .

— ٦ —

ونُفْجَأ بالتحام الراعى وجرير واضطراب موقف الشاعرين تبعاً لذلك ، فالراعى قيسى يلتحم مع جرير شاعر قيس ، والفرزدق تميمى ينتصر للراعى القيسى ويتناقض الفحلان التميميان فى سبيل الشاعر القيسى[١٠] ونظفر من ذلك ببائية جرير المنصورة كما سماها وهى الثالثة والخمسون ، نسب فيها ، وهجا مجاشعاً ، وذكر قصة أبى البلاد الطُهَوى مع سَلمى بنت عمه[١١] وفخر بقومه وبأسهم ، وذكر الزبير ، والقيون ، وعوفا ، وجِعْثن ، وجبن مجاشع ، وأيام ذى نجب ، ورحرحان ، والوقيط ، وغيرها ، ثم عدا على الراعى وقومه فأجهز عليهم ، وفخر بتميم والإجازة[١٢] .

وقد أجابه الفرزدق مفتخراً فذكر يوم الكلاب الأول[١٣] ورهْنَ حاجب ابن زُرارة قوسَه كسرى عن العرب ووفاءه له[١٤] ويوم (فَيْف

---

(١) ص ٣٨٠ (٢) ص ٣٨٣ (٣) ص ٣٩٦
(٤) ص ٤٠١ (٥) ص ٤٠٥ (٦) ص ٤٠٧
(٧) ص ٤١٠ (٨) ص ٤١٤ (٩) ص ٤٢٠
(١٠) ص ٤٢٧ (١١) ص ٤٣٤ (١٢) ص ٤٥٠
(١٣) ص ٤٥٢ . (١٤) ص ٤٦٢ .

الريح)[١] لنُمير ويوم (إراب) لتغلب على رياح بن يربوع[٢] ثم يتعالى على جرير و بنى كليب .

ويهجو جرير الفرزدق وعبيد بن غاضرة العنبرى ويذكر (المروت) وحادث المتغور عبيد بن غاضرة هذا[٣] ويمدح الحجاج و يشير إلى بناء الكعبة[٤] وما دعاه إلى هجاء ابن غاضرة[٥] ويجيبه الفرزدق بهجاء فاحش .

وكانت النقيضة السابعة والخمسون مبدأ التحام جرير والأخطل[٦] ولا بد أن تكون مع زميلتيها سابقة فى الترتيب كما مرّ . وقد نسب جرير ، وفخر بالكرم ، ووازن بين قيس وتغلب ، وأنحى على تغلب بالهجاء ، وذكر ابن زفر والجحاف ، ونساء تغلب ، وسمات المسيحية[٧] ويومى البشر وسنجار[٨] . وأجابه الفرزدق هاجيا بنى كليب وشاعرهم جريراً .

ثم يتهاجيان فى سبيل بنى جعفر بن كلاب إذ يهاجمهم الفرزدق ويذكر الدُهيم[٩] وحديث ابن ضبا[١٠] . ويجيب جرير فيمدح بنى جعفر ويفخر بقيس ويهجو مجاشعاً وشاعرهم كما هو معروف .

وفى صدر الجزء الثانى من النقائض قصة التحام الفرزدق مع ابن أبى بكر ابن حزم بالمدينة ذلك الذى تحدى الفرزدق بشعر حسان بن ثابت وقبول الفرزدق هذا التحدى و إنشائه القائية الفخمة التى تضمنت نسيباً جميلا طويلا على غير

---

(١) ص ٤٦٩ (٢) ص ٤٧٣
(٣) ص ٤٨٤ (٤) ص ٤٨٦
(٥) ص ٤٨٧ (٦) ص ٤٩٤
(٧) ص ٥١٠ (٨) ص ٥٠٧
(٩) ص ٥٢٦ (١٠) ص ٥٣٢

عادة الفرزدق ، ومدحا فى عبد الملك ، وفخراً بكرم قومه وبأسهم ، وأنهم ملوك ذوو أحلام ، وأصحاب الكعبة وبيت المقدس ، وهجاء جرير وأمه . وكانت هذه النقيضة الحادية والستون فى إمرة أبان بن عثمان أيام عبد الملك بن مروان . فنهض جرير للرد عليه ، ونسب مطيلا ، وعير الفرزدق بيوم (صوءر) وذكر يومى ذى نَجَب[١] والإيار[٢] ونقض معانى خصمه ذاكر غدر مجاشع ، وصورة جعثن ، وزواج الفرزدق رُهَيمة بنت غنيم ابن درهم ومنافرتها له[٣].

وقال الفرزدق لجرير : —

سمونا لنجرانَ اليمانى وأهلِه ونجرانُ أرض لم تُدَيَّثْ مقاوله

مشيدا بذكر الأقرع بن حابس[٤] وجيشهِ ، هاجياً بنى كليب ، ذاكراً هدم داره[٥] وهربه من زياد ، وملاحاته معاوية ، ولقاءه الأسد ، وقصده المدينة ومكة حتى موت زياد ورثاء مسكين الدارمى له ورد الفرزدق عليه فى الشارح[٦] وهجاء كليب وجرير ؛ ويوم (صَوءر)[٧] ويستمر فى النقيضة على عادته . فأجابه جرير بنسيب طويل ، وفخر عريض ، وذكر يوم ذى نَجَب وذى قار[٨] ، ويهجو الفرزدق ويلتقيان بلباسيهما فى المربد[٩] ولعلها أبيات أضيفت إلى النقائض .

---

(١) ص ٥٨٧ (٢) ص ٥٨٠
(٣) ص النقائض ص ٤٩٤ (٤) ص ٦٠٠
(٥) ص ٦٠٧ (٦) ص ٦٠٨ـ٦٢١
(٧) ص٦٢٥ (٨) ص ٦٣٨
(٩) ص ٦٢٣ بيت ٥٩ و ٦٠ و ص ٦٥٠ بيت ٦٢ و ٦٣

وكذلك البيت الخامس والستون فى الصفحة الحادية والخمسين بعد الستمائة والبيت الثامن والثلاثون فى صفحة ٦٠٦ والبيت ٦٩ ص ٦٥١ .

بَنَى الخطفَى حتى رضينا بناءَه ... فهل أنت إن لم يُرضِكِ القينُ قاتله

بنينا بنـــاء لم تنالوا فروعَهُ ... وهدّم أعلى ما بنيتم أســـافله

ويذكر يوم (أُوارة الثانى)[١] ويوم (شِعبِ جَبلةَ)[٢] ويوم (أقرُن)[٣] ويوم (زُبالةَ)[٤] ويرمى ليلى بحبلها من جُبير ثم هدم داره[٥] .

ويقول جرير للفرزدق والبعيث مفتخراً وهاجياً كعادته ويذكر هذا البيت الذى عبث به عمرو بن لجأ : —

لقَومىَ أحمَى للحقيقةِ منكمُ ... وأضربُ للجبّار والنقعُ ساطِعُ

وأوثقُ عند المردَفَات عشيةً ... لحاقاً إذا ماجرّد السيفَ لامِعُ[٦]

ويجيبه الفرزدق فيذكر جده محيى الموءودات[٧] ويوم (إراب)[٨] ويسرق بيت جرير (ص٦٩٢ لجرير و ص ٧٠١ للفرزدق) .

ويهجو جرير الفرزدق وآل الزبرقان بن بدر البَهْدَليّين ويردعليه الفرزدق فيشيد بما وهب النعمان لقومه بُردَى ابنه مُحرِّق أخـذهما عامر بن أُحيمر بن بَهدلة بحجة أنه أعزُّ العرب قبيلة[٩] ووردا الزِبرقان بصدقات قومه أيام الردة[١٠] ويومَ (بُسْر)[١١] وقصته مع معاوية .

---

(١) ص ٦٥٢ (٢) ص ٦٥٤ ــ ٦٧٨ (٣) ص ٦٧٩ (٤) ص ٦٨٠
(٥) ص ٦٨٣ (٦) ص النقائض ص ٦٩٣ (٧) ص ٦٩٧ (٨) ص ٧٠٣
(٩) ص ٧١٣ (١٠) ص ٧١٥ (١١) ص ٧١٦

ويأتى الفرزدق فيهجو جريراً ويعرّض بالبعيث ملما بقصة مسعود[١] وهرب عبد الله ابن زياد ورهن عبد الله بن حكيم المجاشعى نفسه بوفاء الأحنف بن قيس، وقبول الرسول شفاعة الأقرع بن حابس[٢] وقصة خالد بن عبد الله الأموى[٣]. ويجيبه جرير فيذكر يوم بُسْيان)[٤] ورؤيا هبيرة بن ضَمْضَم المجاشعى[٥] ويستمران فيذكر جرير يوم (ذى طلوح)[٦] ومسألة النوار وزواجها والزواج عليها[٧] ويذكر الفرزدق حكاية العبد (يسار) الذى قُطع إحليلُه[٨] وتصادفنا أثناء النقائض بقيضة ذات بيت واحد[٩] وقصة الفرزدق مع (حدراء) والتجائه إلى الحجاج وقصة حميدة الحنظلية امرأة مَعبد السليطى مع حوط بن سفيان ورجمها[١٠] أيام الحجاج فى صورة شنيعة وجارية جرير التى فركته وبعض قطع لا نقائض لها ومناقضة بمناسبة وفاة خالد بنت سعد زوج جرير[١١] وحرب البسوس[١٢] وهجاء الفرزدق لجندل بن الراعى وذى الأهدام الجعفرى وذكر يوم (الشباك)[١٣] ويوم (هراميت)[١٤] وهجاء الفرزدق بنى نهشل فى معاقرة بينهم وبين جناب شَريك من آل صعصعة رهط الفرزدق وذكر قصة عمر بن عمران مع حَرِىّ ابن ضَمرة[١٥] وفخر جرير بأبناء إسماعيل وإسحاق[١٦] ويوم (الشيّطين)[١٧] لبكر وتميم و (ثيتل)[١٨] و (تياس)[١٩] حتى نصل إلى هلاك الأخطل والمناقضة فى ذلك[٢٠] وهنا تنتهى النقائض .

---

(١) ص ٧٢١ (٢) ص ٧٤٧ (٣) ص ٧٤٩ (٤) ص ٦٠
(٥) ص ٧٦٨ (٦) ص ٧٨١ (٧) ص ٨٠٣ (٨) النقائض ص ٨٦١
(٩) ص ٨١٩ (١٠) ص ٨٣١ (١١) ص ٨٤٧ و ٨٦٦ (١٢) ص ٩٠٥
(١٣) ص ٩٢٧ (١٤) ص ٩٢٧ (١٥) النقائض ص ٩٤٤ (١٦) ص ٩٩١
(١٧) ص ١٠٢٠ (١٨) ص ١٠٢٣ (١٩) ص ١٠٢٥ .
(٢٠) ص ١٠٤١ و ١٠٤٢ .

obeikandi.com

ويتبع ذلك إضافات من الناشر جمعها لصلتها بأشياء وردت فى نصوص النقائض ، وهذه الإضافات مثل الأكابر ، ونبتل ، وعبد أبى سواج ، ورَحرحان ، والنِسار ، وجِزع ظِلال ، والقَبيط ، وصَوْءر ، وفَروق قوّ ، والكُلاب الأول ، وذى نجب وأُوارة ، وإراب ، والجفرة ، ويَسار الكواعب ، وخزازى ، وجار عمرو بن عمران ، وغضوب ، وسعد ابن صبيح .

— ٧ —

وفى أثناء هذا العرض لاحظنا أن هذين الفحلين قد تناقضا غيرمرة فى سبيل غيرهما فالتحما حول الراعى وحول بنى جعفر بن كلاب وحول ابن أبى بكر بن حزم لما تحدى الفرزدق بشعر حسان بن ثابت وحول مُخَرِّق بن شريك وحول بنى نهشل وحول الأخطل وحول الأصَمّ بن باهلة ، وغالب هذه الحالات كان يعجز أحد هؤلاء فينهض جرير أو الفرزدق للرد عنه ، حتى رأينا الفحول الثلاثة يلتحمون معاً أول ما تدخل الأخطل بين زميليه ويتنج من ذلك نقائض ثلاثة أشرنا إليها كثيراً .

وقد لاحظنا أيضاً أن النقائض كانت تنتهز المناسبات لتظهر حتى كان موت زوج جرير فرصة للمناقضة ، وكذلك موت الأخطل ، وتدخل الراعى ، والتحدى بفخر حسان وغير ذلك مما يدل على تربص كلٍّ بصاحبه .

كذلك لاحظنا أن فى هذا الديوان قصائد لا نقائض لها ، من ذلك قصيدة القرزدق السابعة والثمانون وهى التى قالها لما أصابت جريراً حُمرة فتداوى بتزويج ابنته أم غيلان للأبلق التميمى[1] والقطعة الثامنة والثمانون لجرير فى تزويج الفرزدق

(١) النقائض ٨٤٠

عُصَيدة[١] وقد وردت فى ديوان جرير[٢] أنها قيلت فى ابن عم له خطب ابنته زينب فإذا صح ذلك خرجت من موضوعنا والقطعة التاسعة والثمانون لجرير لم أجد لها نقيضة فى ديوان الفرزدق ، والقصيدة الرابعة بعد المائة لجرير ليست لها نقيضة صريحة وإن وجدنا فى ديوان الفرزدق[٣] قصيدة من بحرها وقافيتها فى هجاء بعض بنى مازن وكانوا منعوا إبله الماء ولكن ليس فيها ذكر جرير . أما القطعة التاسعة بعد المائة لجرير فربما كانت نقيضتها قطعة من أبيات ثلاثة فى هجاء بنى كُليب وهذا فرض ليس غير : ـ

ألا إن اللئام بنى كُليب ... شِرار الناس مِن حضَر وبادى
قُبَيِّلةٌ تَقاعسُ فى المخازى ... على أطناب مُكرَبة العِمادِ
بأرباقِ الحمـــــير مقوِّدوها ... وما يدرون ما قَوْدُ الجيـــاد[٤]

وربما كانت هناك نقائض لهذه القطع فضاعت ، وربما لم تكن تبلغ الشاعر فى حينها ، وربما كان الشاعر يرد على جملة منها فى قصيدة واحدة ، وربما كان الردُّ عليها فى غير أوضاع المناقضة .

وهناك فى ديوان الفرزدق قصائد فى هجاء جرير وغيره لم نر لها نقائض عند جرير مع أن اتجاهاتها تحتم الرد عليها ، فهناك هجاء جرير[٥] والأصم الباهلى[٦] وجندل بن الراعى[٧] وقيس عيلان[٨] . وحكمها ، عندنا ، حكمُ سابقاتها . ويظهر أن شعر هؤلاء الفحول لم يُرْوَ لنا كاملا ، فذهبت هذه النقائض عنا إلى الآن .

هـذا وقد رأيت أن هناك معانى عامة ترامبا بها خلال المناقضة كالذل ، واللؤم والجبن ، هجاء ، وكالأيام ، والكرم ، والخِندِفية فخراً ، وأن جريراً ردد

(١) ص ٨٤٣ (٢) ص ٤١٦ (٣) ص ٣٥٣
(٤) ديوان الفرزدق ص ١٦٤ (٥) ص ٥٩ و٥٧٦ و ١١٠ وغير ذلك كثير .
(٦) ص ٣٤ و ٣٧ و ٧٢ . (٧) ص ٢٠٧ و ٦٢٤ و ٦٥٨
(٨) ص ٦٨ و ٤٠٧ و ٧٧٣ و ٨١٥ و ٨٢٠ وغير ذلك كثير .

كثيراً معانيَ : القَين ، وجِعْثِن ، والزُبير ، والزنا ، وضربة الرومى فى هجائه الفرزدق ، كما فخر بتقواه وأيام يربوع وقيس والردافة والاجازة ، وأن الفرزدق أكثر من ذكر ضعة جرير وفقره ، وافتخر بالجود والمعاقرة وإحياء الموءودات والاجارة بقبر أبيه ورجالات قومه ، على أن كلا منهما تناول حرمات صاحبه ورماه فى كرامته وعرضه وصور ذلك صورا قبيحة لم يعرفها الهجاء حتى فى الجاهلية الأولى .

ونشير هنا فى أعقاب هذا العرض إلى الفوائد القيمة التى نجنيها من شرح هذا الديوان ، وهى فوائد لغوية قيمة تنفعنا كثيراً فى فهم النصوص ، وأدبية بتفسير بعض العبارات والأبيات مما لا نجده فى غير هذا الشرح .

وهناك ذكر كثير من معارف العرب وسننهم الاجتماعية وشرح أمثالهم وعاداتهم ورد أثناء الشرح فى مواضع مناسبة ، وأهم من ذلك كله جانبان خطيران : أيام العرب ، والحوادث التاريخية ، ثم أقباس من سير الشعراء ، والعظماء ، والأمراء ، والقواد ، وشىء كثير جداً من ذلك لا نظفر به فى غير هذا الشرح لأبى عبيدة وقد أشرنا إلى معظمه فى الصفحات السابقة أثناء العرض فلا داعى لذكره هنا حيث يضيق به المقام ، على أن قراءته فى مواطنه ومناسباته أجدى على القارىء ، والباحث ، والناقد ، والمؤرخ جميعاً .

نعم كثيراً ما نجد شرح النصوص ناقصاً من النواحى اللغوية والأدبية كما وجدنا ترتيب النقائض مضطرباً ، وبعضها ضائعاً ، لذلك نرجو أن يفرغ غيرنا ، لتحقيق هذه النصوص ، وترتيبها ، وشرحها شرحاً لغوياً أدبياً كافياً ، وقرنها بعصرها وحوادثها التاريخية العامة والخاصة ، لتسهل قراءتها والاستفادة منها ، كما أرجو أن يتخذ الشرح مجال دراسة خاصة للأيام ، والأنساب ، والحوادث ، والشواهد اللغوية ، والشعراء المغمورين ، والأمثال العربية ، والتقاليد الاجتماعية ،

ففيه من كل ذلك قد صالح ، قيم ، مفيد . كما فيه جوانب تمثل شخصيات القبائل ، والشعراء ، والزعماء ، فى الجاهلية والإسلام .

ومن بين هذه النقائض جملة تعد مشهورة هامة لطولها ، أو قوتها الفنية أو لصلتها بحوادث خطيرة ، أو لغزارة معانيها أو لاعتزاز أصحابها . منها اللاميتان الأوليان[١] ، والميميتان فى قتل قتيبة ابن مسلم[٢] ، والبائيلان حول الواعى وقومه[٣] ، والفائيتان اللتان أثارهما ابن أبى بكر بن حزم[٤] ، واللاميتان الأخريان[٥] والرائيتان فى موت زوج جرير[٦] ، والنونيات الثلاث[٧] وغيرها .

وعلينا بعد أن عرضنا هـذا الديوان ، أن نقف عند بعض هذه النقائض بالتحليل ، وبيان طرق المناقضة ، وقيمتها الفنية ، وجوانبها المختلفة فذلك ، فى رأيى ، هو صميم الدراسة وأخطر نواحيها ، ولنبدأ بما قالا فى مقتل قتيبة بن مسلم الباهلى مع توخى الإيجاز الشديد .

— ٨ —

فى سنة ست وتسعين هجرية كان على عرش الأمويين بدمشق الوليد بن عبد الملك وكان فى آخر عمره أراد خلعَ أخيه سليمان من ولاية العهد وجعلَها لابنه

---

(١) النقائض ص ١٨٢ و ٢١١
(٢) ص ٣٤٢ ، ٣٩٤
(٣) ص ٤٣٢ ، ٤٥١
(٤) ص ٥٤٨ ، ٥٧٦
(٥) ص ٦٠٠ ، ٦١٩
(٦) ص ٨٤٧ ، ٨٦٦
(٧) ص ٨٨٠ ، ٨٨٨ ونقائض جرير والأخطل ص ١٩٧

عبد العزيز ودسّ فى ذلك إلى القواد والشعراء فحضه على ذلك جرير ، وبايعه على خلع سليمان الحجاجُ بن يوسف وقتيبة بن مسلم ، ولكن الوليد مات قبل أن يحكم هذا الأمر وقبله مات الحجاج وولِىَ الخلافةَ سليمانُ بن عبد الملك سنة ست وتسعين فخافه قتيبة بن مسلم .

وكان قتيبة ، على عهد الوليد والحجاج ، على رأس الجيوش الإسلامية بخراسان يغزو أطرافَها فأراد أن يستخلف عبدَ الله بن الأهتم فأتاه بَشير بن صفوان بن الأهتم يحذّره استخلافَ عبد الله لغدره وكفره فحمل قتيبة كلامَ بشير على حسد ابن عمه ، واستخلف عبد الله وغزا فَرْغانة أوسِجِستان ، فجعل عبد الله يشقّق الكتبَ فى قتيبة إلى الحجاج بعَوْراته ، ويحمله عليه ، ويطلب عمله ، فيطويها الحجاج فى كتبه إلى قتيبة ، فضاق هذا بذلك ، وشكا عبدَ الله إلى نفر من تميم فهرب عبدُ الله متنكراً ، وكتب قتيبة بذلك إلى الحجاج والوليد وأخذ شَيبة بن عبد الله وأخاه فقتلهما وقتل بشير بن صفوان وابناً له ونفراً من ذويهم ، فغضب لذلك وكيع ابن أبى سُود المرّى رئيسُ تميم بخرسان فعزله قتيبة عن رياسة تميم واستعمل مكانه ضِرارَ بنَ حِصنٍ الضبّىّ .

وتولى سليمان حينئذ فكتب إليه قتيبة يطلب إليه إقراره على عمله ، وذلك خشية يزيد ابن المهلب ، أن يحل مكانه فى خراسان ، ثم أراد حمل الناس على خلع سليمان فلم يجبه أحد ، فخطب فيهم عاتباً ، مهدداً ، ممتناً ، ولكن اليمانية أجمعت أمرها على قتل قتيبة فأتوا الحُضين ابن المنذر الذهلى من بكر بن ربيعة فأشار عليهم إسناد ذلك إلى وكيع بن أبى سُود فنهض وكيع بالأمر وتجمعت إليه تميم وقتلوا قتيبة سنة ست وتسعين وقُتل من بنى مسلم أحد عشر رجلا ، وبعث

وكيع بطاعته و برءوس بنى مسلم إلى سليمان بن عبد الملك ، ولم يكن الفرزدق برَح المدينة حتى جاءت وقعة وكيع .

ورُوى أن سليمان بن عبدالملك حج تلك السنةفبلغه بمكة إيقاع وكيع بقُتيبة، فخطب الناس بعرفات فذكر غدر بنى تميم ووثوبهم على سلطانهم و إسراعهم إلى الفتن وقال إنهم أصحاب فتن وأهل غدر وقلة شكر ، فقام الفرزدق وفتح رداءه فقال يا أمير المؤمنين : هذا ردائى رهن لك بوفاء تميم ، والذى بلغك كذب ، ووقعت طاعة وكيع من سليمان كل موقع ، وكانت قيس تزعم أن قتيبة لم يَخلَع ، واستعمل سليمان بن عبد الملك يزيد بن المهلب على حرب العراق وأمره ، إن أقامت قيس البينة على أن قتيبة لم يخلع فينزعْ يدا من طاعة ، أن يُقيدَ وكيعاً به، ولكنّ يزيدَ بنَ المهلّب كان يرى إهدارَ دمِ قتيبة فخلّى سبيل وكيع ، وسارت الأمور سيرها المطرد . فى هذا الحادث قال الفرزدق قصيدته : -

تَحِنُّ بزَوراءِ المدينـــة ناقتى حنينَ عَجولٍ تبتغى البوَّ رائِم

ونقضها عليه جرير بقصيدته : —

ألا حَيِّ رسمَ المنزلِ المتقادم وما حُلَّ مُذْ حَلَّت به أمُّ سالم

ولدراسة هاتين النقيضتين نتخذ قصيدة الفرزدق أصلا نطبق عليه قصيدة جرير إذ كان الفرزدق هو البادىء ، ونسير معفنون القصيدتين واحداً بعد الآخر موازنين وملاحظين ما يلابس عناصرها من أمور : —

(١) بدأ الفرزدق نسيبه حزيناً وقوراً فخلع على ناقته ما بنفسه من ألم ، وقسم نفسه بين وطنه الأول (كاظمة قريته هو وأسرته) و بين المدينة حيث يقيم حبيبه الذى لا يباليه ، وتمنى لو جمع له القدرُ بين هذين المكانين فى بقعة واحدة :

ويا ليتَ زوراءَ المدينةِ أصبحتْ بأحفارِ فَلْجٍ أو بسيفِ الكواظِمِ
ولم نامَ عَنِّى بالمدينـة لم يُبَلْ إلى اطِّلاعَ النفسِ دون الحيازم

ثم يغالب نفسه فيغلبها ويمنعها السـوء توقرا راجياً النجاة من عقاب الله مُضمِّناً هذه الآية الكريمة « لا يؤاخذُكم اللهُ باللَّغوِ فى أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقَّدتم الأيمان » .

ولستَ بمأخوذ بلغو تقوله إذا لم تعمَّد عاقداتِ العزائم

ثم رحل عن المدينة مع صحبه تاركاً أثيرة قلبه بها ، ثم شُغل بالرحلة إلى الخليفة سليمان بن عبد الملك بدمشق ، فالنسيب ذو طابع حزين جليل وقور ، وهذا غير ما عرف عن الفرزدق من جاهلية وفسوق ، ولعل هذا كله كان من وحى هذا الحادث الذى أنشأ هذه القصيدة والذى يعرض تميما لسخط الخليفة ، ولعله كذلك متأثر بهذه المدينة المقدسة التى بدأ منها رحلته كما بدأ منها قصيدته .

أما جرير فكان فى نسيبه طبعياً كما عرف عنه وكما هو دأب الشعراء المحافظين جميعاً ، فقد حيَّى ربع محبوبته الذى حمته الخيل ، وهى دائماً بخيلة ممتنعة يرى فيها شفاء نفسه وإن كان لا يظفر منه بشىء : —

بِنا كالجوَى مِمَّا يُخافُ وقد نرى شِفاءَ القلوبِ الصاديات الحوائِمِ

ثم يتشبث بهواه معرضا عن لوم حبيبه جامعاً بين معنيين لامرىء القيس وعلقمة :

أغرَّكِ مِنى أنما قادنى الهوَى إليكِ ، وما عهدٌ لكنَّ بدائم

ويلمَّ بعدة أماكن فيها ذكريات له فيخلع عليها هواه القديم فى أسلوب رقيق

جميل . فالنسيب هنا طبعى ، رقيق ، صادق ، عليه طابع الحرمان ، ولكنه حرمان ثائر ، لذلك كان جرير هنا أحسنَ توفيقاً من صاحبه الذى جاوز طبعه وخلط بين شوق وطنى وشوق إنسانى واصطنع الوقار اصطناعاً ، وكان جرير يستخدم النسيب فى وظيفته الأصلية فى الشعر ، وهى إعداد النفس للقول ، فانفرد بهذا القسم وانصرف به عن الفرزدق فلم يلتق معه إلى الآن ولم يشرك هذه الديباجة فى المناقضة ، وآية ذلك أنه أرجأ مناقشة ديباجة الفرزدق فى النسيب إلى الهجاء الذى انتقل إليه فُجاءةً دون تخلص كما فعل زميله الذى تخلص من نسيبه إلى مدح الخليفة و إن لم يكن تخلصاً رائعاً .

لذلك يحسن أن نستمر مع جرير قليلا لنرى كيف التقى مع الفرزدق وأخذ يناقش ديباجته .

لاحظ جرير أن الفرزدق يصطنع الوقار والتُّقَى فى مطلع قصيدته حيث يقول :

إذا جشَأَت نفسى أقولُ لها ارجعِى ... وراءكِ واستحيِى بياضَ اللهازم

فأسرع جرير وخلص من نسيبه وأخذ بتلابيب صاحبه ينكر عليه هذا الوقار المصطنع ويكذبه فيه :

لقد ولدتْ أمُّ الفرزدق فاجراً ... وجاءتْ بوَزْوَازٍ قصير القوائم

فهو فاجر طائش لا تَقِىٌّ ولا رَزين ، وهذا نقض إخبارى أو تكذيب المعنى الذى ادّعاه الفرزدق ، ثم يقول جرير :

وما كان جارٌ للفرزدق مُسلم ... ليأمنَ قرداً ليلُه غيرُ نائمِ

يُوَصِّل حبلَيه إذا جَنَّ ليلهُ ... ليرقى إلى جاراتِه بالسلالمِ

و إذا كان الفرزدق قد قال :

إذا جشأت نفسى أقول لها ارجعى وراءكِ واستحيى بياضَ اللهازمِ

فقد سخر جرير من لهازمه وكذّب به فيما تنهاه عنه فقال :

أتيتَ حُدودَ الله مذ أنت يافعٌ وشِبْتَ فما ينهاك شيبُ اللهازم

تتبَّعُ فى المـاخور كلَّ مُريبةٍ ولستَ بأهل المحصنَات الـكرائم

ولعل هذا البيت الأخير رُدَّ على قول الفرزدق فى رحلته على النوق :

نَوَاهِضَ يحملن الهمومَ التى جفَت بنا عن حَشايا المحصنات الـكرائم

و إذا علمنا أن الفرزدق اعترف على نفسه فى قصيدة أخرى بالزنا وانتهاك لحرمات[1] فقد سجل عليه جرير اعترافه هذا ونقض ما ادعاه من صلاح .

و إذا لاحظنا امتحان عمر بن عبد العزيز لهذين الشاعرين لما قدما عليه المدينة[2] وعرفنا نتيجة هذا الامتحان إن صحت القصة ، استطعنا أن نلحظ المقابلة بين قول الفرزدق فى مطلع قصيدته :

ولما أبوا إلاّ الرحيلَ وأعلقُوا عُرًى فى بُرَى مخشوشةٍ بالخزائم

وراحُوا بجثمانى وأمسك قلبَهُ حُشاشته بين المصَلى وواقِم

و بين قول جرير : —

رأيتك لا توفى بجـــار أجرتَهُ ولا مُسْتَعِفًّا عَنْ لئام المطاعمِ

هو الرجسُ يأهل المدينة فاحذروا مَداخلَ رِجْس بالخبيثاتِ عالمِ

لقد كان إخراجُ الفرزدق عنكم طَهوراً لما بينَ المصَلى وواقِم

تَدلّيتَ تزنى مِن ثمانينَ قامةً وقصرتَ عن باع العلى والمكارم

---

(١) النقائض ص٣٩٨ س ٣ . (٢) النقائض ص ٣٩٦ .

لما ادعى الفرزدق أن خروجه من المدينة إنما كان لدواعى الرحلة التى ترك لها قلبه وهواه أفسد عليه جرير معناه فجعل خروجه قهراً وطهوراً للمدينة من رجسه الذى يُقرُّ به على نفسه ، فالمناقضة منصبَّة على سبب الخروج ، فهو عند الفرزدق قصده دمشق وهو عند جرير فسقه وضرورة الخلاص منه ، فالأصل هو التوجيه و إن شئت فهو التكذيب . ولا شك أن جريراً قد ظفر بصاحبه هنا إذ احتج بسلوك الفرزدق ، وشهادته على نفسه ، واصطناعه أموراً ليس منها فى شىء ، وعرفان الناس كذبه فى دعواه .

(ب) و بعد ما انتهى الفرزدق من النسيب تخلص إلى مدح سليمان بن عبد الملك ، فأيقظ السفرَ و بشَّرهم بلقاء الخليفة الماجد الكريم على الرغم من شوقهم إلى المدينة و بكائهم لفراقها ، وكان الفرزدق ، فيما يدعى ، جاداً فى رحلته التى لقى فيها بعض المشاهد الطبعية والمشاق حتى انتهى إلى الخليفة :

لِيَبْلُغْنَ مِلءَ الأرضِ نوراً ورحمة وعَدلا وغيثَ المغبِرات القواتم

ثم يمدحه مع أسرته :

ورثتُمْ قناةَ الملك غيرَ كَلالَةٍ عن ابنَى مَنافٍ عبد شمس وهاشمِ
تَرى التاجَ معقوداً عليهِ كأنهمْ نُجومٌ حَوالى بَدرِ مُلكٍ تُقاقِمِ

وهذا المدح ، على طوله النسبى ، انفرد به الفرزدق ولم يعرض له جرير ولعل السبب فى ذلك أن الفرزدق يواجه الخليفة ، ويحرص على زعامة تميم ، وحسن صلتهم بدمشق ، ولا سيما أن القاتل تميمى والمقتول قائد بارع ، وأن تميما متهمة بالغدر ، ولها سابقة فى قيس بقتل عبد الله بن خازم السُلمى ، ثم فى هذا المدح استغلالٌ لعداوة قيس القديمة لأمية والتقليدية لتميم فيرمى القائدَ بخلع سليمان و ينسب إلى وكيع (أى إلى تميم) الوفاء للخلافة .

أما جرير الذى يخطب فى حبل قيس عيلان فلم يتجه إلى الخليفة مادحاً ، وهو من قبلُ صنيعة الحجاج القيسى ، ومشغول بحرج موقفه بين يربوع قومه — والقاتل منهم — و بين قيس حلفائه — والمقتول منهم — ولعل جريراً لاحظ أخيراً أن وكيعاً قتل قائداً ملحوظ المكانة وأنه هو مضطرب الصلة بسليمان لأنه كان قد حض الوليد على البيعة لابنه بولاية العهد دون سليمان مسايرا الحجاج وقتيبة فى ذلك كما مر .

ومهما يكن من شىء ، فقد انصرف جرير عن المدح ولم يشترك فيه مع صاحبه فلا وجه ، إذا ، للموازنة ، ولعل الفرزدق عدّ مدح الخليفة جاهاً له دون جرير ، وربما كان على حق ولا سيما أنه تعهد لسليمان بوفاء تميم فيما بعد إذ يقول :

فدًى لسيوف من تميم وفى بها ردائى ، وجلّت عن وجوه الأهاتم
هُمُ سمعوا يومَ المحصَّبِ من منًى ندائى إذا التفت رِفاق المواسم
هُمُ طلبوها بالسيوف و بالقنا وجُرْدٍ شَجٍ أفواهُها بالشكائم

(ج) وكان من الطبعى أن يهجو الفرزدق الحجاج — و إن كان قد مدحه حياً — لموقف الحجاج من ولاية العهد إذ كان على سليمان ، ولأن الحجاج قيسى ، وقيسٌ عدو تميم التقليدى ، وكان من الطبعى أن يمتنع جرير عن هجاء الحجاج لهذين السببين ، فجرير كان مع الوليد فى ولاية العهد ، وهو شاعر قيس وصنيعة الحجاج من عهد عبدالملك ، لذلك لم يجد وجهاً لمهاجمة الحجاج فانصرف عن ذلك وتركه لصاحبه . تناول الفرزدق طمع الحجاج ، وطغيانه ، حتى رماه الله بما رمى به أصحاب الفيل وخذله الله و بقى الأمر لسليمان :

نُصِرْتَ كنصر البيتِ إذ ساق فيلَه إليه عظيمُ المشركينَ الأعاجمِ
وما نُصِرَ الحجاجُ إلاّ بغيرِه على كلِّ يوم مستَحِرٍّ الملاحمِ

أما غدرُه فقد أخرسه وألزمه الندم حتى هلك . وهنا لا مجال للموازنة اذ لم تتوافر المناقضة ، وكان الفرزدق معتزاً بمهاجمة الحجاج ـ وان كان ميتاً ـ لأن فى ذلك صلاح شأنه وشأن تميم مع الخليفة .

(د) وكان مقتل قتيبة هو الباعث على هذه المناقضة ، فالواقعة أذهلت الناس لخطرها ، ولكن موقف تميم فيها سليم إذ كانت ثأرا لبنى الأهتم ، ووفاءً للخليفة ، واستجابة لعهد الفرزدق مع سليمان بوفاء تميم لما بسط له رداءه بذلك :

أتانى ورحلى بالمدينة وقعةٌ ... لآل تميم أقعدتْ كل قائم
كأنّ رءوسَ الناس إذ سمعوا بها ... مُدَمّغةٌ مِن هازمات أمائم
فِدًى لِسُيوف مِن تميم وفى بها ... ردائى وجلّت عن وجوه الأهاتِم
شفَينَ حَزازات النفوس ولم تدع ... علينا مَقالا فى وفاء للائم
أَبَأنا بهم قتلى وما فى دمائهمْ ... وفاءٌ ، وهُنّ الشافياتُ الحوائم
جزى اللهُ قومى إذ أرادَ خِفارتى ... قتيبةُ ،سَعىَ الأفضلينَ الأكارم

وهذا دأبنا مع الغادرين من قيس كعبد الله بن خازم السلمى الذى خرج على عبد الملك فقتلته تميم ، قتله وكيع بن عميرة القرَيعى ، وهو ابن الدوْرَقية :

وقبلَك عجّلنا ابنَ عَجْلى حِمامَه ... بأسيافِنا يَصْدَعْنَ هام الجماجِم

وعَجْلى أم عبد الله بن خازم وكانت حبشية فيما يقال .

ثم يذكر يوم (الحشّاك) لتغلب على قيس ، وشؤم قتيبة على قومه لما عصى الخليفة فى حين ثبتت تميم على طاعته وكانت رِدءا للخلافة تقتل من يخرج عليها :

فإن تقعدوا تقعدْ لئامٌ أذِلّةٌ ... وإن عدتمُ عُدنا ببيضٍ صوارم

ويعود إلى قيس وقتيبة الذى ذَلّ أمام تميم ولم ينجده قومه اللئام وهكذا ضربت تميم بسيف الخليفة فأصابت نصراً مُؤزّراً :

ضربنا بسيف فى يمينكَ لم ندعْ به دون باب الصين عَيناً لِظالم
به ضربَ الله الذين تحـــزّبوا ببدر على أعنـــاقهم والمعاصم

ور بما يؤخذ على الفرزدق هذا البيت الأخير لأن بنى أمية من الذين ضُربوا يوم (بدر) إذ كان أبو سـفيان بن أُمية زعيم قريش فيه ، إلا أن يكون البيت مثلا أو منصباً على البيت السفيانى خاصة ، وقد وقع جرير فى مثل ذلك حين ذكر يوم (الحشّاك) وهو لتغلب على قيس عيلان .

ونلاحظ هنا أن الفرزدق حريص على رمى قيس بالغدر ، من عبد الله بن خازم ، إلى الحجاج ، إلى قتيبة ، ولعله يريد بذلك أن يرميهم بهذه الصفة التى رميت بها تميم من الخليفة نفسه .

وأما جرير فلم يُطل فى هذه النقطة وكان كلامه مقتضباً و إن كان قوياً فلما رأى أن الفرزدق نسب مصرع قتيبة إلى تميم عامة ، وأنه وفى للخليفة بذلك ، وثأر لبنى الأهتم ، تناول المسألة من قرب وفى أفق ضيق فأخذ فضل ذلك ليربوع خاصة إذ كان القائل منهم فقال جرير :

فغيرُك أدّى للخليفة عهـدَه وغيرك جلّى عن وجوه الأهاتم

وهذا حق إلى حد ما ؛ فوكيع من رهط جرير و إن كان زعيم تميم فى خراسان، وبذلك يكون جرير قد زحزح الفرزدق عن زعامته العامة وأخذ منه هذه الدعوى إذ كان جرير بها أولى ، والفرزدق مُدّع ما ليس له ، ومحاولٌ إضافة مجد ير بوع إلى مجاشع فيجمع بين الجبن والفخر الـكاذب :

فإن وكيعاً حين خارت مجاشـع كفى شَعبَ صَدْع الفتنة المتفاقم
لقد كنتَ فيها يا فرزدقُ تابعاً وريشُ الذُنابى تابع للقـوادم
نُدَافِعُ عنكم كلَّ يومٍ عظيمةٍ وأنتَ قراحِيٌّ بسيفِ الـكواظم

أجُبناً وفخراً يا بَنى زَبد استِها ونحنُ نَشُبُّ الحربَ شِيبَ المقادم

فكان جرير بذلك موفقاً استطاع أن يحول بين خصمه و بين مجد هذا اليوم من جانبه الحماسى ، وفسَّر عمل وكيع بأنه وفاء يعود فضله إلى رهطه الأدنين وهم يربوع دون مجاشع ، وهذا هدم لدعوى الفرزدق فى زعامة تميم عامة حتى كان قتل عبد الله بن خازم بعيداً عن أثر مجاشع ، وتكون أبيات جرير فى هذا الحادث على قلتها ، أدخلَ فى أفق جرير الخاص و إن لم تجاوز أفق الفرزدق العام ، فخضعت المناقضة فيها إلى طريقة التوجيه إذ تناول كل من الشاعرين هذا الحادث من جهته .

ومع ذلك فلم ينس جرير قيس عيلان فاحتال محسناً، وذهب إلى باهلة رَهطِ قتيبة الأدنين يُعزِّيهم ، ويعللُ هذا الحادثَ بأنه ثأر ، فلا وجه للغضب :

أباهِلَ ماأحببتُ قتلَ ابن مُسلِمٍ ولا أن تَرُوعوا قومكم بالمظالِم
أباهِلَ قد أوفيتمُ من دمائكم إذا ما قتلتُمْ رهطَ قيس بن عاصم

والأهاتم من بنى منقر رهط قيس بن عاصم ، ولعله يرد بذلك على قول الفرزدق:

فإن تكُ قيس فى قتَيبة أُغضِبتْ فلا عطَست إلا بأجدعَ راغم
وما كان إلا باهِلياً مُجَدَّعاً طغى فسقَيناه بكأس ابن خازم

فالقتل عند الفرزدق للخلع والطغيان ولكنه عند جرير ثأر وانتقام والتاريخ فيه الروايتان معاً .

(هـ) وكان من الطبعى أن يفخر الفرزدق و يهجو، والفرزدق هنا يفخر بقوة تميم وحزمهم ودهائهم منذ طفولتهم ثم يفخر بضبة أخواله ، فهم مفخرة مُضَر الحماسية[1]

---

(١) أم الفرزدق لينة بنت قرظة من بنى السيد بن مالك بن بكر بن سعد بن ضبة — ص ١٨٨ نق

والناس بعد تميم وضبة حِشوة ، ولتميم على قيس أيام عظام الملاحم ، ماجدة الآثار ، ثم يرمى جريراً بتعلقه بقيس وأنه يرتشى منهم ، وليس من رءوس تميم : —

فما أنتَ مِن قيس فتنبحَ دونَها ولا مِن تميم فى الرءوسِ الأعاظِم
وإنك إذا تهجو تميما وترتشى تبابينَ قيس أو سحوقَ العمائم
كمهْريقِ ماء بالفلاةِ وغرَّهُ سَرابٌ أثارتْه رياح السمائم

وجرير وضيع الأب فقير يرعى الجِداء التوائم الهزيلة ، ومهما تعطه قيس فهى ذليلة أذلتها تغلب بما قتلت من رجالها وسبت مِن نسائها وانتهكت حرماتهن .

ويعود إلى تميم ودارم ، فتميم أمضى سيوفاً وأكثر عدداً وجرير ليس من تميم وإلا لما عاب على الفرزدق مدحَهم ، والفرزدقُ ابنها الصريح ووافدها فى المواسم ، ولسانها المدافع ، وآصلها أباً لا يبيع أعراض قومه برشوة قيس له ، ومن مظاهر مجد دارم أن حاجب بن زُرارة لما أسر يوم جَبلة افتدى بألف بعير لآسره ذى الرُقَيبة القُشَيرى ، وللزَهْدَمَيْنِ من عبس مائة ناقة بما نالا من ثيابه ، وأطلق له مائة من أسارى قيس كانوا فى تميم ، وإنما ديات الملوك ألف بعير فزادهم حاجب مائة ناقة ومائة أسير : —

وما علِمِ الأقوامُ مثلَ أسيرِنا أسيراً ولا أجدائِنا بالكواظم

وأما صاحب الجدث بكاظمة فهو غالب بن صعصعة والد الفرزدق ولا يعلم قبر أجار ولا قرَى فى جاهلية ولا إسلام غيرُه ، استجارت به امرأة فردّ عليها ابنها من بعث السند كان مع تميم بن زيد القينى ، وأصاب رجل من بنى الأبيض من مجاشع دماً فسأل الناسَ فلم يُعطوه شيئاً فاستغاث بقبر غالب فأفتكه الفرزدق بمائة ناقة : —

إذا عجزَ الأحياء أن يحملوا دماً أناخَ إلى أجدائِنا كلُّ غارِم
ترى كلَّ مظلوم إلينا فِرارُه ويهرب منا جُهدَه كل ظالِم

أبتْ عامر أن يأخذوا بأسيرِهم مئين من الأسرى لهم عند دارم
وقالوا لنـا : زيدوا عليهم فإنهم لقاء و إن كانوا ثمانَ اللهازم
رأوا حاجباً أغلى فِداء وقومَه أحقَّ بأيام العُلى والمكارم
فلا نقتل الأسرى ولكن نفكُّهم إذا أثقلَ الأعناقَ حملُ المغارم

ومن الطبعى، إذاً ،أن يفخر جرير بقيس، ومضر ، ويربوع ، وأن يَهْجُوَ دارما وضبةَ وتغلبَ ، فبعد أن اعتذر لباهلة رهطِ قتيبة بن مسلم كما قدمنا انصرف إلى الفرزدق فأنذره مغبة إثارته قيساً : ـ

تُحَضِّضُ يابنَ القينِ قيساً ليجعلوا لِقومكَ يوماً مثلَ يومِ الأراقِم

و يوم الأراقم هو يوم (الحشَّاك) لتغلب على قيس قتِل فيه عُمَير بن الحباب السُلَمى من رءوس قيس عيلان وذكره جرير فادّعاه لقيس فيما يظهر : ـ

إذا ركبَتْ قيسٌ خُيولا مُغيرةً على القَين يقرَعْ سِنَّ خزيانَ نادم

وفكرة الندم هذه قلب لما ادعى الفرزدق من ندم قتيبة وقومه حيث يقول : ـ

ندمتَ على العِصيانِ لمـا رأيتنا كأنا ذُرى الأطواد ذات المخارم
لقدشهِدَت قيس فما كان نصرُها قتيبةَ إلا عضَّها بالأباهم

فرد جرير الندم على الفرزدق ورهطه .

وكما ادّعى الفرزدق أن قتيبة كان شؤماً على قيس عيلان إذ يقول : ـــ

نبحتَ لقيسٍ نَبْحةً لم تَدَعْ لها أنوفاً ومرَّت طيرُها بالأشائم

فكذلك ادّعى جرير ، على سبيل الموازنة ، أن كلا من الفرزدق والأخطل كان شؤماً على قومه فالفرزدق يحضِّضُ قيساً ليُبيدوا قومه والأخطل أثار الجحَّافَ ابن حكيم السلمى فى حضرة عبد الملك فأوقع بتغلب يومَ(البشر) حتى شكا منه الأخطل إلى عبد الملك :

وقبلكَ ما أخرى الأخيطِلُ قومَهُ وأسلَمَهُمْ للمأزِقِ المتلاحم
رُويدَكم مَسحَ الصليبِ إذا دنا هِلالُ الجِزَى واستعجلوا بالدراهِمِ

وكانت شناعات يومى : الحشاك والبشر متشابهة والثانى لقيس على تغلب . وكما افتخر الفرزدق بضبة أخواله و بتميم عامة ، نجد جريرا يفخر بقيس عيلان أخواله[1] و يرتفع إلى خندف ـ إلياس بن مضر ـ فيضيفها إلى قيس عيلان و بذلك يجمع فرعى مضر و يرد نسبه إليهما ، معنى ذلك أنه يغرق تميما فى خندف ثم يقرنها بقيس لينتهى بنسبه إلى مضر بن نزار بن مَعَدّ بن عدنان . ثم لا ينسى رهطه الأدنين يربوعاً فيضعهم بازاء دارم أو مجاشع ، ليضيّق على الفرزدق الخناق ، وقد فعل ، فقيس أنجاد أمجاد : ـ

إذا حَدبت قيس علىّ وخِندِف أخذتُ بفضل الأكثرينَ الأكارِمِ
أنا ابنُ فروع المجد قيس وخِندفٍ بنَوا لِيَ عادِيّا رَفيعَ الدعائم

وذلك كما جمع الفرزدق بين ضبة وتميم وجعل غبة مفخرة مضر . وقيس كما قال جرير ، أصل الرسول منها العواتك من سُليم ، ومن العواتك آباء وأمهات هاشم وأمية . و إذا كان الفرزدق يعد نفسه ابنَ تميم ووافدها عند المواسم ومحامِيها فإن جريراً ، نظيرَ ذلك ، يقفُ من مضر كلها هـذا الموقف وهو جِدُّ كافيه لايقف دون غاية ولا يلين لغامز : ـ

لقد حَدبت قيس وأفناه خِندفٍ على مُرهَبٍ حامٍ ذِمارَ المحارِمِ
فما زادنى بُعد المدَى نقصَ مِرَّة ولا رقّ عظمى للضروس العَواجِمِ

ومذهب المناقضة هنا هو الموازنة أو التنظير .

---

(١) السفعاء بنت عنم الباهلية أم الاخوال من بنى يربوع وهم سلبط وعمرو صبير وثعلبة ـ راجع النقائض ص ٣٠٥ حـ ١ .

ولما رمى الفرزدقُ جريرا بالضعة والفقر ، وفخر بحسب أبيه وجاهه صارفاً النظر عن دارم ومجاشع ، عكسَ جرير الوضع فتركَ أباه ـ هنا ـ ووقف عند يربوع يُشيد :ـ

ترانى إذا ما الناسُ عَدُّوا قديمَهم ... وفضلَ المساعى مُسفِرا غيرَ واجمِ
بأيام قومى ، ما لِقومِكَ مثلُها ، ... بها سَهَّلوا عنى خَبارَ الجرَائمِ

وهكذا يتحاوران ، كل يتكىء حيث يجد مُتَّكأً ، ويخرج حيث يجد منفذا .

ويُعنى جرير بذكر أيام قيس كما يرد ذلك فى حينه . ونشير هنا إلى أن بيت جرير : —

وإنِّى وقيساً يابنَ قينِ مُجاشع ... كريمٌ أُصَفِّى مِدَحتِى للأكارمِ

نقض لقول الفرزدق : —

أدِرْسانَ قيس لا أبالك تشترى ... بأعراض قوم هم بُناةُ المكارمِ

فلا أُصَفِّيها لدارم أو ضبّة أو تغلب . على أن مدح جرير لقيس يقابله مدح الفرزدق لسعد بن زيد مناة من تميم كما يلى .

وهناك مسألة الفداء التى افتخر بها الفرزدق إذا افتكّ حاجب بن زُرارة نفسه يوم جبلة بما يربو على فدية الملوك ، فلم يتركها جرير تمر دون أن يرد عليها بطريقة التوجيه فقد فسرها جرير بأنها ذلة لدارم التى خضعت لتحكم ذِى الرُّقَيْبة فيها فقال : —

إذا عُدَّت الأيامُ أخزيتَ دارما ... وتُخريك يابنَ القين أيامُ دارمِ
ألم تُعطِ غَصْباً ذا الرُّقَيبَةِ حُكمَه ... ومُنيةَ قيسٍ فى نصيب الزهادمِ

(و) وهناك معنى طريف لهج به الشاعران هوضربة الرومى، وقصتها تقدمت آنفاً، وقد تناول الفرزدق هذا المعنى معتذراً عن نفسه بِنُبُوِّ سيف ورقاء بن زهير ابن جَذِيمة العبسى عن رأس خالد بن جعفر بن كلاب وواضعاً أمام جرير والديهما معاً فليست هذه الضربة برافعة أبَ جرير عن هوانه فى كليب ولا مُكسِبَتَه أباً من دارم :

فهل ضربةُ الرومى جاعلةٌ لكم ... أباً عن كُلَيب أو أباً مثلَ دارم

كذاك سيوفُ الهند تنبو ظُباتُها ... و يقطعن أحياناً مناط التمائم

أما الانتساء فعذر يتمثل به العاجز المعترف بالتقصير، وأما مسألة الآباء فهى وضع مفخرة أمام أخرى، و إذا نظرت فجرير يفخر بعمله والفرزدق بأبيه .

أما جرير فقد اتسع فى هذا المعنى وقرن به أموراً أخرى واستطاع أن يغيظ به خصمه ساخرا منه لأنه يُلقى عجزه وفضيحته على كاهل قيس و يترك الحق وهو أنه، كأسرته، لا يحسنون الضِراب فى المعامع بل يعمدون إلى عقر الحيوان مواءمة أو يحسنون صنع الفئوس إذ كانوا قيوناً :

أكلّفتَ قيساً أن تَباسيفغالب ... وشاعت له أحدوثة فى المواسم

بسيفِ أبى رغوانَ سيفِ مجاشع ... ضربتَ ولم تضرِبْ بسيف ابن ظالم[1]

ضربتَ به عند الإمام فأُرعِشَتْ ... يداك وقالوا : مُحدَث غيرُ صارم

ضربتَ به عُرقوبَ ناب بصوءَرٍ ... ولا تضربون البَيضَ تحت الغمائم[2]

عنيفٌ بهزّ السيفِ قينُ مجاشعٍ ... رَفيقٌ بأخرات الفئوسِ الكرازم

---

(١) أبو رغوان لقب مجاشع، وابن ظالم هو الحارث بن ظالم المرى من فتاك العرب قتله بخالد بن جعفر وهو نازل على النعمان بن المنذر بن ماء السماء — أصل لقب رغوان فى النقائض ص٧٨

(٢) صوءر مكان المعاقرة بين غالب أبى الفرزدق وسحيم بن وثيل الرياحى اليربوعى .

و بالوقوف أمام هذه الصورة الجدليـة نلاحظ أن الفرزدق لم ينكر الحادثة بل اعترف بها ، وأن جريرا ينكر على الفرزدق أن عبساً دست إليه سيفاً كليلا و يرى أن عذره لا وجه له ؛ وأن تمثله ورقاء بن زهير لا ينفعه ، فالمسألة مسألة الضارب لا مسألة السيف ، ومردُّ الأمر أن قوم الفرزدق لا أصالة لهم فى هذا الفن العملى الحمـاسى ، وأنهم يحسنون عقر النِيب بسيوفهم الكليلة كما يحسنون صنع الفؤوس الـكرازم .

و يظهر أن دس العبسيين سيفى جرير والفرزدق صحيحة فعبس قيسية يسرها انتصار جرير وهم أخوال سليمان بن عبد الملك ، ولـكن هذا السبب توارى حين شاعت الأحدوثة ، وحين أخذ الفرزدق يتمثل الأمثال و يتخذها من رجال عيس أنفسهم . وقد ألح جرير بهذا المعنى على الفرزدق وظفر به من ناحيته ، و إن كان للفرزدق عذر فهو عذر نظرى غالباً إذ لم يعرف للفرزدق سابقة حماسية .

(ز) و بعد ذلك تُواجهنا مسألة (الأيام) وقد تردَّد ذكرها أثنـاء الفخر والهجاء ، وكل ينوّه بأيام قومه وحلفائه . أما الفرزدق فذَكر يومى : ذى نَجَب ليربوع على عامر ، والوَتِدات لنَهْشَل من دارم على هِلال بن عامر ، ثم ذكر يومَ المرُّوت ليربوع على عامر ، ومُلزِق لسعد بن زيد مَناة على عامر ، والسُوبان لتميم على عبس وعامر ، وغَوْل لضَبّة على كِلاب ، والدُفَينة لبنى مازن على سُلَيم ، والحشَّاك لتغلب على قيس ومصرع قتيبة ليربوع على باهلة من قيس عيلان .

وقد لاحظنا أن الفرزدق لم يذكر لدارم أياماً ذاتَ خطر أو أياماً مستقلة بها فاضطر أن ينوّه بأيام تميم عامة ، وضبة أخواله ، وتغلب حلفائه ، أو يربوع خصومه ، يضعها أمامَ قيس عيلان كأنه ينفى جريراً عن تميم و يذيب يربوعاً فى

تميم التى يتزعمها الفرزدق ، لذلك كان سليم الموقف أمام قيس ، وإن لم يَغِظ جريراً من جانب يربوع ، فقد شغله من جانب قيس عيلان .

أما جرير فقد ذكر يوم سَفوان لعامر على النعمان بن المنذر ، ويوم القُوَير لعامر على شيبان من بكر ، ويوم جَبَلة الذى أسر فيه حاجب ولقيط ابنا زرارة ، وعمرو بن عمرو من دارم ، والجونان عمرو ومعاوية ابنا الجون الكندى ، ثم يوم الفَرُوقَين لعبس على سعد بن زيد مَناة وفيه لعنترة قصيدة مشهورة ، ويوم الوَقيط لبكر بن وائل على دارم وحنظلة ، ويوم رَحْرَحان لعامر على دارم وفيه أسر مَعبَدُ بن زُرارة وفداه لقيط أخوه .

ويُلاحظ أن جريراً ذكر أياماً على دارم ، ولم يذكر أياماً ليربوع مع أنه واجد فيها ما يكفيه فخرا ، ولعله لم يشأ أن يُعيد ما ذكره خصمُه منها ، فقد كان مشغولا بقيس أكثر من تميم ويربوع خضوعا لموقف المناقضة فأخذ يدافع عن قيس ويذكر أيامَها ردا على خصمه ، والحقُّ أن جريراً سدَّ ثغور قيس أمام الفرزدق خاصة ، فإذا واجه الأخطلَ اعتزَّ بتميم ، ويربوع ، وقيس ، ومضر ، والإسلام ودولته ، وكذلك عُنىَ الفرزدق بتميم عامة وبأخواله خاصة دون قومه الدارميين أو أكثر منهم ،فالشاعران حاولا التحليق فى جو أسمى ،وأفق أوسع ، ومردُّ ذلك السياسة والعصبية اللتان عنيتا بمواقف القبائل الكبرى من الدولة أولا وفيما بينها ثانيا .

(ح) وفى النقيضتين ملاحاة تدور حول معان شتى عن الفخر والهجاء متصلة بالأنساب والأحساب ، حقا أو ادعاء ، اشترك فيها كلا الشاعرين فلمّ بها هنا .

فالفرزدق يفخر على جرير بمجد قومه ، وأحلامهم ؛ ليس لهم كِفاء إلا بنى هاشم وعبد مناف ، وأنهم هُدَى الناس من جهالة لأنهم من مضر قوم الرسول : —

وما كان هذا الناسُ ،حتى هداهمُ بِنا اللهُ ، إلا مثـــلَ البهائم

وهذا الفخر لا يرد عليه جرير لأنه يساهم فيه وإنما أدخله فى الفخر بقيس إذ كان فخر الفرزدق أكثرُه على قيس عيلان .

وهناك هجاء الفرزدق قيساً وكليباً فيحلف بالله لَتنزِلَنَّ بقيس النوازل ، وأن هوازنَ من قيس أحقُّ بأن تلوم نفسها[1] وأما سليم فلا تستحق عقابى ، وكلتاهما من ذيول قيس ليستا من صميمها بل أذل فروعها ، وآية شقاء قيس كلها أن تحتمى منى بابن المراغة وتتعرض لسبِّى وهى عيوب كلها ، وأما قيس عامة فحسبها ما أنزلنا بقتيبة وما أنزلت تغلب بعمير بن الحباب .

لقد كان مجال الفرزدق عريضاً ما تزعَّم تميما ، ووقف بها أمام قيس ، ولكن ماذا يفعل جرير ؟

يمدح قيساً لما علمنا ، ولا يستطيع أن يهجو تميما كلها كما هجا الفرزدق قيساً كلها ، وإذاً ، فلا بد أن يتسلل إلى الفرزدق فيصل إلى مجاشع من دارم ، وهنا يلتقى بصاحبه مباشرة وقد فعل .

وهنا يتناول جرير الفرزدق بعدة معان مشهورة : جِعْثِن أخته ، والقُيون ، والغدر بالزُّبير بن العوام ، وقد بالغ جرير فى هذه المعانى وشنّع بها ، واعتمد

---

(١) راجع مدح الفرزدق هوازن فى النقائض ص ٤٦٨ .

على خياله فى توسيعها ، وإضافة عناصر أخرى ليست ، فى الأغلب ، من التاريخ فى شىء . ولنتناولها هنا مسألة مسألة لنرى كيف صوّرها جرير ، وهى مع مسألة السيف مشهورة فى كتب النقد الأدبى يحصونها كل ما اعتمد عليه جرير فى الهجاء .

٢ ١ — مسألة (جِعْثِن) أخت الفرزدق تقوم على قصة[١] خلاصتها أن غالباً جاور طَلْبَة بنَ قيسِ بنِ عاصم بالسِيدان ، فكانت ظَمياء بنتُ طَلْبة تحدّثُ إلى جِعثن فاشتهى الفرزدق حديثها وشُغلت أختُه ليلة فأخذ الفرزدق الجُلجُل الذى كانت جِعْثِن تصفّق به لظَمياء لتجىء ، وغفّل نفسَه لها ثم حرّك الجُلجُل فجاءت ظَمياء للعادة فارتابت بالفرزدق وهتفتْ وعادت إلى رحلها ، فلما سُمع بأمرها تجمّع فتيان من مُقاعس من سعد بن زيد مناة من تميم فاستخرجوا جِعثن من خِبائها ثم سحبوها ليُسَمِّعوا بها ولم يكن أكثرُ من ذلك . وكانت جعثن امرأة عفيفة مسلمة صالحة[٢] .

ولكن جريراً بالغ فى هذا الحادث واعتمد على خياله فى خلق صور قبيحة شنيعة أشاعها فى نقائضه وآذى بها الفرزدق وأسرته :

أتمدح يابنَ القَين سعداً وقد جرى ... لجعثنَ فيهم طيرُها بالأشائم
وتمدحُ يابنَ القين سعداً وقد ترى ... أديمَكَ منها واهياً غيرَ سالِم
تُبرِّئهم من عُقرِ جِعثنَ بعد ما ... .

---

(١) النقائض ص ٢٢٢

(٢) ممن اسهم جرير بجعثن عمران بن مرة المنقرى ص ٦٨٢ نق ، وصحار بن زيد بن سنان المنقرى ص ٨٥٥ نق

فإن مجـــرّ جعثنَ ابنةِ غالب وكيرَ جُبَيرٍ كان ضربة لازم

وماذا يقول الفرزدق فى هذا ؟ لم يقل شيئا ، ولكنه تناول أسرة جرير بنحو هذا فى غير هذا المقام ، ولما كان الفرزدق بادئاً ويخاطب الخليفة لم يعرض لهذه المعانى .

٢ ـ وأما مسألة القيون التى ألصقها جرير بمجاشع فذلك نسبةٌ لعبد كان لصَعصَعة بن ناجية بن عقال يدعى (جُبَيرا) فنسب جرير غالباً أبا الفرزدق إلى القين وشهّر به فى ذلك فقال : ـ

تُلاقى بناتِ القين من خُبث مائه ومن وهَجانِ الكيرِ سُودَ المعاصم

وإنك يابنَ القين لست بنافخ بكيرك إلا قاعدا غـــير قائم

وهكذا يدعوه (ابنَ القين) فى عدة أبيات ، فإذا انتهينا إلى آخر القصيدة وجدنا جريراً يقول فى تمام هذا المعنى : ـ

قفَيرةُ من قِنّ لِسَلْمى بن جَندلٍ أبوكَ ابنُها بينَ الإماء الخوادم

أما جَندل فهو المجبِّرُ بن نهشل بن دارم[1] وقفيرة أم صَعْصَعة بن ناجية بن عِقال وأمها المِذَبَّة وليدةُ كسرى وهبها لزُرارة بن عُدُس بن دارم فوهبها زُرارَةُ لابنة أخيه يَثْرِبيّ ابن عُدُس وزوجها مرثد بن الحارث ، فساعاها أخوه سكين بن الحارث ، فجاءت بقفَيرة جميلة فتزوّجها ناجية بنُ عِقال على أنها من عبد الله بن دارم ، فنعاها جريرٌ على الفرزدق كما رأيت[2] .

وهكذا نجد جريراً ينتهز فرصة تخرُّج الفرزدق عن ذكر السَوْءات ويرميه فى نسبه من ناحية جدته الكبرى وأبيه القريب وذلك لأن جريراً كان يهجو وهو حر بعيد عن ساحة الخليفة ومواجهته .

---

(١) النقائض ص ٤٦٢ . (٢) نفس المرجع ص٢١٩ .

٣ — أما مسألة الغدر بالزُبير بن العوّام[1] فأصلها أن الزبير بن العوّام لما انصرف عن موقعة الجمل يُريد المدينة ، جاء رجل إلى الأحنف بن قيس زعيم تميم فقال : هذا الزبير ابن العوّام قد مرّ آنفاً ، فقال : ما أصنع به ؟! جمع بين فئتين من المسلمين فقتل بعضهم بعضاً ثم لحق بقومه ، فاستجار الزُّبير النَعِرَ بن الزَمَّام المجاشعى فنهض عمرو بن جُرْمُوز وفَضالة بن حابس ونُفَيع بن كعب السعديون فاتبعوا الزبير فلحقوه بوادى السباع بين مكة إلى البصرة فكرَّ عليهم الزبير حين رآهم فانهزموا ولحق الزبيرُ ابنَ جُرموز فقال له : أنشدك الله يا أبا عبد الله ، فكف عنه ورجع الزبير ، فانصرف فَضالة ونفيع ولزمه ابن جرموز فسايره فى ليلة مقمرة حتى أغفى الزبير فطعنه ابن جرموز فأذراه عن فرسه وأخذ سلَبه وذهب به إلى عليٍّ بن أبى طالب فغضب عليٌّ للزبير لسوابق هذا و بلائه فى خدمة الإسلام .

والزبير بن العوام قُرشى من بنى أسد بن عبد العزَّى من قُصى بن كلاب ، وأمه صَفية بنت عبد المطلب بن هاشم ، وإذاً فقُريش تغضب لابنها على من غدر به من مجاشع ، وهنا يقف جرير مع قريش ويرمى مجاشعاً بالغدر ويبلغ فى هذا المعنى ماشاء مبالغة وتشهيراً حتى يسكت الفرزدق فلا يحير جواباً ، وقد ردَّد جرير هذا المعنى فى نقائضه وجعله سِمة لمجاشع يغمز بها خصمه ، وفى هذه القصيدة يذكر هذا المعنى غير مرة ويصله بقريش أصحاب الملك والدين : —

رأيتُكَ لا تُوفِى بجارٍ أجَرْتَهُ ولا مُستَعِفًّا عن لِئام المطاعمِ
فما وجدَ الجيرانُ حبلَ مجاشع وفِيًّا ولا ذا مِرَّةٍ فى العزائم
ولامتْ قُريشٌ فى الزبير مُجاشِعا ولم يعذِروا مَن كان أهلَ الملاوِم

---

(١) النقائض ص ٨٠

وقالتْ قريش : ليتَ جارَ مُجاشِع دعا شَـبثاً أو كان جارَ ابن خازمِ (١)
ولو حبلَ تيميٍّ تناول جارُكم لما كان عاراً ذكرهُ فى المواسم (٢)
إذا نزلوا نجداً سمعتُم مَلامـــة بِجمَع من الأعياص أو آل هاشم (٣)
أحاديث رُكبان المحجّة كلما تأوّهنَ خوصاً داميات المناسم

والواقع أن جريراً جلّى فى هذا المعنى ، وأحسن استغلاله حتى أخزى به مجاشـــعاً وأرضى قريشاً واكتسب عطفهم فكانوا يلتفون حوله أينما وجدوه وينصرفون عن الفرزدق لهـذا السبب ولغيره لأن قيساً كانت زبيرية من قديم وكان ابن الزبير يدعو ، فيما يقال ، إلى حكومة قرشية .

(ط) بقى الجانب الفنى للشاعرين وسنفرد له فصلا خاصا يتناول فن النقائض كله ، وإنمـا نقف هنا عند ما يتصل بهاتين النقيضتين ، فالمعروف أن الفرزدق من أسرة كريمة حسيبة غنية شديدة البأس تنفر من النظام فنشأ جاهلياً شكساً حديد اللسان ألدّ الخصام ، رصين الأسـلوب ، وأن جريراً من أسرة فقيرة وإن كانت تميم الـكبرى كثيرة العدد ، شديدة السلطان ، ثبت للفرزدق فى الهجاء وأسكت سائر الشعراء ، ومع ذلك فقد كانا فحلى تميم ولم يكن الأخطل من طرازهما .

ويمكن أن نذكر للفرزدق فى نقيضته هذه بعض الخصائص :—

(١) كثرة الفنون التى أطالت القصيدة حتى بلغت مائة وخمسة وخمسين

---

(١) شبث بن ربعى بن رياح بن يربوع ، وابن خازم هو عبد الله بن خازم السلمى صاحب خراسان .

(٢) تيم الرباب بن عبد مناة بن أدبن طابخة من مضر — راجع فهرس النقائض .

(٣) الأعياص من أمية الأكبر وهم العاص وأبو العاص والعيص وأبو العيص .

بيتاً — فى حين أن قصيدة جرير أربعة وثمانون بيتاً — تناول فيها النسيب ، والمدح ، والهجاء ، والفخر كما فصلنا ، بخلاف جرير فلم يجد وجهاً للمدح ولا للمبالغة فى ذكر قتيبة ولا إطراء الحجاج فالأول ثائر والثانى مالأ الوليد على سليمان ، ثم أكثر الفرزدق من ذكر الأيام ووصف الطبيعة والرحلة وذلك لم يشغل بال جرير .

(٢) فخامة الأسلوب ، وقوة الأسر ، لغلبة الفخر عليه ، ولطبع الفرزدق الغليظ فكان لموضوعه وشخصيته أثر فى ذلك ، وكان جرير أرق طبعاً ، وأشد سفهاً ، فكان هجاؤه ألذع وأسلوبه أسلس و بخاصة فى النسيب والسباب ، تحس فى أسلوب الفرزدق ضخامة حتى فى النسيب .

(٣) وقد رأينا فى عبارات الفرزدق خروجاً على مألوف النحاة فتورط فى الخطأ والتعقيد وتتابع الإضافات والكلمات بنسق غير مألوف[1] حتى عدت له أبيات شاذة غريبة ولعله إمام المتنبى فى هذا الباب .

(٤) لم يتورط الفرزدق فى البذاء كما فعل جرير ، ومردّ ذلك أن الفرزدق غلب عليه الفخر الذى يستمده من جانبه وأن جريراً غلب عليه الهجاء والسباب الذى يستمده من خصومه ، مع دقة حسه ، وكثرة أعدائه فكان سفيهاً سباباً .

وتبعاً لذلك نذكر لجرير خصائص قصيدته الآتية : —

(١) قلة فنونه ، وقد نوهنا بذلك من قبل وعللناه ، و بذلك قصرت قصيدته وكانت دون قصيدة الفرزدق بكثير فى العدد و يتصل بذلك إيجازه ووقوفه عند رءوس المسائل .

---

(١) راجع الأبيات ٧ ، ٩ ، ١٤ ، ١٠٢ .

(٢) رقة الأسلوب وسلامته ومرد ذلك طبع جرير ، وشدة تأثره بالإسلام، وقد ظهر ذلك فى باب النسيب والهجاء حتى اكتسب شعره سَيْرورة وشيوعا .

(٣) وواضح أن جريراً يمتاز بالنسيب خاصة اعتماداً على طبعه الإنسانى فقد سلك فيه مسلكين : مسلك مستقل إعدادى ، ومسلك نقض به على صاحبه نسيبه الجليل المصطنع .

(٤) وبراعه الهجاء عند جرير تقابل قوة الفخر عند الفرزدق وقد رأيت جريراً يتشبث بعدة معان رئيسية معروفة .

(٥) قوة الحجة وقد اعتمد فى ذلك على حقائق تاريخية ، وأخيلة ابتكارية مبالغة وكذبا . . وإن قبل الشعر كل ذلك .

(ى) وخلاصة الدراسة يمكن إيجازها فى النقط الآتية :

١ — أما النسيب فكان جرير فيه أخلصَ طبعاً ، وأصدقَ لهجة ، وأقربَ إلى الصواب ، وأرقَّ أسلوباً ، بعكس ما اصطنع الفرزدق من وقار وجلال ، فجرير هو المبرّز فى هذا الباب .

٢ — وهناك فنان انفرد بهما الفرزدق هما مدح الخليفة ، وهجاء الحجاج ، فلا وجه للموازنة وإدخالهما فى التقدير الفنى إلا إذا لاحظنا أن الفرزدق كان فيهما لبقاً لمراعاته مقتضى الحال متأثراً بوحى موقفه .

٣ — وأما ما دار حول قتيبة ومصرعه فقد امتاز الفرزدق بسعة أفقه وتسديد موقفه فى السياسة العامة المتصلة بالخلافة وبموقف قومه ، كما امتاز جرير بأخذ مجد هذا الحادث لرهطه الأدنين ، وبحسن اعتذاره لباهلة ، وهنا يستويان .

٤ — وكذلك يتساويان فى الفخر لأن نزعة الفرزدق إلى زعامة تميم ،

والاعتزاز بأيامها ، و بضبة وسعد ، يوازى ما لقيس من أيام وما ليربوع معها ، فحسن حيلة الفرزدق تقابل صدق جرير مع حرج موقفه .

٥ — بقيت معانى الهجاء التى تفرَّد بها جرير وهو فيها موفق من غير شك .

فإذا راعينا مقتضى الحال سوينا بين الشاعرين و إذا نظرنا إلى النقيضتين نظرة مستقلة وجدنا الفرزدق أطول نفساً ، وأعلى فخراً ، وأسلم موقفاً ، وأكثر فنوناً .

— ٩ —

و بهذه الطريقة يمكن دراسة النقائض كلها مع مراعاة خواص كل نقيضة وما يلابسها من مؤثرات ، ولنمثل لذلك بالإجمال ، وعلى الباحث أن يستمر فى درسه لعله واجد فى ذلك مشقة لذيذة ومجالا للمرانة العقلية والشعورية والذوقية جميعاً .

فإذا كان الفرزدق قد بدأ فيما درسنا واستطاع أن يملك ناصية الموضوع ، ويحيط بأطرافه ، ويأخذ على جرير منافذ الطرق ، فإن جريراً لما بدأ بالبائية فى هجاء الراعى استطاع أن يملك ناصية الموضوع و يحتل المكانة الأولى فيه فلما أتى الفرزدق لم يستطع معه شيئاً ، فقد نسب جرير وأطال نسيبه ، وهجا الفرزدق وقومه هجاء مراً قبيحاً ، وفخر عليه بمآثر قومه ، ثم التفت إلى الراعى فأطال فيه وفى بنى نمير الهجاء حتى أجهز عليهم وأسكت شاعرهم وصيرهم مثل السوء ، وعاد آخر قصيدته فملأ الدنيا فخراً ، وكان عالى الصوت مسيطراً على موضوعه بالغاً فيه الغاية حتى بلغت قصيدته مائة واثنى عشر بيتاً .

وأتى الفرزدق فافتخر وهجا ووقف مع بنى نمير ولكن لم يستطع أن يبلغ مبلغ جرير وكانت قصيدته سبعين بيتاً .

كذلك بدأ الفرزدق باللامية الأولى ورد عليه جرير ور بما تكافآ فى هذا

الموقف . وكان الفرزدق موفقاً فى الفائية واللامية الثانية ، كما كان جرير موفقاً فى الرائية التى رثى بها زوجه ، ولولا خوف الإملال لعرضت عليك عيون النقائض فى درس عريض .

— ١٠ —

والآن أترك نقائض جرير والفرزدق وفى نفسى منها أشياء إذ لم أقل فيها شيئاً ، ولن تستطيع الدراسة أن تظفر منها بشىء أو تعرض ذخائرها القيمة النفيسة فمن شاء إدراك خطرها فعليه الاتصال بها مباشرة والعكوف على دراستها فى صبر واحتمال .

أتركها وهى فى حاجة سريعة إلى جهود جبارة لترتيبها وشرحها شرحاً لغوياً وأدبياً وتاريخياً واجتماعياً واستغلال شروحها لدراسات شتى سياسية ، وأدبية ، وقصصية ، وتاريخية ، وكل ما أرجوه من هذا الفصل أن يكون دليلا موجزاً على ما فى هذا الديوان الكبير الذى يعد من ذخائر الأدب العربى القديم .

الفصل السابع

نقائض جرير والأخطل

— ١ —

وهذا ديوان آخر للنقائض صغير ، نشره لأول مرة عن نسخة الآستانة الوحيدة الأب أنطون صالحانى اليسوعى ، وطبعه فى بيروت بالمطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة وألف ميلادية ، واستعان على ذلك بعدة مراجع ذكرها بعد المقدمة الفرنسية المؤرخة أول مارس سنة ١٩٢١ م.

وعنوان هذا الكتاب « نقائض جرير والأخطل تأليف الإمام الشاعر الأديب الماهر أبى تمام » . وآخره « تم كتاب نقائض الأخطل وجرير ، الحمد لله كما هو أهله ، وصلى الله على محمد وآله وسلم » .

يحتوى هذا الديوان على : —

١ — مقدمة فى حرب قيس وتغلب وما اتصل بها من شعر بين شعراء اليمن وقيس وتغلب نفصله فيما بعد .

٢ — ثم نقائض جرير والأخطل وعددها عشرون نقيضة نعرضها عليك فى هذا الفصل ، ومعها نقيضة للفرزدق .

٣ — ثم إضافات للناشر عن بعض أيام قيس وتغلب هى : الكُحيل ، وذو بَهدا ، والعِداب ، والرَحوب ، وما كَسين ، والعُظالى .

والفهارس لأسماء الرجال ، والقبائل ، والأماكن ، والقوافى ، والمراجع .

٤ — وفى صدر الكتاب الأيسر هذه المقدمة الفرنسية التى أشرنا اليها .

وعدد صفحاته بما فيها الفهارس خمسون ومائتان .

والأصل الذى نشر هذا الديوان على أساسه ينقصه بعض الأوراق ، فضلا عن فساد بعضها ، وكان أثر ذلك نقص فى قصيدة الأخطل : —

ألا يا اسلمى يا هندُ هندَ بنى بدرِ وإن كان حيَّانا عِدًى آخر الدهرِ

واضطراب فى ترتيبها .

كذلك غاب عنا ، بضياع هذه الأوراق ، معرفة السبب الذى من أجله أورد أبو تمام فى هذا الديوان شعراً للسفاح التغلبى ، والمرقش الأكبر ، والزبّان الشيبانى ، وعمرو بن لأى التميمى ، ولعل ذلك لصلة هذ الشعر بحوادث تتصل بسير النقائض وتاريخها نستطيع معرفته فيما بعد .

— ٢ —

أما ترتيب هذه النقائض فمضطرب أيضاً كما يتراءى لنا خلال الدرس ، ومن شواهد ذلك الواضحة أنه فى الصفحة السابعة والتسعين بعد المائة نجد هذه الكلمة (تمت) ثم يورد قصة التحام الأخطل وجرير لما فضل عليه الفرزدق فى حضرة بشر بن مروان ، فهجا جرير الأخطل والفرزدق ومن معهما ، وذلك معروف بأنه بدء هذه النقائض .

بدأ الكتاب بحديث الشارح عن قيس وتغلب وموقفهما من بنى أمية وغيرهم بعد موت مُعاوية بن أبى سفيان ، وما كان من انتصار بنى كلب ليزيد بن

معاوية إذ هُم أخواله ، فأمُّه مَيْسون بنت مالك بن بَحْدل ، وأخوها حسَّان بن مالك بن بحدل الذى قيل إنه ادعى الخلافة بعد موت معاوية أياماً ثم تركها . فلما أبى هذا الحيُّ من قيس بيعة يزيد وقعت الحرب بين أمية وقيس فهلك يزيد بن معاوية فى ربيع الأول سنة أربع وستين ، واستخلف ابنه معاويةَ بن يزيد ، وأمُّهُ من بنى حارثة بن جناب من كلب اليمنية أيضاً ، وكانت خلافته أربعين يوماً وكان يُكَنَّى أبا ليلى وله يقول على بن الغَدير الغَنَوى القيسى هذه القصيدة : —

تعزَّوا يا بنى حَربٍ بِصَبرٍ ... فَمن هذا الذى يرجوا الخلودا
لقد وارَى قَليبُكمُ ثباتا ... وحِلماً لا كِفاء له وجودا
خلافةَ ربكم كونوا عليها ... إذا غُمِزَتْ عَنابِسةً أسودا
تَلقفها يَزيدٌ عن أبيه ... فدُونَكهَا مُعاوىَ عن يزيدا[1]

وكان هذا الشاعر قد حضّ يزيد على المبايعة لابنه معاوية بقصيدة أخرى : —

يزيدُ يابن أبى سفيانَ هل لكمُ ... إلى سَناء ومجدٍ غير مُنْصَرِمِ
إنَّ الخلافة إن تَثْبُت لِثالثكم ... تثبت أواخيُها فيكم فلا ترِمِ
فما لِمَنْ سَالكَ الشُورى مُشاوَرةٌ ... إلا بطعْنٍ وضربٍ صَايب خدِمِ[2]

فنهض يزيد فبايع لمعاوية ، فلما أدركت معاوية الوفاة قيل له : أوص واستخلف ، قال : والله ماذقت حلاوتها فأصْلى بمرارتها ، إن يك خيراً فقد استكثرمنه آل أبى سفيان ، وإن يك غير ذلك فوالله ما أحب أن أزودهم الدنيا وأذهب بِوِزْرِها

(١) نقائض جرير والأخطل ص ١ — ٣ . (٢) المرجع السابق ص ٣ — ٥ .

إلى الآخرة ولـكن ليُصَلِّ بكم حسانُ بن مالك بن بحدل أربعين ليلة وتشاوروا فى أمركم وأستودعكم الله ، ثم مات وحسانُ بن مالك على الجُنـدَين : فِلَسطين والأرْدُنّ ، والضحَّاك بن قيس الفهرى على دمشق ، والنُعمان بن بَشير على حِمْص ، وسعيد بن مالك بن يزيد الكلبى على قِنَّسرين ، وعبيد الله بن زياد على العراق ، فوثب كل جند على عاملهم[1] فوثب زفر بن الحارث على سعيد بن مالك فأخرجه من قنَّسرين ودعا إلى طاعة ابن الزبير ، وبايع النعمانُ بن بشير بحمص لابن الزبير وخلع بنى أمية ، واستخلف حسانُ بن مالك بن بحدل رَوحَ بن زِنْباع على فلسطين ولحق بالأردُن ، ووثب نائِل بن قيس الجُـذَامى فيمن تبعه من جُـذام ولَخم يدعو إلى ابن الزُبير وأخرجَ رَوحَ بن زنباع من فلسطين وبقى الضحاك بن قيس بدمشق عاملا عليها يقدم رجلا ويؤخر أخرى يظهر طاعة بنى أمية والشكر لمعاوية ، ويدسُّ إلى هذا الحى من قيس أن ابن الزبير أولى بالأمر ، ثم همّ أن يُبَايع لابن الزبير ، وهمّ مروان بن الحـكم أن يكون رسـول الضحاك بالبيعة إلى ابن الزبير ، ولـكن عمرو بن سعيد بن العاص وابنه عبد الملك دفعاه عن ذلك ونصحاه أن يدعو لنفسه ، فجدَّ مروان فى ذلك ، وكان حسان بن مالك ابن بحدل يطمع فى الخلافة ، ولـكنه أسلمها إلى بنى أمية فلامه قومه من كلب فى ذلك ، كذلك وثب أهل العراق بعُبَيْد الله بن زياد فهربَ من البصرة إلى الشام ، وسجل عليه الشعراء ذلك[2].

وأما ابنُ الزبير فقد دعا لنفسه[3] وأجلى بنى أمية من المدينة إلى الشام ثم حاول استرجاعَهم إلى المدينة فأبى مَرْوان بن الحـكم وأخذ يدعو لنفسه ويطعن

---

(١) ص ٦ وهذا أخذ عن شرح النقائض .

(٢) نقائض جرير والأخطل ص ٦ — ١٠ (٣) تاريخ الشعر السياسى للمؤلف ف ٣ ب ٣

فى ابن الزبير ، ونجد الضحَّاك بنَ قيس وحسانَ بن بَجدل ينزلان الجابية داعَيين إلى أمية ومعهم أهـلُ دمشق و بنو أمية ، فدبّت القيسية والزُبَيرية من قيس واليمن فلقوا الضحاكَ فقالوا : دعوتَنا إلى بيعة ابن الزبير حتى إذا أجبناك خرجت تريد هـذا الأعرابى من كلب ليقلدها بنى أخته ! قال : فتريدون ماذا ؟ قالوا : نصرفُ الرايات فتنزل مرْجَ راهط وتظهر البيعةَ لابن الزبير ، ففعل وأمدّته القيسية ، ثم أرادته على أن يدعو لنفسه ففعل ، والناس يؤمئذ على هَوَيْنِ زُبَيرى و بَحْدَلى : —

وما الناسُ إلا بَحدلىٌّ على الهوى ... وإلاّ زُبَيرى عصاَ فتَزَبَّرا[1]

وجاء مروان بمن بايعه ومعه كثرة يمانية وليس معه من قيس إلا ثلاثة نفر ، فالتقوا بمرج راهط فانهزمت القيسية وقُتِل الضحاكُ بن قيس ومعه تسعة آلاف من قومه ، فقال عَمرو بنُ مِخْلاةَ الكلبى يذكر وقعة المرْج من قصيدة :

ويَوم تُرى الرايات فيه كأنها ... عوايفُ طيرٍ : مُستديرٌ وواقِعُ
فمن يكُ قد لاقى من المرج غبطةً ... فكان لقيس فيه خاصٍ وجادعُ
فلن يَنصبَ القيسى للناس رايةً ... من الدهر إلا وهو خزيانُ خاشعُ
ولما زحفْنا بالصفوفِ فأقبلوا ... إلينا فقُلنا اليومَ ما حُمَّ واقعُ
وقلنا سَلُوا الأقوام عنّا وعنكمُ ... عن الدِّينِ والأحساب كيف نُماصِعُ[2]

فأجابه زُفَر بنُ الحارث الكلابى القيسى وكان مع الضحاك ولكنه نجا ، فقال : —

فخرتَ ابنَ مِخلاةِ الحمار بمَشْهدٍ ... علاك به فى المرج مَن لا تُدافِعُ

---

(١) نقائض جرير والأخطل ص ١٦ . (٢) نفس المرجع ١٨ .

عَلاك به قومٌ كأنك وسْطَهم إذا الحربُ شُبَّتْ ، ثعلبٌ متطالع
فإن نكُ نازعنا قُريشاً فإنهم أخونا ومولانا الذين نُنازع
فأىُّ قبيلَينا وأُمِّكَ ما يكُنْ له المُلكُ تتبعْهُ وخدك ضارع[1]

كانت وقعة المرج انتصاراً لليمن على قيس عيلان ، وظفراً للأمويين على الزبيريين الذين أوشكوا أن يظفروا بالبيعة العامة حتى من مروان بن الحكم لولا ابنه عبد الملك وعمرو بن سعيد بن العاص . فكان شعر عمرو بن المخلاة الكلبى شماتة اليمن فى قيس وتعييراً لهم بهزيمتهم فى هذا اليوم ، وكان نقض زُفَر له قائماً على نقطتين : رمى عمرو وقومه بالجبن والخديعة ، وبيان أن بنى كلب أو اليمنية أجانب عن الملك ، وأنه فى مضر ، وأن النزاع حوله قام بين حيين قريبين ، وأن سلطان أحدهما معناه خضوع اليمن وذلتهم له .

ويظهر أنه حدث جفاء بين بنى أمية وبنى كلب اليمنية وكان ذلك على يد عبد العزيز بن مروان أخى عبد الملك فقام ابن جوّاسُ بن قَعْطَلْ الكلبىّ يمتنُّ على بنى أمية بنصرة كلب لهم ، ويهجو قيسَ عيلان من قصيدة :

كم من أميرٍ قبل مَرْوَانَ وابنِه كشفنا غِطاء الموتِ عنه فأبصرَا
فلو كنت من قيس بن عيلان لم أجِدْ فخاراً ولم أعـــدِل بأن أتنصرا
ضربنا لكم عن مِنبر الملكِ أهلَه يجَيْرونَ إذ لا تستطيعونَ مِنبرَا
فلا تكفروا حُسنَى مضتْ مِن بلائنا ولا تمنحونا بعـــد لين تجبُّرا[2]

فأجابه مَعبد بن عمرو الكلابى من قيس عيلان من قصيدة :

لقينا بنى كلب بخيلٍ مُغـــيرَةٍ تُثير عَجاجاً بالسَنابكِ أكدرَا
فلما تلاقى القومُ واختلَف القنـــا وقارعَ أطرافُ الذُكور السَمَوّرَا

(١) المرجع السابق ص ١٩ . (٢) ١٩ س .

سموتُ إلى قَرمٍ ولم أبْغِ غيرَهُ فأحبوه عَضْبَ الشَفرتَينِ مُذكّرا
وجالدهم بالمرجِ منـــا أعزّةٌ يرَون المنـايا مَكرُماتٍ ومَفخرا[1]

فكان نقض مَعيد الكلابى مكسوراً على الحماسة المدّعاة لكلاب على قيس فى مرج راهط ونفيها . ولعلىّ بن الغدير الغنوى أبيات قيّمة فى هذا الموقف يدعو فيها قيس عيلان قومه إلى ترك الحرب وتجنّب الفتن وترك قريش تسوس أمورها وتختلف فيما بينها على الملك :

وخلُّوا قريشاً تَقْتَتِلْ إن مُلكها لها ، وعليها برُّها وأثامُهـــا
فإن وسِعتْ أحلامُها وسِعتْ لها وإن عجزت لم يَدْم إلا كِلامُها
فإنّ قريشاً مُهلكٌ منَ أطاعَها تُنافس دُنيا قد أحمّ انصرامها[2]

ولعله يريد دعوة قيس رهطه أن يوفروا أنفسهم من قتال لا فائدة لهم منه ، ويتركوا الزبيريين والأمويين (وهم من قريش) يقتتلون فى سبيل دنياهم ، ولا سيما أن القيسية لا تستطيع الفوز بهذا الملك القرشى العتيد .

وفى يوم المرج قال زُفر بن الحارث الكلابى قطعته المشهورة :

أرينى سِلاَحى لا أبالكِ إنّنى أرى الحربَ لا تزدادُ إلا تماديا
أتانِيَ عن مروان بالغيب أنه مُقيدٌ دَمِي أو قاطع مِن لسانيا
فنى العِيسِ مَنجاة وفى الأرض مَهرب إذا نحن رفّعنا لهنّ المثـــانيا
فلا تحسبونى إذ تغيّبتُ غافِلاً ولا تفرحوا ، إن جئتكم ، بلقائا
فقد يَنبُتُ المرعى على دِمَنِ الثرى وتبقى حزازات النفوسِ كما هيا
فيا راكباً إمّا عرضتَ فبلِّغَنْ كلاباً وحيًّا من عُقيلٍ مَقـاليا

---

(١) نفسه ص ٢٠ . (٢) نفسه ص ٢١ .

أتذهبُ كلبٌ لم تنلها رماحُنا ... وتُتركُ قتلى راهط هِيَ ماهِيا
لعمرى لقد أبقتْ وقيعةُ راهِطٍ ... لمروانَ صَدْعاً بيننا مُتنائيا
أبعدَ ابنِ مَعنٍ وابنِ ثَوْرٍ تتابعا ... ومقتل همّام أمَنِّى الأمانيا
ولم تُرَ مِنى نبوة غير هذه ... فراري وتركى صاحبَيَّ ورائيا
عشية أجرى بالصعيد ولا أرى ... مِن القومِ إلاَّ مَن علىّ ومالِيا[1]

فأجابه جوّاس بن قَعْطَلْ الكلبىّ فقال :

لَعمرى لقد أبقت وَقيعةُ راهِطٍ ... على زُفَرٍ داءً من الداء باقِيا
مُقيماً ثَوى بينَ الضلوع مَحَلُّهُ ... و بين الحشا ، أعيا الطبيبَ المداويا
يُبَكّى على قَتلىْ سُلَيم وعامِرٍ ... وذُبيانَ معذوراً ويُبكى البواكيا
دعا بِسلاحٍ ثم أحجمَ إذ رأى ... سُيوفَ جَنابٍ والطِوال المذَاكيا
عليها كأُسْدِ الغابِ فِتيانُ نَجدةٍ ... إذا أشرعوا نحو السُكُماةِ العواليا[2]

قامت نقيضة زُفر على حماسة وعدم نسيان الثأر لقومه ، وما أبقت وقعة المرج من خلاف بينهم و بين الخليفة ، واعتذار عن فراره إلى قرقيساء[3].

وكان نقض جواس شماتةً بزُفر ، وسخريةً ببكائه قتلى قومه دون ثأر ، و بدعوته بسلاحه ثم جُبنه أمامَ فرسان الكلبيين .

ولما نزل زفر قَرقيساء من أرض الجزيرة سار إليه عُمَير بن الحبابُ السلمى فجعل زُفر يغير على كلب فى بلادها فيقتل فيهم وتغزو كليب قيسا و يغير عمير على كلب البادية حتى أمرت كلبُ الحاضرةِ حُميد بن حُرَيث بن بحدل فسار إلى مَن بالهيل

---

(١) ص ٢٤ راجع معنى البيت الخامس فى نقائض جرير والفرزدق ص ٧٢٦.
(٢) نقائض جرير والأخطل ص ٢٦ (٣) المرجع السابق ص ٢٥ هامش .

فقتلهم أجمعين ثم اتبع عمير بن الحباب فهزمه حتى لحق بقرقيسيا ، وقال فى ذلك حميد بن حريث :

أنا سيف العشيرة فاعرفونى حُميداً قد تذرَّيتُ السنَاما[1]

فلم يزل الأمر بينهم حتى فسدت العلاقة بين قيس وتغلب فذم زُفر ابن الحارث عُميراً لتركه حرب اليمنية إلى قتال النزارية ، ثم أن تغلب قتلت عميراً يوم الحشّاك[2] .

وكانت أول ظاهرة لهذه الحرب بين قيس وتغلب مناقضة بين الأخطل التغلبى و بين نُفيع بن صَفَّار المحاربى القيسى قال الأخطل :

ألا يَا اسْلمِى ياهندُ هندَ بنى بدر و إن كانَ حيّانا عِدًى آخرَ الدهر

نسب فيها نسيباً قصيراً تقليدياً فيه روح عنترة ـ ومثله القطامى ـ من قيام العداوة بين رهطى الحبيبين ، ثم تناول حرب قيس وتغلب فذكر ذلة قيس وسلطان تغلب على ما بين الشام والعراق ، وألمَّ ببعض بطون قيس وما نالها من سوء كعامر ، وسُلَيم ، وغَنىٍّ ، وباهلة ، وسُواءة ، ومحارب ، وجُشم ، وسلول ، وألحَّ على ابن صفّار بالهجاء ، وتاريخ هذه القصيدة بعد يوم الحشّاك لذكره مقتل عمير بن الحباب ، و بعد الثرثار ، ولعله الثرثار الأول لتغلب على قيس :

لَعمْرى لقد لاقتْ سُليم وعامرٌ على جانب الثرثارِ راغيةَ البَكْر

ثم ذكر شناءات حلت بقيس وهجاها هجاء مقذعاً وخصوصاً بنى العجلان ، وتمتاز القصيدة بالجزالة، وحسن التنسيق ، والعفة النسبية ، وذلك هو فن الأخطل.

---

(١) نفس المرجع (٢) ص ٣٧ هامش

فأجابه نُفَيع بن صفّار المحاربى القيسى مناقضة بقصيدته :

ألا حَيِّ هِنداً بالنبيّ إلى البِشرِ وكيفَ تُحَيِّيها على النأى والهَجْرِ

وقد ألم فيها ببعض فنون :

نسيب قصير انصرف عنه إلى الحرب وكما نسب الأخطل بقيسية نسب نفيع بتغلبية ثم تركها إلى قومها . وعرض لما أصاب تغلب من قيس ، وخاطب الأخطل وذكر خذلانه رهطه ، وأشار إلى تقاليد النصارى وجبن الأخطل ومن قُتل بعُمير ثم شنع بما نزل بنساء تغلب أبكاراً وعوناً مقابلا بذلك معانى صاحبه .

— ٣ —

وبعد ذلك تقابلنا قصائد للمرقش الأكبر ، والسفاح التغلبى ، والزبّان الشيبانى ، وعمرو بن لأى التميمى ، ليست من صميم نقائض جرير والأخطل ، يستظهر ناشر النقائض أن مردها ضغائن كانت بين بنى تغلب وشيبان ، ولا بد أن تكون هذه المقطوعات متصلة اتصالا ما بموضوع الكتاب ولو اتصالا فرعياً كما رأينا فى مقدمة نقائض جرير والفرزدق من شعر متصل بذلك ويعزى الناشر عدم معرفة ذلك إلى فقد بعض أوراق النسخة الأصلية ، ومع ذلك فإنا نذكر هنا الملاحظات الآتية عن هذه المقطوعات :

١ — هناك مناقضة بين السفاح التغلبى وعمرو بن لأى التميمى ، كانت أبيات السفاح فى شأن بنى الزبّان الذين قتلهم بنو تغلب ، وكانت أبيات عمرو بن لأى حين قتلت بنو زهير .

٢ — هناك شبه مناقضة بين المرقش الأكبر وبين السفاح التغلبى فيما كان بين بكر وتغلب :

٣ — الزبان بن مجالد تعتذر إلى بنى غُبَر اليشكريين فيمن أصيبَ منهم .

وهنا تنتهى المقدمة وتبدأ النقائض بين جرير والأخطل .

— ٤ —

١ — أول ما يلقانا من هذه النقائض حسب ما ورد فى هذا الديوان رائية جرير التى مطلعها :

أخذنا على الُخور قد يعلمونَ ردافَ الملوكِ وأصهارَها

وقد تبين الناشر حقاً أنها ردٌّ على نقيضة للاخطل فقدت ولم يبق منها إلا ثلاثة أبيات وردت فى ديوانه وهى فى حرب قيس وتغلب :

ولم أرَ مَلحَمةً مثلَها أقِفْ لىَ أُخبرْك أخبارَها

أمَرَّ على ثعلب جائع وأشبعَ للذئب إن زارها

تركنا البيوتَ لأعدائنا وعُونَ النساء وأبكارها[1]

يقول تركنا البيوت لأجل غزونا أعداءنا ، وتركنا النساء لاشتغالنا بالحرب عنهن . فقال جرير مناقضاً للأخطل :

تركتم لِقيسٍ بناتِ الصريح وعُونَ النساء وأبكارَها

على أن نقيضة جرير هذه ناقصة بترمنها أبو تمام ديباجتها[2] ولست أدرى فلعل صنعة اختيار النصوص غلبت على أبى تمام هنا فحذف الديباجة أو لعله آثر الجزء الخاص بالمناقضة ، ومطلع هذه القصيدة كما وردت فى ديوان جرير :

---

(١) ديوان الأخطل ص ٣٠١ (٢) ديوان جرير للصاوى ص ٣١٤

بان الخليطُ غداةَ الجنَابِ ولم تَقض نفسُك أوطارَها

هجا فى مطلعها الفرزدق وقومه فذكر يوم (الزُّبير) وخذلَ (القُيون) له وحادثَ (جِعثن) فى بَنى سعد ، وشؤمَ بنى مالك أصل دارم ومجاشع ، ثم ذكر سائر الأبيات عدا قول جرير :

لحقْنَا بأبجـــرَ والحوفزانِ وقد مَدَّت الخيلُ إعصارَها

وأما المعانى التى ألم بها جرير فى نقيضته هذه غير ما سبق فهى فخره بيوم الغَبيط لير بوع على شيبان أسر فيه بسطام بن قيس الشيبانى ، وبأسُ قومه ، ثم ذكرَ يومَ الـكُحيل لقيس على تغلب ، ويوم حَزَّة بين قيس وتغلب[1] ثم ألم بلؤم تغلب ورجسها وقال آخرها :

ونحن ورثنا ، فخَل الطريقَ ، جَـــــوابِىَ عاد وآبارَها
وأَدْعُو الإلهَ وتدعُو الصليبَ وأدعُو قريشاً وأنصـــارها
فلو أصبحَ الناسُ حَرْباً عدًى لقيس وخندفَ ما ضـــارها
كَفَوْا خُزُرَ تغلبَ نصرَ الرسول ونقض الأمـورِ وإمرارَها[2]

٢ — ثم نقيضة الأخطل :

عفَا واسطٌ من آل رَضوَى فَنَبْتَلُ فمجتمَعُ الحُرَّين فالصبرُ أجملُ

ينسب فى صدرها ، ويصف أثر فراق الأحبة فى نفسه بصرعة المدام ويستمر فى خمرياته كما شاء له فنه الخاص ، وينصرف عن العُذَّال ، ويصف الفلاة التى اجتابها إلى خالد بن عبد الله بن أسيد الأموى بنـاقته الضامرة حتى يمدحه هو وقومه ،

---

(١) نقائض جرير والأخطل ص ٤٦ . (٢) نفس المصدر ٤٧.

حتى يصل إلى عتاب الأمويين لاطمئنانهم إلى القيسية ، ويهددهم بالانصراف عنهم ولا سيما بعدَ يوم البِشر وما أساء فيه الجحَّاف إلى بنى تغلب ، فقال : —

لقد أوقع الجحَّاف بالبِشرِ وقعةً إلى الله منها المشتكَى والمعوَّلُ
فإلا تُغـــيرها قريش بمثلها يكن عن قُرَيش مُستماز ومَزحلُ

ولم يذكر الأخطل فى قصيدته هذه جريراً ولا رهطه فناقضه جرير فقال : —

أجِدَّك لا يصحو الفؤادُ المعَلَّلُ وقد لاحَ من شَيبٍ عِذارٌ ومِسحَلُ

ونسب فيها نسيبه الرقيق القصير ، ثم أشار إلى سبب الحرب بين قيس وتغلب وقصة أم دَوْبل [1] وبكاء ابنها لِفعل الجحاف بهم : —

بَكَى دَوْبَلٌ لا يُرقِىء اللهُ دمعَه ألا إنمـا يبكى من الذُلِّ دَوْبَلُ
جزِعْتَ ابنَ ذاتِ الفَلْسِ لما تداركَتْ من الحربِ أنيابٌ عليكَ وكلكَلُ

ثم جابه خصمه بما يخزيه ويسكته فإن الأخطل هو الذى أثار يوم البشر حين دخل على عبدالملِك بن مروان فوجد الجحَّاف بن حكيم السلمى عنده فغضب من ذلك وقال : —

ألا سائل الجحَّافَ هل هو ثائر بقتلىَ أصيبت من سُليم وعامر

فغضب الجحَّاف وجمعَ لتغلب ونكل بهم يوم البشر فى قصة مشهورة [2] فلما قال الأخطل لعبد الملك فى نقيضته : —

أآمرَكَ الجحَّافُ ثمَّ أمَرْتَهُ بجيرانِكم وسطَ البُيوتِ تُقتَّلُ

---

(١) راجع ديوان الأخطل ص ٣٦ الحاشية .

(٢) راجع ديوان الأخطل ص ٢٨٦ .

قال جرير للأخطل يوقع عليه تبعة هذا اليوم : —

فإنَّكَ والجحافَ يومَ تَحضُّهُ تُريدُ بذاكَ المُلكَ ،والوِردُ أعجلُ[1]
سرى نحوكم ليلٌ كأنَّ نجومَه مَصابيحُ فيهنَّ الذُبالُ المفتَّلُ

ولما كان الأخطل فى نسيبه قد قال : —

صحا القلبُ إلاَّ مِن ظعائن فاتنى بِهنَّ ابنُ خلاَّسٍ طُفَيلٌ وعَزْهَلُ

سخِر به جرير فقال : —

لقد قتل الجحّافُ أزواجَ نِسوَةٍ يَقُودُ ابنُ خَلاَّسٍ بِهِنَّ وعَزْهَلُ

فأحال عشيقاته أيامى ، ونسيبَه هزيمة نكراء .

ولما قال الأخطل : —

فسائِلْ بنى مَروانَ ما بالُ ذِمَّةٍ وحَبلٍ ضعيفٍ ما يزالُ يُوَصَّلُ
بنَزوةِ لصٍّ بعد ما مرَّ مُصعَبٌ بأشعثَ لا يفلَى ولا هو يُغسَلُ[2]

قال جرير : —

فإلاَّ تَعَلَّقْ مِن قُرَيشٍ بِذمَّةٍ فليسَ على أسيافِ قَيسٍ مُعَوَّلُ[3]
أجارَ بنو مَرْوانَ منكم دِماءكم فمن مِن بَنى مَرْوانَ أعلى وأفضلُ

---

(١) يقول أردت تأتى الجحاف وإبطاءه عنكم ، ولكن وروده إليكم كان أعجل .

(٢) بنزوة لص مثل الجحاف الذى أساء إلينا يوم البشر بعد قتلنا لكم مصعب بن الزبير قتله عبيد الله بن زياد بن ظبيان بن نعلبة يوم دير الجاثليق بسبب قتل مصعب نابى بن زياد فقتل به — راجع الأصل ص ٦١ و ٦٢ .

(٣) يقول الشارح أى ليس عند قيس موادة ولامحاباة ، ومعول مستغاث ؟ وفى الحاشية ؛ « يقول إن لم تعلق بجوار قريش حتى تأمن فليس لك عندهم جوار ولا موادة ولا بقيا » . راجع الأصل ص ٦٩ .

يفسد عليه قوله فيفهمه أنه إذا لم تحمه قريش فلن ينجو من قيس عيلان ، فما باله يدل على الخليفة أو على بنى مروان وهم الذين حموا دماء بنى تغلب من قيس عيلان ، ثم ضم إليه الخليفة حين هدده الأخطل بالانصراف عنه .

ويلاحظ أن جريراً كان فى نقيضته حسن التقسيم وربما كان ذلك تأثراً بالأخطل ومتابعة له بخلاف نقائضه مع الفرزدق فإن الخلط عندهما هناك واضح .

ومن البدهى أن هاتين النقيضتين كانتا بعد يوم البشر ، وعلى أثره اضطر عبد الملك أن يصلح بين قيس وتغلب حقناللدماء ورغبة فى استقرار الأمن الداخلى .

٣ — وقال الأخطل يهجو جريرا :

كذَبَتْكَ عينُك أم رأيتَ بواسطٍ غَلَسَ الظلام من الرَّبابِ خيالا

وكان نسيب الأخطل فى ديباجتها موسوماً بخداع النساء ، وضعف حلومهن ، وكثرة مطالهن ، وتعلقهن بالشباب دون المشيب ، ثم وصل النسيب بالفخر ، وأخذ بعد ذلك فى هجاء بنى كليب :

أبنى كُليبٍ إنَّ عَمَّىَّ اللذا قتلا الملوكَ وفَكَّكا الأغلالا

وعمّاه هما أبو حنَش قاتل شرحبيل بن الحارث عم امرىء القيس ، وعمرو بن كلثوم قاتل عمرو بن هند ، أو هما كليب ومهلهل :

وأخوهما السفاحُ ظمْأ خيلَهُ حتى وردْنَ جِبا الكَلابِ نِهالا

يشير إلى يوم الكلاب الأول[1] ويستمر حتى يصل إلى جرير فيقول :

فأبَرْنَ قومَك يا جريرُ وغيرَهم وأبرْنَ مِن حَلَقِ الرباب حِلالا

وطحَنَّ حائرةَ الملوك بكلكلٍ حتى احتذَينَ مِن الدماء نِعالا

خُزرَ العيونِ إلى رياح بعد ما جعلتْ لضبَّة بالسيوف ظلالا

---

(١) نقائض جرير والأخطل ص ٧٤ .

وهذا الوصف ـ خزر العيون ـ جعله جرير سمة تغلب فى أهاجيه ثم يذكر يوم (إراب) لتغلب على يربوع بزعامة الهُذَيل بن هُبيرة التغلبي[١] حتى يقول هذين البيتين اللذين تمثل بهما يزيد بن هبيرة للفزارى بالكوفة و بنت الحكم ابن عبدل : ـ

ما إن تركنَ من الغواضر مُعْصِراً إلا قَصمْنَ بِساقها خَلخالا
ولقد عطفْنَ على فزارة عطفة كرَّ المنيح وجُلن ثم مَجالا

ثم يصل بفخره الرائع إلى الشرْعَبِيَّة لتغلب على قيس[٢] و يوم خزازى[٣]

ولقد جشَمتَ جريرُ أمراً عاجزاً ومنحت سوءةَ أمِّك الجُهالا
فانعَق بضأنك ياجرير فإنما منّتك نفسُك فى الخلاء ضلالا

وأنهى القصيدة بتفضيل دارم على يربوع .

فأجابه جرير : —

حَيَّ الغداةَ برامةَ الأطلال رسماً تحمّل أهلُه فأحالا

ووصل نسيبه بهجاء تغلب استطراداً ، ثم أنحى على تغلب بالهجاء من ناحية الدين فقال : —

عبَدُوا الصليبَ وكذّبوا بمحمد و بجبرَئيل وكذّبوا مِيكالا
لا تطلُبَنّ خؤولة فى تغلِبٍ فالزنج أكرم منهمُ أخوالا

وهذا البيت هو الذى أثار ثائرة الزنوج حتى هجا جريراً منهم سَلَيح بن رياح مولى بنى ناجية[٤] و بعده هذا البيت السائر فى هجاء بنى تغلب :

---

(١) نفس المصدر ص ٧٨ . (٢) ص ٨٠ ومثله لتغلب يوما : الثرثار الأول والحشاك
(٣) نفسه ص ٨١ (٤) نفسه ص ٨٨

والتغلبيُّ إذا تنحنَح للقِرى حَكَّ استه وتمثّـــل الأمثالا
أنسيتَ يومَك بالجزيرة بعدما كانت عواقبُه عليـــك وَبالا
حملَت عليك حُماة قيسٍ خيلَها شُعثاً عوابسَ تحمـل الأبطالا
مازلتَ تحسَبُ كل شيء بعدهُم خيلا تشـــدُّ عليكمُ ورجالا

ويهجو أم الأخطل ، ويذكر يوم البِشر لقيس على تغلب[1] ويأخذ فى الفخر بقومه وتعالى إلى خِندف ويضيف إليها قيساً ويذكر يوم ذى بهذا ليربوع على تغلب أسر فيه الهُذيل التغلبى[2] ثم غاظ الأخطل فقال : ـ

ولقـد عطفْنَ على حنيفة عطفةً يومَ الأراكةِ فاعتسرْنَ أثالا
ولقيتَ يربوعاً فغُودِرَ منكمُ بِسفَارِ قتـــلى ما تُطيق زوالا

ويستمر فى هجاء تغلب حتى يصل إلى مجاشع فيهجوها بهذا الأسلوب العجيب : —

أوجدْتَ فينا غـيرَ غدرِ مُجاشع ومجرَّ جعثِنَ والزبيرِ مَقالا
إن القوافى قد أُمِرَّ مَريرُها لِبنى فدَوْكَس إذ جدعْنَ عِقالا
لولا الجِزى قُسِمَ السوادُ وتغلبٌ فى المسلمينَ فـكنتُمُ أنفـــالا

٤ — وقال الأخطل يمدح عبد الملك بنَ مروان ويهجو جريراً وقبـائل قيس عيلان : ـ

عَتبتم علينا آل عيلانَ كلـكمُ وأىُّ عَدوٍّ لم نُبِتْهُ على عَتْبِ

هكذا ورد مطلع القصيدة فى شرح النقائض ، وقد استظهر الناشر عدم ترتيب أبياتها ترتيباً طبعياً[3] ومع ذلك فلنساير ترتيب الأصل وننبه على النظام الصحيح،

(١) نقائض جرير والأخطل ص ٩١ .
(٢) نفس المرجع ص ٩٣ .
(٣) راجع الحاشية ص ٩٧

فقد بدأت بالفخر على قيس عيلان ويوم راهط إذ كان بنو تغلب مع مروان فافتخر الأخطل بذلك[1] ومدح أمية بمثل قول الأخطل : —

أهلوا من الشهر الحرام فأصبحوا موالىَ مُلكٍ لا طريفٍ ولا غَصْبِ

ويظهر أنّ مطلع القصيدة هو البيت الثانى عشر :

لَعمرى لقد أسريتُ لاليلَ عاجزٍ بساهمةِ الخدَّينِ طاويةِ القُرْبِ

ويصف الناقةَ والسير ، ويعود فيمدح عبد الملك مستطرداً متخلصاً حتى ينتهى إلى قوله : ـ

وقد جعلَ الله الخلافةَ منهمُ لأبيضَ لاعارى الخوانِ ولا جَدْبِ

ولكن أراكَ اللهُ موضعَ حقها على رغم أعداءٍ وصَدَّادةٍ كُذْبِ

ويعود إلى حرب قيس وتغلب فيذكر يوم الثرثار الأول وقتلَ ابن الخمس التغلبى الحارثَ بن ظالم المرى فى الجاهلية بأمر النعمان بن المنذر[2] : ـ

لَعمرى لقد لاقتْ سُليم وعامر على جانب الثرثارِ راغيةَ البَكْرِ

ويهجو بنى كليب ويذكر الشارح هنا مسأله رأم الناقة[3] ويختمها بقوله : ـ

يقولون : ذَبِّبْ يا جريرُ وراءَنا وليس جريرٌ بالمحامى ولا الصَّلْبِ

فأجابه جرير : ـ

أصاح ، أليس اليومَ مُنتظرى صَحْبى نُحَيِّى رُسومَ الحَىِّ من دارةِ الجَأْبِ

نسب وافتخر فى أولها ماشاء ، ثم التفت إلى الأخطل فقال : ـ

لعلك يا خِنزيرَ تغلبَ فاخرٌ إذا مُضَرٌ منها تسامَى بنو الحربِ

إذ صدعت قيسٌ وخِندف بينها عصاالحربِ ماأوضعتَ فيهامع الكَرْبِ

---

(١) نفس المرجع ص ٩٨ . (٢) ص نفسه ١٠٧ .

(٣) ص ١٠٨ ونقائض جرير والفرزدق ص ٣١٨ .

ثم نقض على خصمه ما ادعاه فى يوم المرج فقال : —

ولو كنتَ مَولى العِـــزِّ أيامَ راهطٍ شغَبْتَ، ولـكن لايَدَى لكَ بالشغْبِ
وإن لنا غورَ البـــــلادِ عليكم وساحةَ نَجدٍ والطوالَ مِن الهضْبِ
ستعلمُ ما يُغنى الصـــليبُ إذا غدت كتائبُ قيسٍ كالمبَّدةِ الجُربِ[1]

ونقض عليه يوم الشرْعبية ، وتعرُّضَه دون الفرزدق ، وختم نقيضته بقوله :

قُفَيرة حِزبٌ للنصـــارى ودينهمْ وأمسى الـكرامُ الغالبون وهُم حزبى

٥ — وقال الأخطل : —

حَيِّ الظعائنَ إذ رَحلْنَ بُكورا بِرُوَيْثَتَيْنِ فقد رفعْنَ خُدورا

فنسب ووصف ناقته مسرعاً ، ثم التفت إلى جرير فقال فيه :

جَلبت كليبٌ للرِهانِ مُـكدَّما عند الحفاظِ مُسَـبّقاً مغمورا

و بعد أبيات نراه يفضّل عليه الفرزدقَ ورهطه :

لما جرَى هو والفرزدقُ لم يكن نَزَقاً ولا لِمدَى المئينَ صَبُورا
يجرى له عُدُسُ بن زيدٍ بالقنا وجرَى بصَعْصَعة الوئيدُ بَشِيرا
قومٌ هُمُ سبقُوا أباك إلى العـلا جَرْيًا وصرتَ مخلَّفاً محسورا
أزعمتَ أن بنى كُلَيبٍ سادةٌ قبحاً لذلكَ مَعشراً مذكورا[2]

ويعيره بهزيمة قيس يومَ (الحشّاك) وقتل عمير بن الحباب السُلمى وفرار زُفَر بن الحارث مهزوماً والتجائه إلى قُرْقيسياء تاركا نساء هوازن بغير حام ولا غيور ، وبأسر جدِّه الخطفَى يوم (إراب) أسَرهُ الهذَيل التغلبى ثم مَنَّ عليه .

---

(١) نقائض جرير والأخطل ص ١٠٩ .
(٢) نفس المرجع ص ١١٤

فأجابه جرير :

رحلَ الخليطُ فزايلوكَ بُكورا وحَسِبتَ بينهمُ عليكَ يسيرا

فأطال النسيب ثم اقتضبَ القول إلى الأخطل ومساعدته الفرزدق فقال :

وعوَى الأخيطِلُ للفرزدَق مُحلِبا فتنازعا مَرِسَ القوى مَشْزُورا
وُجِدَ الأخَيطِلُ حين شمَّصَه القنا حَطِماً إذا اعتزم الجيادُ عَثورا

ويفخر بنفسه ، وبمضر ، فهم :

الضاربونَ على النصارَى جِزْيةً وهُدًى لمن تبعَ الكتابَ ونورا
اللهُ فضّلنا وأخزى تغلبـــا لن تستطيعَ لما قضى تغييرا
وإذا وَطِئتُك يا أخيطِلُ وطأة لم يَرجُ عظمُك بعدَهُنَّ جُبورا
أفبالصليبِ ومارسَرْجِسَ تتّقِي شهباءَ ذاتَ كتائبٍ جُمهورا

ثم هجا تغلب ونساءهم هجاء فاحشاً ختمه بقوله :

قبَح الإلهُ نُسيّةً مِن تغلِبٍ يَجعلْنَ مِن قِطعِ العَباء خُدورا
لم يجرِ مُذ خُلِقتْ على أنيابِها ماء السواكِ ولم تمسَّ طَهورا
إنا نصـــدّق بالذى قلنا لكم ويكونُ قولك يا أخَيطِلُ زورا[1]

٦ — وقال الأخطلُ يهجو قيساً وزُفَر بن الحارث ويذكر فراره يوم المرْج ويفتخر بقومه وبصبرهم فى ذلك اليوم :

أعاذلَ نعم قومُ الحربِ قومى إذا نزلَ الملِمّاتُ الكِبارُ
رَبيعة حين تختلف العوالى وما بى إن مدحْتُهم ابتهار

---

(١) ص ١١٩ وماوليها .

ويستمر فى فخره بالكرم ، والشجاعة ، والنجدة حتى يقول :

شفيتُ النفسَ مِن أشرافِ قيسٍ وذلك عنكَ من قيس جُبارُ
أذاقونا منْ أسنتهم وذاقوا فكيفَ رأيتَنا صرنا وصاروا
لعمرِ أبيكَ والأنباء تنْمَى لقد نجَّاك يازفَرُ الفرارُ[1]

وهكذا حتى يذكر بُحَير بن الحارث بن عُباد وقتله يوم (واردات) بيد مُهَلهل وكان ذلك اليوم لتغلب على بكر فى حرب البَسُوس .

فأجابه جرير :

أتذكرهُمْ وحاجتُك ادِّكارُ وقلبك فى الظعائن مُستعارُ

فلما نسب فخر بيربوع وفوارسهم، وبقيس وخندف ، ويلحق الفرزدق بالنصارى:

لقد لحقَ الفرزدقُ بالنصارَى لينصرُهم وليس به انتصارُ
ويسجد للصليب مع النصارَى وأفلج سهمَنا ولنا الخيـــار

ويلح على الفرزق وقومه حتى يختم قصيدته بقوله :

غـــدرتم بالزبَير وما وفيتم فدادينَ يبيتُ لها جُؤار
فما رضيتْ بذمتكم قريش وما بعد الزُبَير بها اغترارُ[2]

٧ — وقال الأخطل :

مازال فينا رباط الخيل مُعلمةً وفى كليب رباط الذُّلِّ والعار
النازلينَ بدار الذلِّ إن نزلوا وتستبيحُ كليبٌ محرم الدار

ويهجو جريراً وقومه حتى يقول :

قومٌ إذا استنبح الأضيافُ كلبهم قالوا لأمهم : بولى على النار

---

(١) نقائض جرير والاخطل ص ١٢٧
(٢) المرجع السابق ص ١٣١

لا يثأرون بِقتلاهم إذا قُتِلوا ولا يكرّون يوماً عند إجحارِ
هلاّ كفيتم معدًّا يومَ مُعضِلةٍ كما كفينا معداً يومَ ذِي قار[1]

ويوم ذى قار لبكر خاصة على الأعاجم ، ويذكر يوم الكلاب الأول وموقفهم فيه ، وبأس قومه وكرمهم ، ويعير جريراً بأمه .

فأجابه جرير :

حَيُّوا المقامَ وحَيُّوا ساكِنَ الدارِ ما كِدتَ تعرف إلاّ بعدَ إنكارِ

حتى إذا نسب انتقل مقتضباً إلى الفخر بقومه موازنة لفخر الأخطل وبأسلوب كأسلوبه :

قومى تميمٌ هم القومُ الذين همُ ينفون تغلب عن بُحبوحة الدار
النازلون الحِمى لم يُرْعَ قبلَهمُ والمانعون بلا حِلفٍ ولا جار

ويشيد بذكر قيس وقريش ومضر ، ثم يقول :

مِنّا فوارسُ ذى بَهْدا وذى نجب والمعلِمون صباحا يوم ذى قار[2]

ووجه افتخار جرير بذى قار يرجع إلى فرار الربيع بن عتيبة اليربوعى من بسطام بن قيس الشيبانى بعد ما أسرَهُ ، ثم ردّه إبلا من ربيعة على قومه بدل ما أخذ بسطام ، ويذكر رجالات قومه ومآثر نفسه ، ثم يأخذ فى هجاء تغلب :

يا خُزرَ تغلبَ إنى قد وَسَمتكمُ على الأنوف وسوماً ذاتَ أخبار
ما فيكمُ حكمٌ تُرضَى حكومتُه فى المسلمينَ ولا مستشهدى شار

---

(١) نفسه ص ١٣٤ (٢) نقائض جرير والأخطل ص ١٤٣

ويختم القصيدة بهجاء أم الأخطل ، فكانت نقيضته موازية لقصيدة الأخطل في موضوعها ، وتقسيمها ، ومعانيها .

٨ — وقال الأخطل :

خفَّ القطينُ فراحوا منكَ أو بكروا ... وأزعجتهم نَوًى في صرفها غِيَرُ

وأجابه جرير :

قل للديار سقى أطلالكِ المَطَرُ ... قد هجت شوقاً فماذا تنفع الذِكَرُ

وستفرد لها دراسة خاصة .

٩ — وقال الأخطل :

بئسَ الفوارسُ عند مختلَفِ القنا ... عِدلا الحمار مُحارب وسَلولُ

ورمى هؤلاء باللؤم والضعف وفضَّل عليهم قومه :

وإذا ترافدت القبائلُ بالقنا ... فمُحَاربٌ عند الهياج فُلولُ

زحفَ الأراقمُ بالمجاز لوردها ... كالسيل سالَ بأبطحيه سيولُ[1]

وكان الهجاء هنا مقصوراً على هذين الحيين من قيس عيلان .

فأجابه جرير :

وَدِّعْ أُمامة حان منكَ رحيلُ ... إن الوَداع من الحبيب قليلُ

نسب فيها ووصف رحلته إلى الخليفة :

الله طوَّقك الخلافة والهُدَى ... واللهُ ليس لما قضى تبديل

ولّى المكارمَ والخلافة أهلها ... فالملكُ أفيحُ والعطاء جزيل

---

(١) نفس المرجع ص ١٧٧

ثم التفت إلى الأخطل فجأة فكذبه وفضل على تغلب تميما ، ورماهم بالكفر ونبزهم بالجزية يؤدونها للمسلمين ثم يقول : —

إن النبوة والخلافة والهدى رغمٌ لتغلب فى الحياة طويلُ
خالفتمُ سبلَ النبوة فاخضعوا بِجزَى الخليفة ، والذليل ذليل

ثم يعيِّره بأسر الهذيل بن هبيرة التغلبى ؛ أسره وأربعة له من البنين يزيدُ ابن حذيفة السعدى يوم ذى بهذا فى بلاد بنى ضبة : —

ماذا ذكرتَ من الهذيل وقدشتا فينا الهذيل وفى شَواه كبول [1]

ثم أخذ ينقض على خصمه معانيه المتصلة بقيس وأرهاطها فقال : —

ولقد شفتنى خيلُ قيس منكمُ فيها الهذيل ومالك وعَقيل
يشير إلى يوم الكحيل [2] .
لولا الخليفة يا أخيطل مانجا أيامَ دجلة شِلْوك المأكول [3]
كذبَ الأخيطلُ ما لنسوة تغلب حامى الذمار وما يَغارُ حَليل

ثم سخر بفخر الأخطل بالأراقم [4] فسأله أين كانوا يوم الرَحوب (البشر) :

أين الأراقِم إذ تجرُّ نساءهم يوم الرَحوب محاربٌ وسلول
أبناؤهن أقل قوم حُرمةً عندَ الشراب وما لهنَّ عقول

إلى أن يقول :

أهلكت قومك إذ حضَضْتَ عليهم ثم انتهيتَ وفى العدو ذخول [5]

---

(١) نفس المرجع ص ١٨٤ . (٢) نقائض جرير والأخطل ص ١٨٥ .
(٣) يشير إلى أن عبد الملك أمر الوليد ابنه أن يحمل دماء قيس وتغلب تهدئة للحالة ، وأن يضمن الجحاف قتلى يوم البشر ، ص ١٨٦ .
(٤) ص ١٨٧ حاشية ٤ . (٥) ص ١٨٨ حاشية .

ويختمها بهجاء الأخطل وقومه .

١٠ — وقال الأخطل .

لقد جاريتَ يابنَ أبي جَرِيرٍ عَذوماً ليس ينظرك المطالا
نصبتَ إلى نبلك من بعيد فليس أوان تدخِرُ النضالا

ويتعالى على يربوع ، ويرميهم بالهوان ، ونسوتهم بالرجس والفجور . فأجابه جرير : —

أجدَّ اليوم جيرتك احتمالا ولا نهوى بذى العُشرَ الزيالا

وبعد مانسب اقتضب الكلام إلى الأخطل فقال : —

رأيتُك يا أخيطل إذ جرينا وجربت الفراسة كنت فالا[1]
وقد نحس الفرزدق بعد جهد فألقى القوس إذ كره النضالا
ويربوع تحل ذرا الروابى وتبنى فوقها عمداً طوالا
فنحن الأفضلون فأىُّ يوم تقول : التغلبى رجا الفضالا

ويفخر بتميم ، وخندف ، ويلتفت إلى تغلب :

لقيتم بالجزيرة خيل قيس فقلتم : مارَ سرجس لا قتالا
فلم أر خيلكم صبرتْ لخيلى ولا أغنتْ رجالكمُ رجالا

ويصور أثر الخمر فى الأخطل وأمه تصويراً قبيحاً ثم يقول : —

تناوَلْ ما وجدتَ أباك يبنى فأما الخندفى فلن تنالا
لقد لاق الأخيطل خيل قيس فأبرح خيلهنَّ به وطالا

---

(١) ص ١٩٣ وانظر الحاشية

أبعْلَ التغلبية لا تطأهـا فلا دنيـا أصبْتَ ولا جمالا

وهنا تنتهى هذه النقائض العشرون التى دارت بين جرير والأخطل خاصة ويلاحظ أن الأخطل كان البادىء فيها وكانت مهمة جرير الرد والنقض ، ويلقانا بعد ذلك مناقضة ثلاثية بين جرير والفرزدق والأخطل .

— ٥ —

قلنا فيما مضى [1] إن الأخطل لما بلغه تهاجى جرير والفرزدق أرسل ابنه مالـكا إلى العراق ليأتيه بخبرهما ، وكان من ذلك أن فضل جريراً على الفرزدق ، فلما وفد الأخطل على بشر بن مروان بالكوفة سنة اثنتين وسبعين هجرية رشاه محمد بن عمير بن عطارد المجاشعى ليغير رأيه أمام بشر بن عبد الملك ففعل ذلك الأخطل ، وهنا يشتبك الثلاثة ويدخل الأخطل المعركة ، ونظفر بثلاث نقائض تربطها معاً هذا الموقف الطارىء ويبدأها جرير بقوله : —

لِمَنِ الديارُ ببرقةِ الرَّوْحانِ إذْ لا نَبِيعُ زمانَنا بزَمانِ

إن زُرتُ أهلَكِ لم يبالوا حاجتى وإذا هجرتك شَفَّنى هجرانى

وكان نسيبه رائعاً حقاً ، وقصيدته قوية جميلة ، أحسن لها اختيار البحر والقافية وبدأ المناقضة فكان حراً طليقاً ، وجمع فى الهجاء بين الأخطل والفرزدق والبعيث وعمرو بن لجأ التيمى وتناول موضوعه شاملا ، فالتحم مع الفرزدق أولا ونبزة بالزبير

---

(١) راجع نقائض جرير والفرزدق ص ٤٩٤ و٨٧٩ والأغانى جـ ١١ ص ٦١ و جـ ٨ ص ٦٢ و ٧٢ و ٣١٥ ، ونقائض جرير والأخطل ص ١٩٧ .

وجِعْثن وأعينَ بن ضُبَيعة[1] وضمَّ إليه القرينَ وهو عبد الله بنُ حَكيم المجاشعى ومحمد بن عمير وفخر عليه بقومه وذكر رجال قومه و بعض أيامهم كيوم طِخفة[2] :

أنسيت ويلَ أبيكَ غدرَ مُجاشع ومجرَّ جِعْثنَ ليلةَ السِيدان
ونَسيت أعينَ والرَبابَ وجاركم ونَوارَ حيث تصلصلَ الحِجْلان
لما جَبُنْتَ كفى الثغورَ مُشَيَّعٌ منَّا ، غداةَ هُزِمَت ، غيرُ جبان

فلما أجهز على الفرزدق التفت إلى الأخطل ففضل بكراً على تغلب :

بكرٌ أحقُّ بأنْ يكونوا مَقْنعاً أوأنْ يَفُوا بحقيقةِ الجيرانِ
قتَلوا كلَيبكم بِلقحةِ جارهم يا خُزرَ تغلبَ لستم بِهجانِ
والتغلبي على الجواد غنيمةٌ والتغلبيةُ مَهرها فَلْسَانِ

ثم وصل إلى قَضاء الأخطل بينه وبين جرير فى فنِّ الشعر فأبطلَ حكمَه واحتقرَ دينه :

يا ذا العَباية إنّ بشراً قد قضى ألا تجوز حكومة النشوان
فدعوا الحكومة لستم من أهلها إن الحكومة فى بنى شيبان
قبحَ الإلهُ من الصليب إلههُ واللابسين بَرانِس الرُهبان

ثم يفضل عليهم قيساً بمجدها ، و إسلامِها ، وأيامها على تغلب ، ويفخر بقومه ما شاء له الفخر :

ما زال عِيصُ بنى كليبٍ فى حِمًى أشِبٍ ألفَّ مَنابت العصيان
الضاربون إذا الكماة تنازلوا ضَرباً يَقدُّ عواتقَ الأبدان

حتى ينتهى معتزاً بقومه و بقيس ويختمها بقوله للأخطل :

---

(١) نقائض جرير والأخطل ص ٢٠٢

(٢) ص ٢٠٢ — ٢٠٣ .

ما زالَ منزلنـــا لتغلبَ عاليا واللهُ شَرَّف فوقَهم بُنيـــانى
فاقبِضْ يديك فإننى فى باذخ صَعبِ الذُرى متمنِّع الأركانِ

وقال الفرزدق يردّ على جرير :

يابنَ المراغة والهِجاء إذا التقَتْ أعنـاقُه وتماحكَ الخَصمانِ[1]

فلا ينسب و إنما يهجم على موضوعه ، ويأخذ فى تفضيل تغلب والعلوّ بها على جرير ويشيد بإغارة الهذيل التغلبى على يربوع يوم إراب وآثاره فيهم و إذلال نسائهم :

كان الهُذَيل يقودُ كلَّ طِمِرَّةٍ دَهماء مُقرَبةٍ وكلَّ حِصـــانِ
يقطعْنَ كلَّ مَدًى بعيدٍ غَوْلُهُ خَبَبَ السباع يُقَدنَ فى الأرْسان
وردوا (إرابَ) بجحفَلٍ من تغلبٍ لجبِ العشِى ضُبارِكِ الأركان

وهكذا يستمر حتى يصلَ إلى الفخر بمآثر تغلب :

فاسأل بتغلبَ كيفَ كان قديمُهم وقديمُ قومـك أولَ الأزمان
لولا فوارسُ تغلبَ ابنـةِ وائلٍ نزل العدوُّ عليكَ كلَّ مكان
حبسوا ابن قيصر وابتنوا برماحهم بومَ الـكُلاب كأفضل البُنيان
قوم همُ قتـلوا ابنَ هندٍ عنوةً عَمرا وهم قسطوا على النعمان[2]

وقد كان الفرزدق هنا يفضل تغلب على فرع من تميم ممـالأة للأخطل على خصمه ونكاية فى قيس عيلان ، فمدح تغلب وهجا جريراً . وكان من الطبعى

---

(١) يقول إنما يكون الهجـاء إذا التقت أعنـاقه وجد الشـاعران وانظر فى شعرهما ؛ ص ٢١٣ الشرح والحاشية

(٢) نقائض جرير والأخطل ص٢١٧

أن ينهض الأخطل بمدح بنى دارم قوم حليفه الفرزدق وهجاء جرير وقومه :

بكرَ العواذل يبتدِرن مَلامَتى والعـــالمون فكلّهمْ يلحانى

فقد أعدَّ نفسه بالنسيب ، والفخر بشيمه ، وفرس صيده ، ثم اتصل بخصمه فعجب من تهجمه عليه ، وتعرضه لخصومته ، وأخذ فى هجائه :

قبَح الإله بنى كلَيب إنهـــم لا يحفظون محارمَ الجـــيران
قوم إذا نفخ الحقـينُ بطونهم لم ينزِعوا بِقـــوارع القُرقان
أجرير إنك والذى تسمو له كأسيفةٍ فخرت بِحدجِ حَصَان[1]

ثم يأخذ فى تفضيل دارم على يَربوع فيتدخل بين قبيلَى تميم فى سبيل الفرزدق وقومه :

تاجُ الملوكِ وصِهرُهم فى دارمٍ أيامَ يَربوع مـــــع الرُّعيانِ
إخسأ كليبُ إليك ، إن مجاشعاً وأبا الفوارسِ نهشلا أخوانِ
قوم إذا خطرت عليك قرومُهم طرحوك بين كلا كلٍ وجِرانِ

ثم يسخر بنسيب جرير فيقول :

أنَسيتَ قتلى بالـكُلاب وحابِسٍ وبكيتَ ويحَكَ بُرقَةَ الرَّوْحانِ[2]
ودَّت تميمٌ بالـكلاب لَوَ انهـا باعت هنـاك زمانها بزَمانِ

وهنا تنتهى النقائض ، ويتم عرضُ هذا الديوان عرضاً مبتسراً ، فلنتركه إلى نقطة أخرى تكميلية .

---

(١) نفس المرجع ص ٢٢٢ (٢) نفسه ص ٢٢٤ .

— ٦ —

تلك هى دراسة نقيضتين دراسة خاصة لتكون نموذجاً مقارباً لدرس هذا الفن دراسة تاريخية ، اجتماعية ، فنية كما فعلنا ذلك فى الفصل الماضى . وهاتان هما قول الأخطل :

خفَّ القطينُ فراحوا منك أو بكروا وأزعجتهم نوًى فى صرفها غِيَرُ[1]

وقول جرير :

قل للديار سقَى أطلالَكِ المطرُ قد هِجتِ شوقاً فماذا تنفع الذِكَرُ[2]

ولما كان الأخطل هو البادىء فإنا نتخذ نقيضته أصلا ثم نطبق عليها نقيضة جرير ، متوخين الإيجاز تاركين المقدمات التى مرت فى الفصول السابقة .

(١) كان النسيب هو الفن الذى يحتل مطلع القصيدتين و يتساوى عندهما فى عدد الأبيات ، فهو طويل عندهما فى مثل هذا الوضع التقليدى وهو لذلك يدل على تشبث وعناية ممتازة .

إلا أن الأخطل يمتاز مع ذلك فى فنه هذا بأشياء : منها أنه أضفى عليه من خمرياته ماجعله ذاهلا ، ثم أضاف إلى ذلك احتمال لوعته أو إصابته بالسحر ، وقد عنى بهذه الخمر فأجاد وصفها وعتقها متأثراً فى ذلك بالاعشى سواء فى إحلال الخمر ديباجة القصيدة وفى تعتيق الخمر وكرمها . ومنها تتبعه المسافرات على مذهب زهير وتأثرهن حتى بلغن مُرتَبعهن ، ور بما زاد على زهير ما أصابه من هذه الرحلة من حزن و بكاء ، ومنها ما وصف به النساء وطبيعتهن التى تقوم على الدَلّ والعزف عن المشيب ، والعبث بالرجال ، مستفيداً من عَبيد بن الأبرص .

---

(١) نقائض جرير والأخطل ص ١٤٨ (٢) نفس المرجع ص ١٦٦ .

وقد ظهرت الصفة التقريرية فى أسلوب الأخطل ، نرى ذلك فى إحكام العبارة وتجويد الصورة ، وتنويع المشبه به وتأكيد الفكرة ، وكثرة الأوصاف ، ثم تجد نسيبه خالصاً لم يخلطه بفن آخر كالهجاء وأخيراً تخلص تخلصاً لا بأس به إلى مدح الخليفة حيث قال : —

وقعْنَ أُصْلاً وعُجناً من نجائبنا ... وقد تَحُيِّنَ مِن ذى حاجة سَفَرُ
إلى امرىء لا تعرِّينا نوافِلُهُ ... أظفرهُ الله ، فليهنا له الظفرُ

أما جرير فكان فى فنه هذا شاعراً عادياً ذهب مذهب الأقدمين عامة من الدعاء للديار بالسقيا ، وذكر الماضى ، ثم وقف عندها يودّع السَّفْرَ بقلبه وينظر إليهن من بعيد فلم يتابعهن كالأخطل حتى بَعُدْنَ وذهبت بهن السبيل ، وكان أشد حزناً من صاحبه لهذا الفراق الذى شغله وأشجى قلبه حتى أجرى حواراً رقيقاً حول هذا الحزن الشديد : —

إنّ الفؤادَ مع الظُّعن التى بكَرتْ ... من ذى طلوح وحالت دونها البُصَرُ
قالوا : لعلك محزون ، فقلتُ لهمْ : ... خلّوا الملامة لا شكوَى ولا عِذَر

عُنى جرير بالديار التى وقف عليها ، ولكنّ الأخطل عُنى بمن رحلوا عن الديار ، وكانا مَعْنِيَّينِ معاً بسبب الرحلة والرحيل إلى المرتبع بعد جفاف الديار ، ولعل جريراً لما وجد الأخطل حائراً لا يتبين أوان الرحلة إذ يقول : —

خفّ القطين فراحوا منك أو بكروا ... وأزعجتهم نَوًى فى صَرْفها غِيَرُ

تنبه هو فعَيَنَ وقت الرحيل ، وأكده ، ونبه على عدم جَدْوَى الإشفاق والجزع الذى يقع فيه المحبون : —

نادَى المنادى بِبِين الحىِّ فابتكروا ... مغاً بُكوراً فما ارتابوا وما انتظروا

حاذرت بينهمُ بالأمس إذْ بكَروا منًّا وما ينفع الإشفاق والحـــذَر

ثم نجد جريراً يخلط نسيبه هذا بهجاء الأخطل وقومه إذا برّأ السفرَ من تغلب فلم يكسهم عباء الموصل الذى يلبسه التغلبيون : —

هل تُبصران حُمولَ الحىِّ إذ رُفِعَتْ حَيًّا بغير عَباء الموصـــل اختدروا

ثم يقتبس من الأخطل هذا الشطر ويغير موقعه « يابُعدَ مَنظرهم ذاك الذى نظروا » هو هنا نسيب ، ولـكنه هناك هجاء وسخرية ومع ذلك فلم يتكىء جرير على غيره . ويمتاز جرير كذلك بجمال الطبع ، ورقّة الأسلوب ، وإن لم يحكم فنه ، وينسقه تنسيق الأخطل ، فشعر جرير هنا فيه انفعال الشاعر المضطرب السريع ، وشعر الأخطل فيه طابع الصانع المجوّد المتئد ، ومع ذلك ، فإن الطبع الشعرى عند جرير أوضح منه عند الأخطل . . . ذلك فى النسيب .

(ب) وقد انفرد الأخطل بمدح الخليفة وبنى أمية ، وهذا طبعى إذا كان الأخطل ، كما قلنا ، شاعرَ الحـكومة الرسمى ، وحليفَ الأمويين .

قد جمع فى مدحه بين مذهبين : جاهلى قديم معروف وهو المدح بالـكرم ، والشجاعة ، واليُمن ، والحزم ، ومضاء العزيمة ، مستخدماً فى ذلك صوراً وعبارات بيانية محكمة من كناية ، وتشبيه ، وتفريع ، واستعارة ، وإسلامى يتصل بالخلافة وحسن السياسة ، وإخضاع الثائرين ، وسعة السلطان ، وتدبير الفتوح ، وقد ظهر المذهب الثانى فى ظل هذه الـكلمة « أمير المؤمنين » . أما مدحه بنى أمية فقد ظهر فيه الطابع الإسلامى أكثر ؛ فهم أسرة ملكية يحفّون بعبد الملك ، ويرجعون إلى محتد كريم ، يجتمعون على الحق ، أطهار صُبُر ، حسنو الحيلة ، ذوو حظ جليل لم يبطروا بهذا الملك بل أحاطوه بالرهبة وفضائل الشيم .

وقد أجاد الأخطل هذا الفن حتى صار مثلا فى الجزاله والإحكام والتصوير

الفنى وموطن العبطة من الخلفاء ، ظهرت فيه شخصية الأخطل الفنية واضحة ولا سيما أنه قائم على معان حقيقية فالأمويون معروفون وبخاصة كبارهم بحسن السياسة والحزم ومضاء العزيمة والنزعة العربية القويمة ، ولعل الأخطل فى مدحه هذا أشعر من صاحبيه بل أشعر الأقدمين جميعاً إلى آخر القرن الأول . ولم نجد لجرير مدحاً إلا ما لابس الفخر ، فكانت من ذلك معان أضفاها على قيس عيلان ، وقريش ، والأنصار ، وهى قليله على كل حال : —

يحمى الذينَ ببطحاوَى مِنًى حسبى تلكَ الوجوه التى يُسقى بها المطر[1]
أعطوا خُزَيمة والأنصار حكمهم والله عزّز بالأنصار من نَصروا[2]

الأبيات . وهى لا تصور فن المدح عند جرير إذا لم تُسق لهذا الغرض الرئيسى ولعلها فى جملتها صورة جاهلية ما عدا هذا البيت فى الأنصار ، ولعله رد على حملة الأخطل على الأنصار منذ عهد معاوية ويزيد إلى عبد الملك : —

بنى أميـــة قد ناضلتُ دونكم أبناء قومٍ همو آوَوا وهم نصَروا

وليس هناك وجه للموازنة فى باب المديح إذا لم يشترك فيه جرير فلنتركه .

(ج) والفخر عند الأخطل ضئيل هزيل لا يعتمد على مجد قديم ، ولا أصل حديث ، ولعله بالاستجداء أشبه ، فهو أولا امتنان على الأمويين بموقفه معهم من الأنصار : —

بنى أمية قد ناضلتُ دونكم أبناء قوم هم آوَوا وهم نصَروا
أحميتُ عنكم بنى النجار قد علمت عُليا مَعدٍّ وكانوا طالما هدروا
حتى استكانوا وهم مِنِّى على مَضض والقول ينفذ مالا تنفذ الإبَر

---

(١) يعنى قريش البطاح .
(٢) خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر . ولعله يريد مضر واليمن .

وهذا الشطر لاخطر له إذ كانت حوادثه أيام البيت السفيانى لا المروانى ثم هوامتنان على الرغم من قوة أسلوبه ، ثم هو ، ثانيا ، نُصح وإيقاع ، فالأخطل يحذّر عبد الملك من القيسية وزعيمها زُفر بن الحارث ويذكر معونة تغلب لأمية يوم المرج ، وقتل عمير بن الحباب السلمى يوم الحشّاك ، حتى خضعت قيس للخليفة : —

بنى أميَّةَ إنى ناصِحٌ لكمُ ... فلا يبيتنَّ فيكم آمنا زُفَرُ
وأتخِذوه عَدُواً إن شاهدَه ... وما تغيَّبَ من أخلاقه دَعُر
إن الضغينةَ تلقاها وإن قدُمت ... كالجَمرِ يكمن حيناً ثم ينتشر

ولعل فضل خضوع القيسية راجع إلى عبد الملك ، فالأخطل يدعى ماليس حتى اضطر أخيراً إلى هذا المعنى العام : —

وما سعى فيهمُ ساعٍ ليدركنا ... إلا تقاصر عنّا وهو مُقهورُ
وقد أصابتْ كِلاباً مِن عداوتنا ... إحدى الدواهى التى تُخشى وتُنتظَر

أما جرير فقد جلّى فى هذا الضرب ووجد من مآثر قيس وتميم مادة قديمة وحديثه أحسن الاعتماد عليها ، والاحتجاج بها ، وبرّ أفخره من الادّعاء والامتنان ، ولعل الفخر والهجاء هما فنا جرير فى نقيضته .

افتخر جرير على الأخطل بعدة أيام لتميم على غيرهم كيوم (طِخفة) ليربوع على النعمان بن المنذر ، ويوم (ذى نَجب) ليربوع على كِندة ، ويوم (الإياد) ليربوع على بكر ، ويوم (ذى بَهدا) لتميم على تغلب ، ثم يوم (البِشر) لقيس على تغلب ويوم (ماكسين ، لقيس على جُشم من تغلب ، وذلك مقابل يوم (الحشّاك) لتغلب على قيس وقد افتخر به الأخطل ، قال جرير : —

إنَّا بِطخفـةَ أو أيام ذى نجب نعم الفوارس لمـا ابتلَّت العُذَرُ
لولا فوارسنا فوارس يربوع بذى نجب ضاقَ الطريق وأعيى الوِرد والصدر
إنْ طاعَنوا الخيلَ لم يُشووا فوارسها أونازلوا عانقوا الأبطال فاهتصروا
هل تعرفونَ بذى بهدا فوارسنا يوم الهُذَيلُ بأيدى القوم مُقتَسَر
فما منعتمْ غـداة البِشر نِسوتكم ولا صبرتم لقيس مثل ما صبروا

ثم يفخر بقيس، وخِندف ، وقريش، الأولون حلفاؤه ، وخندف أصل مضر الذى يجمعهم مع قيس وقريش ، وأما قريش فهم قبيـل الخلافة والنبوة وكثيراً ما احتكم إليهم شعراء النقائض كما قدمناه ، ثم يفخر بالدين صريحاً أو إشـارة فيقول :

قيسٌ وخندف أهل المجد قبلكم لستم إليهـم ولا أنتمْ لهمْ خَطر
يحمى الذين ببطحاوَى مِنَى حسَبى تلك الوجوه التى يُسقى بها المطر
ماعَدَّ قوم و إن عزوا و إن كرموا إلا افتخرنا بحق فوق ماافتخروا
نرضى عن الله ، إن الناس قد علموا أنْ لَنْ يُفاخرنا من خلقه بَشر

ولعل حديث جرير عن قريش إنما كان مناظرة لاحتفاء الأخطل بقريش قبيلة عبـد الملك بن مروان ، إذ كانت على كل حال ملحوظة المـكانة الدينية والسياسية ولا سيما بعد الإسلام وذلك قول الأخطل : —

فى نَبعةٍ من قريش يعصِبون بها ماإن يُوازَى بأعلى نبْتها الشجر

فإذا تقدمنا فى هـذا القسم وجدنا المناقضة تأخذ لوناً طريفاً يكاد يكون وطنياً ، فالأخطل ينفى قيس عيلان عن بلاد الجزيرة مجال المنافسة الاقتصادية بين قيس وتغلب ، وكان الحديث ، منصبا على بنى سُليم خاصة رهط عُمير بن الحباب قال الأخطل :

فأصبحتْ منهـمُ سِنجار خالية والمُحلِبيَّات فالخابور فالسُّرَر
كرُّوا إلى حَرَّتَيْهم يعمرونهما كما تَكُرُّ إلى أوطانِهـا البقر
فالتفتوا وهمْ يحنون حنظلهم إلى الفُرات فقلنا : بُعدَ مانظروا

فأتى جرير فحبس صاحبه فى بلاد الجزيرة مَغيظاً مُحنَقاً ، ونفاه عن بلاد مضر أنجاده وأغواره إذا كان الأخطل تغلبياً من ربيعة ، قال جرير : —

موتوا من الغَيظ غَمًّا فى جزيرتكم لن تقطعوا بطنَ واد دونه مُضَرُ
إنى نفيتك مِن نجد فمـا لـكم نجدٌ وما لك مِن غَور به حجر

وهكذا استطاع جرير أن يظفر بالأخطل فى الفخر ، وكان فيه أصيلا مجلياً ، لا مدَّعيا ولا ممتنا مستجديا .

(د) وقد شغل الهجاء حَيِّزاً كبيراً فى هاتين النقيضتين وظهر فيه التحدى والتسابُّ ووقف به كل للآخر بالمرصاد ينهشه هو ومن يتصل به ، وتعدى الأمر إلى النساء وتصويرهن صوراً قبيحة شائنة فيها من سِمات الفقر ، والفحش ، والخمر ، والدنَس وإن كانانت دون ما وجدنا فى نقائض جرير والفرزدق .

هجا الأخطل قيس عيلان عامة واختص بنى سليم منها بنصيب خاص ، فرماهم بالغدر ، والضلال ، وكُفر النعمة حتى زالت عنهم ونفوا من بلاد الجزيرة : —

فلا هدى الله قيسا من ضلالتهم ولا لعاً لبنى ذكوان إذ عثروا
ولم يزل بسُـليم أمر جاهلهـا حتى تعايا بهـا الإيراد والصدَر
حتى أصاب سُلَيما من عداوتنا إحدى الدواهى التى تخشى وتُنتظر
كـانوا ذوى إمّةٍ حتى إذا عِلقت بهم حبائل للشيطان وابتهروا
صُكُّوا على شارف صعب مراكبها حصَّاء ليس لها هُلب ولا وبر

obeikandl.com

ويستمر ينفيهم حتى عن قيس نفسها ويمتن على الخليفة بقتلهم عمير بن الحباب السلمى يوم الحشاك ويصف ما حل به ساخراً شامتاً : —

يُعرِّفونك رأس ابن الحباب وقد ... أضحى وللسيف فى خيشومه أثر
لا يسمع الصوتَ مُستَكًّا مسامعه ... وليس ينطق حتى ينطق الحجر
أمست إلى جانب الحشاك جيفته ... ورأسُه دونه اليحموم والصور
يسأله الصُّبْرُ من غسّان إذ حضروا ... والحَزنُ : كيف قراك العِلْمَة الجشرُ

ثم يتقدم إلى زفر بن الحارث الكلابى وفساد خلقه ونفاقه الذى سرعان ما تبدو آثاره ، وذلك حين مال الأمويون إلى الصلح مع القيسية إقراراً للأمن فى بلاد الدولة الإسلامية ، ويذكر معه زفر بن الحارث السلمى ، جاهل سليم ، على حد تعبير الأخطل : —

بنى أميـــةَ إنى ناصح لكمُ ... فلا يبيتنَّ فيـــكم آمناً زُفر
وأتخذوه عدواً إن شاهده ... وما تغيّب من أخلاقه دَعَرُ
ولم يزلْ بسُليم أمرُ جاهلها ... حتى تعايا بها الإيراد والصدَر

فيتقدم إليه جرير ليخزيه بذكر هذين الزعيمين القيسيين وما نالا من تغلب فى أيام قيس على تغلب جامعاً بين الفخر بقيس وهجاء تغلب فيقول : —

إنى رأيتـــكمُ والحقُّ مُغضِبةٌ ... تَحزَون أن يُذكرَ الجحّافُ أو زُفَرُ
قوماً يرُدُّون سَرح القوم عاديةً ... شُعثَ النواصى إذا ما يُطردُ العكرُ
قادُوا إليكم صدورَ الخيـل مُعلَمةً ... تَغشى الطِعانَ وفى أعطافِها زَوَرُ
كانت وقائعَ قُلنا لَن يُرى أبداً ... من تغلب بعـدها عينٌ ولا أثرُ

وكانت طريقة المناقضة هنا هى التوجيه إذ فسر كل ما يتصل بزفر والجحاف تفسيراً ملائماً لموقفه .

ثم نجد جريراً يرد على الأخطل ما قال فى قيس عيلان : —

ضَجُّوا من الحرب إذ عضَّت غوارَبهم ... وقيسُ عيلان مِن أخلاقها الضجَرُ
ما إن سعى منهمُ ساعٍ ليدركنا ... إلا تقاصَرَ عنّا وهو مُنْبَهِرُ

فقال جرير : —

هَلاَّ سكتُّمْ فيخفَى بعضُ سوءَتِكم ... إذ لا تَغَيّرُ فى قتلاكُم غِيرُ
فما منعتُم غداةَ البِشرِ نِسوَتكمْ ... ولا صبرتم لقيس مثل ما صَبروا
تهجون قيساً وقد جذَّوا دوابرَكم ... حتى أعزَّ حصاكَ الأوسُ والنَمِرُ

يُعَيِّر تغلب بما نكّل بهم القيسيون وينصح لهم بالعدول عن مهاجاتهم والتسامى إليهم .

ويلتفت الأخطل إلى كليب بن يربوع وتختص بنى غُدانة اليربوعيين بنصيب خاص من هجائه المقذع ، فيقول فى الأولين : —

أمّا كُلَيبُ بنُ يربوع فليس لهم ... عند التفارُطِ إيرادٌ ولا صَدَرُ
مُخلّفون ويقضى الناسُ أمرَهمُ ... وهم بغَيبٍ وفى عمياءَ ما شَعروا
مُلَطّمون بأعقار الحِياضِ فما ... ينفكُّ من دارميٍّ فيهمُ أثرُ
على العِيارات هدّاجون قد بلغت ... نجرانَ أو بلغت سوآتِهم هَجَرُ
الآكلونَ خبيثَ الزادِ وحدهمُ ... والسائلون بظهر الغيب : ما الخبر

فرمى كليباً بالهوان ليس لهم مشاركة فى تدبير الأمور، يقضى الناس فى شئونهم دون أن يعرفوا منها أمراً ، ذليلون مؤخرون ، يحتكم فيهم بنو دارم ويستذلونهم ، يركبون الحمير ويمشون الليل للسرقة والفجور ، بلغت سوآتهم الآفاق ، بخلاء

خبيثو الزاد لا يحضرون المنتديات حيث يجتمع الأعيان وتدبر الأمور .

فنهض جرير يرمى بنى تغلب بنحو هذه الأوصاف ويزيد شؤمهم ، ولؤمهم، وتقاليدهم الدينية : —

أرجو لتغلبَ إذ غبَّتْ أمورهمُ ألا يُبارَكَ فى الأمر الذى ائتمروا
خابَت بنو تغلب إذ ضلَّ فارُطهم حوضَ المكارم ، إن المجد يُبْتَدَر
كانت بنو تغلب لا يَعْـلُ جدُّهم كالمهلَكين بذى الأحقاف إذ دَمروا
صبَّتْ عليهم عقيمٌ لم تزل بهم حتى أصابهم بالحاصب القَدَر
تسربلوا اللؤم خَلقاً من جلودهم ثم ارتدوا بثياب اللـؤم واتَّزروا
رجسٌ يكون إذا صلوا ، أذانُهم قرع النواقيس لا يدرون : ما السوَر
الظاعنون على العمياء إن ظعنوا والسائلون بظهر الغيب ما الخبر
والآكلون خبيث الزاد وحدهم والنـــازلون إذا واراهم الخمر

لم يكن جرير موفقاً فى نقضه فلم يزد كثيراً على ما رماه به خصمه ، وكان أسلوبه فى المناقضة هنا قلباً أو رداً لمعانى الأخطل عليه ، ولم يبتكر شيئاً ذا خطر .

فإذا وصـل الأخطل إلى بنى غُدانة بن يربوع رهط وكيع بن أبى سـود وإخوة كليب بن يربوع شبههم بصغار الغنم المزنّمة القـذرة ووصفهم بالذل ، والبخل ، والقذارة ونساءهم بالرجس والدنس : —

وما غُدانةُ فى شىء مكانَهمُ الحابسو الشاء حتى يَفضُلَ الثُّوَرُ
يتصـــلون بيربوع ورفدُهمُ عنـــد التفاخر مغمورٌ ومحتقَرُ
صُفْر اللحى مِن وَقود الأدخِناتِ إذا ردَّ الرِفادَ وكفَّ الحالبِ القِرَر
ثم الإياب إلى سـودٍ مُدَنَّسةٍ لا يستحِين إذا ما احتكّت النُّقَر

وأقسمَ المجـــدُ حقاً لا يُحالفهم حتى يحالِفَ بطنَ الراحةِ الشعَرَ

ولم يسكت جرير عن نساء تغلب كما لم يسكت عن بعض سماتهم الاجتماعية من خمر وميسر : —

والتغلبية فى ثِنْيَيْ عَباءتِهـــا بَظْرٌ طويلٌ وفى باع ابنها قِصَرُ
من كل مُخضَرَّةِ الأنيابِ فغَّرها لحم الخنابيص يَغلى فوقه السَكَرُ
الضاحكون إلى الخنزير شهوتَه يا قُبِّحَتْ تلك أفواهاً إذا كشروا
والمقرِعون على الخـنزير مَيسِرَهم بئس الجزورُ وبئس القوم إذ جزروا
أحياؤهم شَرُّ أحيـــاء وألأمه والأرض تلفِظ موتاهم إذا قُبروا

ثم يختم نقيضته ببيت كبيت الأخطل معنى و إن تقابلا فإذا كان المجد بريئاً من بنى غدانة فإن اللؤمَ حليف تغلب : —

يا خُزرَ تغلبَ إن اللؤمَ حالفكم ما دام فى مارِدِينَ الزيتُ يُعتَصَرُ

(ه) أما عن فن الشاعرين فى هذه المناقضة فيلاحظ أن الأخطل كان حراً فى اختيار البحر والقافية إذ كان هو البادىء فاضطر جرير أن يتابعه فيهما ، وفى إمكان الأخطل أن ينفق من الوقت ما يشاء فى تنميق قصيدته بعكس جرير الذى يجب عليه أن يسرع فى الرد قبل فوات الأوان ، ذلك إلى أن الفرزدق حر فى اختيار الفنون وعفو المعانى والأساليب فلا يجد جرير شيئا ذا خطر فيردّد أو يولّد أو يقع على أهون المعانى والصُوَرِ وذلك يجعل البادىء أقوى مكانة كما حدث هنا فجاء جرير متخلفاً لولا ما سنده من فخر ممتاز . ويتبع ذلك حرج موقف جرير هنا كما كان محرجاً مع الفرزدق فى الفصل الماضى ، فهو هنا قيسى يرد على شاعر الدولة وليس فى مكنته معارضة السياسة التى استغلها خصمه ، بل كان عليه

مجاملة قيس عيلان مع اضطراب صلتها بالخلافة ، فلما ضاقت عليه المذاهب التجأ إلى الفخر القبلي يتنفس من جانبه . هذا هو الوضع العام أجملناه هنا لنفصله فى الفصل الآتى .

و بعد هذا نجمل لكل شاعر منهما خواصه فى نقيضته :

١ — أحسن الأخطل تقسيمَ قصيدته وتنسيقَ فصولها فجاءت خالية من الاضطراب واختلاط الفنون كما رأيت ، ولكن جريراً ظهر عنده الاضطراب والخلط بين النسيب والهجاء والفخر كما لم يحسن التخلص . ولا شك أن الأخطل كان يحكم فنه و يتأنى فيه بخلاف جرير ، وربما كان للرواية أثر فى اضطراب نقيضته كما هو واضح من حاشية هذا الديوان .

٢ — وأما عن الأسلوب ، فالأخطل صَنَاع ماهر وجرير طبعى عادى ، تجد ذلك فى اختيار الأخطل ألفاظه مثل : خفّ واستُبِدَّ وضمنَتها ، وفى تكوين الجمل ، و إحكام عناصرها بالروابط ، وفى إكمال المعنى وتحديده بكثرة الصفات والصُوَر كما فى وصفه الخمر ووصفه نفسه بأنه مخمور أو معمود أو مسحور ، وفى أخذه خير معانى السابقين وأنسبها ثم هذه الصور البديعة كالتفريع ، وتركيز المعانى فى البيت الواحد فكان شعره دسماً .

وكان جرير دون الأخطل فى ذلك كله فجاء شعره خفيفاً جميلا ، وربما كان أسلوبه أدخل فى فن الشعر و بخاصة النسيب والفخر ، ونجد عنده اقتضاب المعانى وقلة الصور فنسيبه دعاء ، فتقرير ، فجدل ، فتقرير ، مما يدل على السجية المطلقة غير المحكمة ، ولا شك أن الصنعة وعبادة الشعر تجعل منه أسلوباً جزلا رصيناً

محبوك الأطراف وهو أسلوب الأخطل ولكنها تحدُّ من جماله لقوة أثر التفكير وضعف سلطان العاطفة فتضعف الموسيقا تبعاً لذلك .

٣ — وقد استوعبت قصيدة الأخطل أكثر فنونه أو كلها فكانت ممثلة لشخصيته الفنية ولكن قصيدة جرير قصرت دون ذلك، فقد رأينا نسيب الأخطل ، وخمرياته ، ومدحه ، وفخره . وهجاءه ، ورأينا من جرير نسيبه وفخره وهجاءه دون مدحه ورثائه ، فكان الأخطل أوسع أفقاً وأعرض منكباً .

٤ — وقد كان للحياة الإسلامية مظاهرها عند الشاعرين موضوعياً وفنياً ، أو خارجياً وداخلياً ، ومن الأصل الأول هذه الدولة الإسلامية الجديدة التي نرى عند الشاعرين رسولها ، وخليفتها ، وأسرها ، وقبائلها ، وهذه الأحزاب السياسية المؤيدة والمعارضة والتي كان لكل من شاعرينا فيها موقفه المعروف وهذه الحروب الإسلامية بين قيس وتغلب وقد شرحناها فيما مضى ، وهذه العصبيات الجزئية داخل القبائل كما كان بين دارم ويربوع وما حالف كلا منهما .

ومن الأصل الثاني هذا الموقف بين الإسلام والنصرانية وكان واضحاً جداً عند جرير ، ويتبع ذلك ذكر الرسول ورضاه على المسلمين وسخطه على الكافرين وخروج تغلب عن طاعته وحياتهم في بلاد الجزيرة يؤدون الجزى فكان الرسول مقياساً عند جرير وكان الخليفة سنداً للأخطل ، وكانت خمريات الأخطل من فنونه لشيوع تناولها في بيئته مباحة فاتخذها جرير سبة لتغلب وخلق من آثارها صوراً قبيحة لنساء تغلب ورجالهم .

وكلا الشاعرين تأثر بالقرآن الكريم مباشرة وغيرذلك وإن كان تأثر جرير أوضح لإسلامه ، وتدينه ، ورقة طبعه فذكر الأخطل الصغر ،

وتبيّن الضلالة ، والأشر ، والله ، وخليفته ، ويتهذب أسلوبه ، وتتحضر معانيه[1] .

وجرير يضمن شعره معانى القرآن ، ويذكر السور ، ويشير إلى قصة عاد ويصفيها على تغلب : —

كانتْ بَنو تغلب ، لا يعلُ جدهم كالمهلكين بذى الأحقاف إذ دمَروا
صُبَّت عليهم عقيم ما تُناظرهم حتى أصابهم بالحاصب القدَر

وذلك قوله تعالى : « وفى عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم ما تذر من شىء أتت عليه إلا جعلته كالرميم » . ذلك إلى رقة أسلوب جرير ، ومهاجمته المسيحية مما يجعل منه رجلا مسلماً ألم بالقرآن وتأثر بأساليبه .

وللاسلام أثر سلبى عند الأخطل خاصة فلم يجرؤ على مهاجمته إذ كان دينَ الدوله التى يحالفها ، ويحتمى بسلطانها ، ويعيش فى ساح خلفائها ، فسد ذلك عليه السبيل أمام جرير فى هذه النقطة .

٥ ـ وقد لاحظنا أثناء الدرس أن جريراً أخذ من الأخطل عدة صور ، وعبارات ، ومعان ومردُّ ذلك استحسانها ، أو سبق الأخطل إلى عفوها ، أو لردها عليه ، وقد بينا ذلك أثناء الدرس ولا سيما فى الهجاء حين أعاد جرير فى تغلب ما قال الأخطل فى كليب بن يربوع .

٦ ـ وخلاصة هذا الدرس أن جريراً يمتاز بالفخر فى هذه المناقضة امتياز الأخطل بالمدح من حيث انفراد كل بفن ، ويستويان فى الهجاء والنسيب ،

---

(١) راجع المختار من شعر بشار ص ٩

فكلاهما نال من الآخر وقومه ، وأفحش إلى درجة يساوى بها زميله . وأما النسيب فإن شعور جرير فيه وجمال أسلوبه يوازيان صنعة الأخطل وتعدد صوره .

ويمتاز الأخطل بحسن التقسيم ، وتجويد الأسلوب ، وجزالته كما يمتاز جرير بجمال الأسلوب وخفته ، وعلى كل فإن كان الأخطل أفضل من صاحبه فى هذه المناقضة فإن ذلك لا يعد حكماً عاماً ولا حاسما بينهما .

— ٧ —

ويمكن للدارس هنا أيضاً أن يتابع النظر فى هذه النقائض ليظفر بثمار قيمة تتصل بمواقف الشاعرين، وشخصيتهما الفنية ، وصلاتهما بالأسر والقبائل والأحزاب والدولة ، وبالقدر الفنى لكل من الشاعرين فى هذه النقائض . سيرى ، إن صحت رواية أبى تمام ، أن موقف جرير كان دفاعاً إلا فى بدء المناقضة فكان هجوماً وإن دفعه إلى ذلك انضمام الأخطل إلى الفرزدق فى حضرة بشر بن مروان . ولذلك أثره الموضوعى والفنى كما سبق ، كما كان الأخطل ضعيف الموقف من جانب الدين ، والدولة ، لولا ما احتضنه الأمويون لغرض سياسى أيام معارضة القيسية للدولة ، كذلك يلاحظ أن جريراً ، على الرغم من دفاعه ، كان موفقاً فى كثير من المواطن كالنونية التى هاجم بها الفرزدق والأخطل ، واللامية : —

حَيِّ الغداة بِرامةَ الأطلالا رَسْماً تحمَّل أهلُه فأحالا

وفى اللامية المضمومة : —

ودِّع أمامةَ حانَ مِنك رَحيلُ إن الوَداع مِن الحبيبِ قليلُ

واللامية الأخيرة : —

أجِدَّ اليومَ جِبرُتك احتمالا ولا نَهوَى بذى العُشر الزيالا

وغيرها . ذلك إلى ما أشركه مع الفرزدق وغيره فى النقائض الكبرى .

— ٨ —

وإذا وازنا بين هذه النقائض وبين سابقتها التى دارت بين جرير والفرزدق ، استطعنا أن نخرج بعدة نتائج ندوّن بعضها هنا :

١ — كانت نقائض جرير والفرزدق أطول عمرا من زميلتها فإذا فرضنا أنها بدأت سنة خمس وستين وانتهت بموت جرير والفرزدق سنة عشر ومائة كان عمرها خمساً وأربعين سنة ، أما هذه فقد بدأت سنة اثنتين وسبعين وانتهت سنة خمس وتسعين بوفاة الأخطل فيكون عمرها ثلاثاً وعشرين سنة ، وكل ذلك تقدير تقريبى كما قدمنا .

٢ — ويتبع ذلك أن تكون نقائض جرير مع الفرزدق أكثر عددا ، ولكنها مع ذلك كانت أكثر أبياتاً . وأقوى فناً ، وأحفل بذكر الأيام والأحداث والأوصاف ، وذلك لفحولة الشاعرين ، وقوتهما ، ومعرفتهما التامة بدخائل تميم وقيس ، وقرابتهما ، وغزارة المادة التى يقبسان منها فهى سياسة ، وعصبية ، وأيام ، وأحداث ، وضغائن ، ووقوف فى صميم الحياة الإسلامية ودولتها . أما الأخطل ، فعلى كبر سنه كان يعيش مع قومه على هامش الدولة ، وتحت نفوذها ، ولم تكن لقومه مواقف خطيرة فى سياستها العامة ، وأظهر ما كان ، أيامها مع قيس التى هبّت فترة ثم سكنت حتى قال بعض النقاد إن الأخطل لم يكن من نجار صاحبيه وإنما تعصبت له تغلب .

٣ — وكان جمع نقائض جرير والفرزدق مصحوبا بعناية واضحة فى تمام القصائد وترتيبها ، بخلاف هذه فقد ظهر فيها الحذف والاضطراب كأن أبا تمام اعتمد على الاختيار كما فعل فى حماسته ، وقد لاحظنا فى هذه النقائض أن

هناك قصائد لجرير فى هجاء الأخطل كانت تستوجب النقض ولكننا لم نجد لها عند الأخطل نقائض[١] كما لاحظنا قصائد للأخطل فى جرير كانت تستلزم النقض ولم نظفر عند جرير بنقائضها[٢] ولا شك عندنا أن قسما كبيرا من شعر هؤلاء الفحول ضائع مع الأسف الشديد .

٤ — وفى نقائض جرير والأخطل عناصر جديدة كعنصر الدين الذى ألح عليه جرير وشنع على الأخطل من ناحيته فى حين أن الأخطل وقف أمامه مكتوف اليدين لا يستطيع فيه جدلا ، وكذلك عنصر الخمريات ذلك الفن الذى اختص به الأخطل وجرؤ عليه دون زميليه وكان تلميذ الأعشى فيه وأستاذ أبى نواس ومدرسته ، ومسألة الجزى التى تؤديها تغلب للدولة الإسلامية فكثيراً ما غمز بها جرير صاحبه ، وكانت شخصية تغلب وأيامها مع قيس عيلان مادة لهذه النقائض وذات مكانة ممتازة فيها إذ كانت هاتان القبيلتان مجال الملاحاة بين الأخطل وصاحبه .

٥ — أما عن شرح هذه النقائض ، فكان مرجواً أن يتناول أبو تمام شرح هذه النقائض شرحاً أدبياً ولكنه لم يفعل ، ولعل ذلك لسببين : أولهما أن هذا الشرح الأدبى لم يكن معروفاً ولا محتاجاً إليه فى تلك الأيام اعتماداً على إدراك العلماء لمغازى هذه النصوص ، وثانيهما أنه تأثر أبا عبيدة فى تناوله نقائض جرير والأخطل فلم يعرض لهذا الجانب الأدبى ، لذلك وجدنا شرحاً لغوياً لهذين الديوانين ناقصاً لا يشفى غليلنا اليوم .

---

(١) راجع ديوان جرير للصاوى ص ٢٠ و ٥١ و ١٠٦ و ١٤٥ و ١٥٦ و ٣٠٣ و ٣٥٤ و ٣٥٨ و ٣٩٤ و ٤٨٧ و ٤٩٤ و ٥١٢ و ٥١٩ و ٥٤١ و ٥٧٧ و ٥٩٣ .

(٢) راجع ديوان الأخطل ص ٦٥ و ١٥٦ و ٢٠٢ و ٢٢٠ و ٢٧٥ و ٢٧٨ و ٢٨٤ و ٣٩٩ .

ومع ذلك فقد امتاز شرح أبي عبيدة بكثرة لغوياته وغزارتها وإن لم تكن دقيقة دائماً ، كذلك كثرت شروح بعض العبارات عنها في شرح أبي تمام .

وأما الأيام ، والحوادث السياسية ، والاجتماعية ، والقصص ، والأنساب ، وما إليها فلن يُجارَى في ذلك أبو عبيدة ، وليس أبو تمام بجانبه شيئاً ، وإن كان يترجح أنه استفاد منه كثيراً .

على أن نشرَ نقائض جرير والفرزدق كان حظها في النشر خيراً من حظ الأخرى لتعدد أصولها ، وكثرة شروحها ، والدقة في إصلاحها ، وتوفر طبقة من المستشرقين على العناية بها .

* * *

وإذا كنتُ قد تركتُ النقائض الأولى وفي نفسي منها أشياء ، فإني أترك هذه وفي نفسي منها أشياء أخرى تتصل بترتيبها ، وفنونها ، وملابساتها السياسية والاجتماعية والأدبية ، وإكمال نقصها ، وشرحها شرحاً أدبياً كافياً .

ومن يدري فلعل أحد الباحثين ينهض بذلك فيتم ما بدأنا ويتعقبنا فيما عسى أن يكون قد فاتنا في هذا الباب .

الفصل الثامن

فن النقائض الأموية

— ١ —

نريد بفن النقائض الأموية هذه الخواص التى امتازت بها هذه القصائد فى أرقى عصورها ، ودرجة نُضْجِها الفنى فى تاريخ الأدب العربى ، وقد قلنا فيما مضى إن هذا الفن بدأ حياته مع طفولة الشعر العربى ، واستقامت قناته قبل الإسلام ، حتى إذا كان عصر البعثة نشطت حياته بين مكة والمدينة خاصة ، وكان أداةً إسلامية عالية الصوت ، بعيدة الأثر ، وكان فى كلا العهدين طوابعه الموضعية والغائية كما رأيت . فلما جاء العصر الأموى توافرت له دوافع وأغراض قوية ، وعوامل جديدة ، قفزت به إلى مستوى ممتاز له خصائصه الفنية .

وهذه الخصائص أو الميزات بعضها خاص بهذا العصر بحيث ينفرد به ، وبعضها غالب عليه كثر فيه ونما نمواً عظيما كالجدل ، والأدب المكشوف ، وتمزيق الأعراض ، وهتك الحرمات ، وبعضها تلوّن فيه ألواناً جديدة كالنسب الذى اختلط بالهجاء ، ومثله الرثاء ، وكالموازنات فى الفخر ، وغير ذلك مما يلى . وسنحاول هنا بيان الخواص العامة لهذا الفن أولا ، ثم ميزات كل من هؤلاء الفحول ثانياً .

وقد ذكرنا فى التمهيد شرائط النقائض عامة ، وطرقها المعنوية ، وكلا هذين يدخل فى كيان النقائض وتكوينها الفنى ، ولكننا فى هذا الفصل نتقدم خطوات أخرى داخلية لنتبين ما أحدثت البيئة الأموية فى فن النقائض مكتفين ببعض

الشواهد معتمدين على متابعة القارىء دراسته بالرجوع إلى دواوين النقائض التى وصفناها فى الفصلين السابقين .

١ — أول ما يبدو من هذه الميزات ظهور السمات الإسلامية ظهوراً أصيلا فى هذا الفن و إن كان فحوله أقل تأثراً بالإسلام وكتابه من غيرهم كشعراء الخوارج مثلا ، إذ كان من المقرر أن جريراً والفرزدق عاشا عيشة بدوية تقرب من الحياة الجاهلية فيها شراب ، وتسابّ ، ومفاخرة ، و إشادة بالأحساب الأنساب ، و إذكاء للحمية على تفاوت بينهما فى ذلك ، وكان الأخطل مسيحياً فلم يكن كزميليه فى هذه الخاصة . وكان التأثر منوعاً بين تضمين آى القرآن ، أو أحكام الإسلام أو مسايرة روحه ، والفخر به ، و إنكار ما عداه كالمسيحية وشعائرها ، ودخلت هذه المعانى فى صلب النقائض فخراً وهجاء أو فيما لا بسهما من نسيب ورثاء . وكان دخولها يبدو مهضوماً واضحاً فى نفوس الشعراء أكثر مما رأيناه فى شعر البعثة المحمدية حيثما كانت هذه السمات سطحية أو مصطلحات تتردد على ألسنة الشعراء لم تمتزج بنفوسهم تماماً لجدتها ، ولأصالة المواهب الجاهلية عندهم بحيث يصعب انتزاعها أو تغييرا تاماً .

فإذا رحنا نلتمس الشواهد على هذه الظاهرة وجدناها كثيرة شائعة فى شعر هؤلاء الفحول ، قال الفرزدق فى صدر نقضية له لأمّية : —

إن الذى سمكَ السماء بنى لنا بيتاً دعائمه أعزُّ وأطول

من قوله تعالى : « أأنتم أشد خلقاً أم السماء بناها ، رفع سمكها فسواها »[1]

ضربتْ عليكَ العنكبوت بنسْجها وقضى عليكَ به الكتاب المنزل

---

(١) سورة ٧٩ آية ٢٧ و ٢٨ .

من قوله تعالى : « مثل الذين اتخذوا مِن دون اللهِ أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً ، وإن أوهنَ البيوتِ لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون »[١] .

و يقول فى نقيضة أخرى : —

فإن التى ضَرَّتكَ لوذقتَ طعمَها عليكَ من الأعباءِ يومَ التخاصمِ

من قوله تعالى : « ثم إنكم يومَ القيامة عند ربكم تختصمون »[٢] .

ولستَ بمأخوذ بلغوٍ تقوله إذا لم تعمّد عاقدات العزائم

من الآية : « لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ولكنْ يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان »[٣] .

كما بعث الله النبى محمداً على فترةٍ والناس مثل البهائم

من قوله تعالى فى المائدة : « يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل » .

وهذه قصة الفيل يتمثلها الفرزدق فى هذه النقيضة متحدثاً عن الحجاج وطغيانه[٤] ومعها قصة ابن سيدنا نوح حين عصى أباه وقال : « سآوى إلى جبل يعصمنى من الماء ، قال لا عاصمَ اليومَ من أمر الله من رَحِمَ ، وحال بينهما الموج فكان من المغرقين »[٥] : —

فلما عتا الحجّاج حينَ طغى به غِنًى ، قال : إنى مرتقٍ فى السلالم

فكانَ كما قال ابن نوحٍ سأرتقى إلى جَبل من خشيةِ الماء عاصم

رَمى الله جثمانه مثل ما رمى عن القبلة البيضاء ذات المحارم

جنوداً تسوق الفيل حتى أعادها هباءاً ، وكانوا مُطرَخِمىَّ الطراخم

نُصرتَ كنصر البيت إذ ساق فيلَه إليهِ عظيمُ المشركين الأعاجم

---

(١) ص ٢٩ : ٤١ . (٢) ص ٣٩ : ٣١ . (٣) ص ٥ : ٨٩ .
(٤) ص ١٠٥ . (٥) ص : ٤٢ و ٤٣ .

وزعم القرزدق فى حضرة الحسن البصرى أن شعره مشتمل على أحكام فقهية ؛ فقد سأل رجل الحسنَ عن المرأة يصيبها الرجل فى المغازى وهى ذات زوج : أفيحل له غشيانها ولم يطلقها زوجها ، وكان الفرزدق حاضراً فقال : أو ما سمعتَ ما قلتُ فى ذلك ؟ قال الحسن : فما قلت ؟ قال الفرزدق :

وذاتِ حَليل أنكحَتنا رماحُنا حلالٌ لمن يبنى بها لم تُطَلَّقِ

ونحو هذه الحكاية رويت فى البيت السابق :

ولستَ بمأخوذ بلغو تقوله إذا لم تعمّد عاقدات العزائم

ذلك غير الاصطلاحات الإسلامية الكثيرة الواردة فى نقائضه والإشارات إلى قصص القرآن الكريم ، كالصلاة والصوم والحساب والبعث وقصة يأجوج ومأجوج والسامرى ، ثم مالابس الإسلام من خلافة ، وإمارة ، وسياسة ، ومضرية ، وقريش ونحوها ، وإن كان تأثره هذا عقلياً أكثر منه قلبياً فإنه كان كثير التحلل من شعائر الدين جريئاً على حدوده منتهكا حرماته .

وكان جرير أشد تأثراً بروح الإسلام وكان لالتحامه مع الأخطل يحمل على المسيحية وينكر شعائرها ، فقد أشار أيضاً إلى قصة أصحاب الفيل حين أرادوا هدم الكعبة :—

لما رأوا جَمَّ العَذابِ يُصيبُهم صار القُيونُ كساقةِ الأفيالِ

ورمى الفرزدقَ والبعيث بالغدر إذ لا يقرآن سورة الأحبار :

إن البَعيث وعبد آلِ مُقاعِسٍ لا يقرآن بسورةِ الأحبارِ

وهى قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا أوفوا بالعُقود »[1] .

---

(١) نفسه ص ١:٥ .

واقرأ رثاءه زوجه تجد روح الإسلام مسيطرة عليه ودعواته واضحة ناطقة :

فجزاكِ ربُّكِ فى عَشيرِكِ نظرةً ... وسقَى صداكِ مُجلجِلٌ مِدْرارُ
ولَهتِ قلبىَ إذ علَتْنى كَبْرَةٌ ... وذَوُو التمائم مِن بَنيكِ صِغارُ
كانت مكرَّمةَ العشير ولم يكنْ ... يخشَى غوائلَ أمِّ حزرةَ جارُ
ولقد أراكِ كُسيتِ أجملَ منظرٍ ... ومع الجمالِ سكينةٌ ووقارُ
والريحُ طيّبةٌ إذا استقبلتِها ... والعِرض لا دنِسٌ ولا خوّارُ
صلى الملائكةُ الذينَ تُخيِّروا ... والصالحون عليكِ والأبرارُ
وعليكِ مِن صلوات ربك كُلَّما ... نَصبَ الحجيجُ مُلبِّدين وغاروا[1]

فإذا اشتبك مع الأخطل شنّع بمسيحيّته وشعائرها فقال من نقيضة :

قبَح الإلَهُ وجوهَ تغلبَ كلما ... شبَحَ الحجيجُ وكبروا إهلالا
عبَدوا الصليبَ وكذّبوا بمحمّدٍ ... وبجبرئيل وكذّبوا مِيكالا[2]

وسخر بها فى نقيضة أخرى فقال :

أفبالصليبِ ومارِ سَرجِسَ تَتّقى ... شهباءَ ذاتَ كتائبٍ جمهورا[3]

وقال :

مافيكمُ حَكَمٌ تُرْضى حكومتُه ... فى المسلمينَ ولا مستشهدٌ شارِ
قوم إذا جمعوا جمعاً لحجّهم ... صرُّوا الفلوسَ وحجُّوا غيرَ أبرارِ
لم تَدرِ أمك بالحكمِ الذى حكمت ... إذ مسَّها سُكرٌ مِن دَنِّها الضارى
تَغلى الخنانيصُ والغولُ الذى أكلت ... فى حاوِياوَى رَدومِ الليل مجْعارِ[4]

---

(١) النقائض ص ٨٤٧ .
(٢) نقائض جرير والأخطل ٨٧
(٣) نفسه ص ١٢٥ .
(٤) نفسه ص ١٤٢ .

وقال :

فعليك جزية معشرٍ لم يَشهدوا ... واللهِ أن محمـــــداً لرسولُ
تبِعوا الضلالةَ ناكبينَ عن الهُدَى ... والتغابيّ عن القُران ضَـــلول
يقضى الـكتاب على الصليب وأهله ... ولـكُلِّ مُـــنزَل آيةَ تأويل
إن النبوّةَ والخـلافةَ والهدَى ... رَغمٌ لتغلبَ فى الحياة طويل
خالفتمُ سبلَ النبوّةِ فاخضَعُوا ... بجزَى الخليفة والذليلُ ذليل (١)

وليس من المعقول أن ينجو الأخطل من تأثير الإسـلام وكتابه الـكريم وهو يأخذ عن هذه اللغة التى هذبها القرآن ، ويحيا فى بيئة إسلامية تأخذ عليه أقطار دنياه ، ويتلاحى مع زملاء مسلمين ، ويعيش فى بلاط الخلفاء الإسلاميين، ويكاد يكون كزميليه لولا أصل عقيدته المسيحية فدخلت فى شعره الألفاظ والمعانى الإسلامية مدحاً وهجاء فى السياسة والعصبية ، من ذلك قوله فى مدح عبد الملك من نقيضة :

إلى إمامٍ تُعادينـــــا نوافـــله ... أظفرَه الله فليهنأ له الظفـرَ
الخائض الغمر والميمـون طائره ... خليفـة الله يُستسـقى به المطَر
فى نبعةٍ من قريش يعصبون بها ... ما إن يوازى بأعلى نبتها الشجرُ
حُشْدٌ على الحقِّ عيافو الخَنا أُنُف ... إذا ألمّتْ بهم مكروهةَ صبروا

وهكذا تجد فى سائر الأبيات كثيراً من معالم الإسلام وشئون حكومته الأموية، ويقول لبنى أسَدٍ :

فما خُتِمتْ أكتافـكم لِنبُوّةٍ ... وأستاهُـكم قد أنكرتْها المنَابرُ

---

(١) نفسه ص ١٨٤ .

والحق أن الأخطل كان مغموراً بهذا المحيط الإسلامى فكان يتنفس فيه ويتفاعل معه ، حتى ضعفت الصبغة المسيحية فى شعره لولا أبيات نادرة تُعَدُّ أيضاً أثراً عكسياً لهذه الحياة الإسلامية : —

ولستُ بصائم رمضانَ طوعا ولستُ بآكل لحم الأضاحى
ولست بقائم أبداً أنادى كمثل العَير حى على الفلاح
ولكنى سأشربها شمولا وأسجد عند منبلج الصباح (١)

وقد منعه عن مهاجمة الإسلام هذه الحكومة الإسلامية التى تظله وتحميه كما منعه عن مهاجمة مضر أنها أصل قريش والأسرة الحاكمة . وهكذا رأينا الإسلام يبدو فى التقائض بمظاهر شتى طردية وعكسية وكان ظهوره فيها أمراً طبيعياً ليس منه مناص .

٢ — وهناك ظاهرة قد تبدو غريبة فى هذه البيئة الإسلامية القوية هى الإفحاش فى الهجاء والإقذاع فيه إلى درجة تشمئز منها النفوس ، وتنكرها الأخلاق الفاضلة ، والتعاليم الدينية ، وتستحى الألسنة أن تردد نصوصها وإن كانت الدراسة العلمية والتاريخية مضطرة أن تتناول كل شىء فيه حتى لا يفوتها عنصر من مقومات هذا العصر الأدبية والاجتماعية ، وكانت هذه الملاحاة والمناقضة تحمل كلا من الشاعرين على الغلو فى هتك حرمات الآخر ، ونهش أعراضه ، والتشنيع بمخازيه ، حقاً أو تخييلا واختراعاً حتى لتعد هذه الصور خطوة جريئة ، وأمراً غريباً فى ظل الإسلام لم تر الجاهلية مثله أبداً إلاّ إذا صحت أبيات منسوبة لزهير ابن أبى سلمى ، على أنها إذا صحت كانت نشازاً أدبياً فى ذلك العصر القديم ، أما

---

(١) ديوان الأخطل ص١٥٤

فى هذه الفترة فكانت المناقضة البذيئة عنصراً هجائياً أصيلا ولا سيما بين جرير والفرزدق ، و إذا لاحظ بعض النقاد الأمويين خطر غزل عمر بن أبى ربيعة على نساء الحجاز إذ ذاك فلا شك أن هذا الفحش العراق كان مسبة شنيعة يستخزى منه النساء والرجال جميعاً . كان خطر الغزل العمرى ناشئاً ، فيما أرى ، عن أنه يوقظ غرائز المرأة ، و يثير شهواتها ، و يغرى الرجال باللهو والعبث . وكان خطر الفحش الهجائى ناشئاً عن تصوير العورات ، واختلاق الشناعات ، والإلحاح فى وصفها ، وسرد تفاصيلها بلغة مكشوفة ، وأسلوب واقعى ، ليس أسلوب الجاحظ فى النثر شيئاً بجانبه ، فعاد قبيحاً شنيعاً ، كان عمر يحبب المرأة إلى رجل ، وكان الهجاءون يبغضونها إليه ، وقد نال جعثن أخت الفرزدق وأم جرير من ذلك أذى كثير ، و إنا لنرمز إلى شىء من شواهد ذلك ، وعلى من أراد تبين هذه الصورة رجع إلى دواوين الفحول ونقائضهم ففيها حقائق ماوصفنا ؛ هذه أم جرير يقول فيها الفرزدق . —

أزرى بجزيكَ أن أمك لم تكن ... إلا اللئيم من الفحوله تُفحَلُ
قبح الله مقرة فى بطنها ... منها خرجت وكنت فيها تُحمَلُ
نشفت بمخّ أبيك فهى خبيثة ... وبها إلى قعر المقرّة يضهل
يبكى على دمن الديار وأمه ... تعلو وضبه العبد. وتسفل [1]

وهذه حِقّة امرأة من غدانة من يربوع يقول فيها الفرزدق : —

وقفتْ لتَرْجُزنى فقلتَ لها ابركى ... ياحِقُّ أنت وما جمعتِ الأسفلُ
وكشفت . . . . . .

النقائض ص ٢٠٣ .

. . . . . .

وتركت أمك ياجرير كأنها . . . . . .

وكأنما . . . . . النباح فثيتل [1]

ويقول فى نساء بنى كليب : —

سُودُ المحاجرِ سَيِّئٌ لبَّاتُها من لُؤْمِهِنَّ غيرَ حَلالِ

يعوين مختلط الظلام كما عوت خلف البيوت كلابها لعِظال

يرفعن أرجلهن عن مفروكة مق الرفوغ رحيبة الأجوال

تلقى . . . . . بغال

يَسْلَحْنَ . . . . . الإنزال [2]

ولم يكن جرير دون صاحبه سفاهة بل كان أشد فحشا وأبلغ فى الإقذاع وربما نشأ ذلك عن تكالب الشعراء عليه ، وهوان حسبه ، وشدة انفعاله ، حتى تولد فى نفسه مايدعى (مُرَكَّبُ النقص) وصار لا يحتمل من أحد غمزاً ولا مسبة فإذا هاجمه شاعر ، أو أعان عليه شخص ، أو نقده ناقد أنشب فيه جرير مخالبه ونهش عرضه ، ونشر مخازيه أو ابتدع له منها ماشاء خياله الخصب وتصويره العجيب . . أنظر إليه يهاجم الفرزدق من ناحية (جعثن) : —

وافاك غدرك بالزبير على منى ومجر جعثنكم بذات الحرمل

بات الفرزدق يستجير لنفسه وعجان جعثن كالطريق المعمل

أسلمت جعثن إذ يُجَرّ برجلها والمنقرىُّ يدوسها بالمنشل

---

(١) ص ٢٠٤ . (٢) ص ١٧٩ .

تهوى استُها وتقول يالَ مجاشِعٍ ومَشَقُّ نُقبتِها كعين الأقبَل
لو . . . أمك بعد أكل خزيرها لتُعدّ مثـــل فوارسى لم تفعَلِ
فى مُزبد غمقٍ كأنّ . . . . خلُّ المجازةِ أو طريقُ العُنصُلِ[1]

ويقول فى بنى ضِرار : —

إذا ما كنتَ ملتمساً . . . . فلا تَعـدِلْ . . . . بنى ضِرارِ
ولا تمنعْـك مِن أرَبٍ لِحاهم ســواء ذو العمامـة والخمـــارِ
وإن لاقيت ضـبّيا . . . . فـكل رجالهم رِخـوُ الحِقـارِ[2]

ويقول فى رهط الفرزدق : —

قبّح الإلهُ بنى خَضَافِ ونِسوةٍ بات الخـزيرُ لهنَّ كالأحقـالِ
مِن كل آلفـةِ المواخر تتّـقى بِمُجَرَّدٍ كمجَرَّدِ البَغّـــالِ
قامت سُـكَينةُ للفحول ولم تقم بِنتُ الحُتاتِ لِسُـورة الأنفالِ
ودّتْ سُـكينةُ أن مسجدَ قومِها كانت ســواريه أُيورَ بِغَالِ[3]

وكان الأخطل دون صاحبَيه فى هـذا النوع من السباب ، ولعلّ مرجِعَ ذلك خشيتُه أن يهاجمَ نساءَ المسلمين فى دولة إسلامية ترعاه ، أو يخلط مدائحه فى الخلفاء بهذا السباب ، أو يتورط فى شىء لا يلائم طبعه فقلّت فى شعره هذه الصور القبيحة وعدنا نعثر على نحو قوله فى جرير : —

إذْ كان منزلُكَ المرُّوتَ مُنحجِزاً يا ابنَ المراغةِ يا حُبَـلَى بِمختارِ
جاءتْ به مُعجلاً غِبَّ سابعـةٍ من ذى لهَالِهَ جَهمِ الوجهِ كالقارِ

---

(١) النقائض ص ٢٣٢ .
(٢) نفس المرجع ص ٢٤٩ . (٣) ص ٣٢١ .

أمّ لئيمةُ نجـل الفحلِ مُقرِفَةٌ أدّتْ لفَحلٍ لئـيم النجل شخّارِ[1]

وعلى نحو قوله فى بنى غدانة من يربوع : —

ثم الإيابُ إلى سُـــودٍ مُدَنَّسَةٍ لا يَستحين إذا ما احتكّت النُقَرُ[2]

ونحو قوله : —

فلا تدخُل بيوتَ بنى كُلَيْبٍ ولا تقـــــربْ لهمْ أبداً رِحالا
ترى فيهـــــا لوامعَ مُبرِقاتٍ يكَدْنَ ..... بالحدَق الرجالا
قَصيراتُ الخطَا عن كُلِّ خَيرٍ إلى السَّـوءات مُسْمِحَةً عِجالا[3]

وقد أدّى ذلك إلى تبيّن أشـد ما هجيت به كل قبيلة أو طائفة ، فقد روى عن بنى كليب زعمهم أنهم لم يُهجو بشىء أشد عليهم من قول البَعيث : —

وكل كُلَيبىٍّ صَفيحةُ وجهِهِ أذلُّ لأقدام الرجالِ من النَّعـلِ
وكل كُلَيبى يقـــود أتانَه له حاجة مِن حيث تُنفِرُ بالحَبْلِ

وزعمت بنو مجاشع أنهم لم يُهجو بشىء أشد عليهم من قول جرير : —

وبَرَحْرَحانَ غداةَ كُبِّلَ مَعبدٌ نُكحتْ نِساؤكمُ بغـير مهور

وقال جرير : ما هجينا بشىء قط أشد علينا من قول الأخطل : —

ما زالَ فينا رِباطُ الخيـل مُعلَمَةً وفى كُليبٍ رِباطُ الذُل والعَارِ
قومٌ إذا استَنبَح الأضيافُ كلبَهم قالوا لأمهم : بُولى على النـارِ

قال جرير : لأنه هجانا من وجوه شتى : أما أحدها فإنه جعل أمّنا خادمنا ،

---

(١) نقائض جرير والأخطل ص ١٣٩ . (٢) نفس المرجع ص ١٦٥ .
(٣) ص ١٩٠ .

وأما الثانى فأمرنا إياها أن تطفىء النار مِن ضيف يتنوَّر بها ، والثالث أن تفتح ... والرابع بُخلُ القِرى . وزعم الفرزدق أنه لم يُهج بشىء قط أشد عليهم من قول جرير : —

ودّتْ سُكينةُ أن مسجدَ قومِها كانت سواريه أُيورَ بِغالِ

قال الفرزدق : فوالله ما دخلتُ مسجداً قط إلا ذكرتُ هذا من قوله إذا نظرت إلى سواريه[1] . وكان جرير يقول عن قوله فى بنى تغلب : —

والتغلبى إذا تنحنَح للقِرى حكَّ استَه وتمثّل الأمثالا

قلتُ لهم بيتاً لو طُعن أحدهم فى استه لم يحكّها ، ولما قال جرير فى بنى نمير : —

فَغُضَّ الطَرفَ إنّكَ مِن نُميرٍ فلا كعباً بلغتَ ولا كِلابا

قالوا : والله لودِدنا أننا افتديناه بأملاكنا .

٣ — هذه الواقعية وذلك الهجاء العارى المكشوف بدا فى عدة مظاهر : فى هذه الألفاظ المفردة التى تدل على معانيها دلالة حقيقية سافرة لا رمزَ فيها ولا كناية، وهذا رأينا مثله فى نثر الجاحظ ، وفى كتاب الحيوان خاصة ؛ فقد وجدت هؤلاء الفحول يؤدون العورات بألفاظها الحقيقية دون موار بة بل يختارون من أسمائها أدلها على الفحش وأقربها إلى الابتذال .

وفى الصور تجد العُرى والسفورَ شنيعاً قبيحاً حسياً كما رأيت الأخطل يصف نسوة كليب ، وكقول جرير : —

---

(١) النقائض ص ١٠٥٢ .

نَزَتْ أمُّ الأُخيطِل وهى نَشْوَى ... على الخِـــنزيرِ تحسَبه غَزالا
تظلُّ الخمــرُ تخلِجُ أخدَعَيها ... وتشــكو فى قوائمها امذلالا
من المتولّجاتِ على النَشاوَى ... ولم تَلِجِ الخدورَ ولا الحِجالا[1]

وكقوله السابق : —

والتغلبيُّ إذا تنحنح للقِرَى ... حَكَّ استهُ وتمثــل الأمثالا[2]

وكانت الواقعية تبدو أحيانا كثيرة فى المعانى فهذا الفرزدق يلتجىء إلى عمرو بن لجأ ليعرف منه مثالب بنى جعفر بن كلاب وما يُهجون فلما أخذها عنه هجاهم بها فى قصيدته التى يقول فيها :

ونُبِّئْتُ ذا الأهدامِ يَعوِى ودونَه ... مِن الشام رَرّاعاتُها وقصورها
إلىَّ ولم أترُك على الأرض حيَّــةً ... ولا ناجحاً إلا استَسَرَّ عَقورها
عوَى بِشَقاً لا بنَى بَحير ودوننا ... نَضادِ فأجبالُ السنارُ فنــيرُها
ونبئتُ كلبَ ابنى حُميصة قدعوَى ... إلىّ ونارِ الحرب تغلى قُدورها[3]

٤ — ومع هذه الواقعية كان هناك خيال خصب يبتكر الصور ، ويبالغ فى المعانى ، ويخترع الوقائع والحوادث غير آبه بما يرتكب فى سبيل ذلك من كذب وبهتان ، فمع اعتراف جرير بصلاح (جِعْثن) وعَفافِها نجدُه شنع بها ، وعرضها عرضاً قبيحاً ، ونجد الفرزدق يخترع قصصاً غرامية شتى كتلك القصة التى وضعها على امرىء القيس (دارة جُلْجُل)[4] وقصة زوجه حَذْراء بنت زيق بن بسطام ابن قيس الشيبانى التى تزوجها على النوار وما انتهت به حياتها مما يشبه (الدراما)[5] وقد علمتَ فيما مضى قصة جعثن وأنها حادث يسير لا خطر فيه ولنكن انظر كيف صوّرها جرير ، وأطنب فيها ، وأكثر مناظرها ، وشنع بها : —

(١) نقائض جرير والأخطل ص ١٩٥ . (٢) نفس المرجع ص ٨٩ .
(٣) النقائض ص ٩٠٧ . (٤) نفسه ص ١٠٠٥ . (٥) نفس المرجع ص ٨٠٣ — ٨١٠ .

نسيتُمْ عُقرَ جِعثِنَ واحتبيتُم ألا تَبًّا لِفخرِكَ بالحبـــاتِ
وقدْ دَميتْ مواقعُ رُكبتَيها من التَبراكِ ليس من الصـلاة
تبيتُ الليلَ تُسلَقُ إسكتاها كدأبِ الترْكِ تَلعبُ بالكُراتِ
وحطّ المِنقَرىُّ بهـا فقرتْ على أمِّ القفا والليـــلُ عاتِ
تنادى غالباً و بنى عِقـــالٍ لقـد أخزيتَ قومك فى النُداة
وجـــدنا نِسوةً لبنى عِقالٍ بدارِ الذُّلِّ أغراضَ الرُماةِ
غوانٍ هُنَّ أخبثُ مِن حَمـير وأمجنُ مِن نساء مُشركاتِ
وســـوداء المجُرَّد مِن عقالٍ تبايع مَن دنا خُذها وهات[1]

وكان هـذا رداً على ما صور به الفرزدق نسوة بنى كليب وأم جرير إذ يقول : —

جَزِعتَ إلى هجاءِ بنى نُمير وخلّيت استَ أمك للرُماةِ
فأبصرْنى وأمك حينَ أرمى مَشقَّ عِجانها بالنافِرات
وتُمسى نسوةٌ لبَنى كُليب بِأَفـــواه الأرقّة مُقعياتِ
زَوايا سكة نبتت حـــديثاً بأخبث نبتَة شرِّ النبات
بأحراح خبيثاتِ الملاقى شمِطْنَ وهُنَّ غيرُ مُختّنات
يبِعنَ فروجهُنَّ بكلِّ فَلسٍ كبيع السوق خُذْ مِنِّى وهات
تخالُ بُظورَهن إذا أُنيختْ على ركباتِهنَّ مخوِّيات
أيورَ الخيل قد سقطت خصاها بأطراف المفـاوز لاغباتِ
كبِرْنَ وهنَّ أزنى مِنْ قرود وأبجسُ مِن نِساء مشركات[2]

---

(١) النقائض ص ٧٧٨ .

(٢) النقائض ص ٧٧٢ .

٥ — الميل إلى الاستقصاء ، وحشد الأيام والحوادث والأسماء مما جعل النقائض سجلا تاريخياً لصفات القبائل وأيامها وحوادثها ورجالها المشهورين وما ألم بحياتهم من مواقف كريمة مجيدة أو وضيعة ذليلة ، وقد أشرنا إلى ذلك فى الفصلين السابقين ونحن نعرض النقائض ، وكان ذلك أمراً طبعياً ، فكل شاعر حرَص على أن يحشد فى جانب قومه فضائلهم وأيامهم ومواقفهم وأمجادهم وأن يضع بجوارها مثالب خصمه وهزائم رهطه ومخازيهم وجبناءهم إلى غير ذلك مما تقتضيه مواقف التحدى والمفاخرة وكان علينا أن نكتفى بالإشارات السابقة ولكننا نلم هنا ببعض الشواهد الجزئية خدمة لهذه الدراسة الفنية ، قال جرير فى بنى ضبة أخوال الفرزدق : —

يا ضبّ قد فرغت يميني فاعلموا ... طُلُقاً وما شغل القيون شِمالي
يا ضبّ علّى أن تصيب مواسِمى ... كوزاً على حنَق ورهطَ بِلال
يا ضبّ إنى قد طبخت مجاشِعاً ... طبخاً يزيل مَجامعَ الأوصال
يا ضبّ لولا حينكمْ ما كنتمُ ... غرضاً لِنبلى حينَ جدّ نِضالى
يا ضبّ إنكم البِكارُ وإننى ... متَخمطٌ قطمٌ يخافُ صيالِى
يا ضبّ غيركم الصميمُ وأنتمُ ... تبعٌ إذا عدّ الصميمُ مَوالى
يا ضبّ إنكمُ لِسَعْدٍ حِشْوَةٌ ... مثل البكار ضَممتها الأغفالِ
يا ضبّ إنّ هوى القيونِ أضلّكمْ ... كَضلالِ شيعة أعو الدجال[1]

وهكذا أخذ يستقصى جرير مثالب ضبة وينظمها فى هذه النقيضة الطويلة ، وقال الفرزدق فى ميميته المشهورة يسرد من أيام وحوادث : —

ويوم جعلنا الظلّ فيه لعامرٍ ... مصمّمة تفأى شئونَ الجماجم
فمنهنّ يومٌ للبُرَيكين إذ ترى ... بنو عامر أن غانمٌ كلُّ سالم

(١) نفس المرجع ص ٣٢٢ .

ومنهن إذ أرخى طُفيلُ بنُ مالك ... على قُرْزُلٍ رَجْلَى رَكوض الهزائم
ونحنُ ضربنا من شُستير بن خالد ... على حيثُ تستسقيه أمُّ الجماجم
ويوم ابن ذى سيدانَ إذ فوَّزت به ... إلى الموت أعجاز الرماح الغواشم
ونحن ضربنا هامةَ ابن خُوَيلد ... يزيدَ على أمِّ الفراخ الجواثم
ونحن قتلنا ابنى هُتيم وأدركتْ ... بَحيرا بنا ركض الذكور الصلادم
ونحن قسمنا من قُدامةَ رأسَه ... بِصدْع على يافوخه متفاقم
وعمرا أخا عوف تركنا بملتقًى ... من الخيل فى سام من النقع قاتم
ونحن تركنا من هِلال بن عامر ... ثمانين كهلا للنُسور القشاعم
بدهنا تميم حيث سُدَّتْ عليهم ... بمعترك من رملها المتراكم
ونحن مَنعنا من مَصادِ رِماحَنا ... وكنَّ إذا يلقينَ غير حوائم (١)

ويأخذ الفَرزدق فى ذكر رجاله الأمجاد فى نقيضته اللاميه وغيرها واجداً فى ذلك مدداً خصباً ، وفخراً عريضاً ، وجلالا عالياً : —

بيتاً زُرارةُ محتَبٍ بفنائه ... ومجاشعٌ وأبو الفوارس نَهشلُ
يلجون بيت مجاشع وإذا احتبوا ... برزوا كأنهم الجبال المُثَّل
وإذا دعوتُ بنى قُقيم جاءنى ... بَحر له العدد الذى لا يعدَلُ
وإذا الربائع جاءنى دُفَاعها ... موجاً كأنهم الجراد المرسل
هذا وفى عَدَوِيّتى جُرثومةٌ ... صعب مناكبها نِياف عَيطل
وإذا البراجم بالفُروم تخاطروا ... حولى بأغلبَ عزُّه لا ينزل

---

(١) ص ٣٨٥ وراجع ص ٢٣٢ و ٤٨٤ و ٦٠٧ و ٦٢٥ و ٦٢٧ و ٧٢١ و ٧٤٩ و ٨٥٢ و ٨٤٤ .

وإذا بذختُ ورايتى يمشى بها سفيانُ أو عُدس الفعال وجندل
الأكثرون إذا يعَدُّ حصاهم والأكرمون إذا يُعد الأول[1]

وكذلك عدد طبقات الشعراء الذين أورثوه الشعر[2] و بقول جرير : —

أبنو طُهَيَّةَ يعدِلون فوارسى و بنو خَصافِ وذاك مالم يُعدَل
و إذا غضبتُ رمى ورائى بالحصى أبناء جندَلتِى كخير الجندل
عمرو وسعد يا فرزدق فيهم زُهرُ النجوم و باذخات الأجبلِ[3]

٦ — و إذا كانت المناقضة طويلة العهد ، كثيرة العدد ، فإنها تستنفد المعانى بسرعة وتستغرقها بحيث يفرغ الشعراء ما فى جُعبهم فى عدد قليل منها ، لذلك عمدوا إلى التكرار ، وترديد المعانى ، والأيام ، والأحداث ، فالأخطل يكرر أيام قومه على قيس ، ومآثر دارم ، ومثالب كليب ، والفرزدق يفعل ذلك بالأيام والرجال . وأما جرير فقد لاحظ النقاد إلحاحه على الفرزدق بمعانى الزبير ، وجعثن والقيون ، والزنى ، والنفى من المدينة ، والسيف وكأنهم عدوا ذلك قصراً فى هجائه وضيقاً فى مجاله ، وقد أشار ابن الأثير إلى ذلك وناقشه فى المثل السائر (ص ٤٩٠ بلاق) . كذلك ردد مع الأخطل الخمر ، والكفر ، والجزَى ، وقذارة نسوة تغلب ، وهزائم رجالهم[4] .

يقول جرير فى نقيضته : —

فلو أيامَ جعثن كان قومى هُمُ قوم الفرزدق ما استجارا

---

(١) النقائض ص ٢٢٨
(٢) ص ٢٠٠ (٣) ص ٢٢٤
(٤) راجع نقائض جرير والفرزدق ص ٣٢٣ و ٣٥١ و ٣١٨ و ٣٩٨ و ٤٣٩ و ٤٨٠ و ٥٤٢ و ٥٩٠ و ٨٥٢ ونقائض جرير والأخطل ص ٨٧ و ١٢٥ و ١٧١ .

فظل القينُ بعد نكاح ليـلى يُطير على سِبالـكم الشرارا[1]

ويقول فى أخرى : —

لاقيتَ أعينَ والزَبيرَ وجعثناً أعدالَ مُخزيَة عليك ثِقالِ

ودعا الزبير مجاشعاً فترمَّزتْ للغدر ألأم آنُف وسِبال[2]

ويقول للأخطل فى قومه : —

عبدوا الصليبَ وكذَّبوا بمحمد وبجبرَئيلَ وكذبوا ميكالا[3]

ويقول فى نقيضة أخرى : —

أفبالصليب ومارِ سَرْجِسَ تتّقى شهباء ذاتَ كتائب جمهُورا[4]

٧ — وإذا كان الفخر والهجاء أهم فنون النقائض فقـد غلبا على القصائد أولا ، ثم وردا فيها مختلطين ثانياً بحيث تجد الأبيات المتجاورة جامعة بين الفنين دون فصـل أو تنسيق ، بل تجد البيت الواحد يجمع بين الفنين ، وذلك لأن الفرزدق مثلا يفخر بتميم ويهجو بنى كليب ثم يضع مآثر تغلب وتميم أمام مثالب قيس ويربوع ويقرن المعانى معاً ويوازن بينها ، وكذلك جرير يفخر بيربوع وقيس ليهجو تغلب ودارما ، والأخطل يخلط بين الفخر بقومـه وهجاء قيس وهكذا . نعم رأينا فيما مضى أن الأخطل كان يحسن تقسيم قصيدته وتصنيفها أحياناً فيتأثره جرير فى ذلك ، كالرائية التى مدح بها عبد الملك ، ونقضها عليه جرير .

يقول جرير للفرزدق فى مصرع قتيبة : —

فغيرُك أدى للخليفة عهـدَه وغيرُكَ جلَّى عَن وُجوهِ الأهاتِم

---

(١) ص ٢٥٢ . (٢) ص ٣١٨

(٣) نقائض جرير والأخطل ص ٨٧ . (٤) نفسه ص ١٢٥ .

فإن وكيعاً حينَ خارتْ مُجاشعٌ ... كفَى شَعْبَ صَدْعِ الفتنةِ المتفاقِمِ
لقد كُنت فيها يا فرزدقُ تابِعاً ... وزيشُ الذُنابَى تابعٌ للقوادِمِ
نُدافِعُ عنكمْ كلَّ يومٍ عظيمةٍ ... وأنتَ قُراحِيٌّ بسيفِ السكواظمِ
أجُبناً وفَخْراً يا بنى زَبدِ استِها ... ونحنُ نَشُبُ الحربَ شِيبَ المقادِمِ (١)

فخر بيربوع ، وهجاء لمجاشع ، وفخر ثانيـة ، وهجاء ، ثم فخر فى خمسة أبيـات .

وهذه الصورة غير لازمة بهذه الدقة ، فقد تجتمع أبيات الفخر وحدها ثم أبيات الهجاء وحدها . ولـكنك تجد أبيات فخر ، فأبيات هجاء ، فأبيات فخر ثم عودة إلى الهجاء وهكذا . وقد تجد نسيباً وقصصاً خلال ذلك أو فى ديباجة القصيد ولـكنه نسيب قوى من الفخر والهجاء بل قد يكون أحدهما نوعاً من النقائض أيضاً كما قدمنا .

٨ — وكانت الجزالة هى الطابع الغالب على النقائض الأموية ، و إذا كانت الجزالة تقابل الرذالة والإسفاف اللفظى فقد نجا شعر هذه المناقضة من هذه الرذالة وزاد فخامة وقوة نشأت عن طبيعة الفخر والهجاء وعن شخصيات الشعراء وفحولتهم التى بلغت ذروتها فى الشعر العربى على عهد الأمويين . ويمكن تبين هذه الجزالة إذا وازنا بين النقائض و بين الشعر الغزلى والشعر السياسى فى هذه الفترة ذاتها ، فقد امتاز الغزل بالرقة الجزلة ، وامتاز الشعر السياسى بالسهولة والوضوح ثم القوة أحياناً ، وكان لهذه الموضوعات أثر واضح فى أساليب الشعر وعباراته وصوره (٢) ولـكن يلاحظ

---

(١) النقائض ص ٣٩٩ .

(٢) راجع تاريخ الشعر السياسى للمؤلف فى مواطن خواصه الفنية ، وكتاب الأسلوب للمؤلف أيضا فى فصل اختلاف أساليب الشعر .

بجانب ذلك أيضاً أن هذه الجزالة كانت من طبع جرير والفرزدق والطرماح وغيرهم ، ومن صنعة الأخطل وعبادته الشعرَ ، شأنه فى ذلك شأن زهير و بنيه والحطيئة ممن كانوا يعدون قصيدهم فى أناة ، وقصد ، و إحكام . وهـذه الملاحظة غالبية فلم يخل شعر الأخطل من طبع كما لم يخل شعر أصحابه من جهد ومشاق (١)

ولعلنا لا نحتاج إلى الاستشهاد لهذه الخاصة فكل شعر النقائض شواهد على ذلك ، تجد ذلك عند الفرزدق فى مثل قوله : —

إن الذى سمك السماء بنى لنـــا بيتاً دعائمـــه أعزُّ وأطولُ
بيتاً بناه لنا المليكُ وما بنى حكمُ السماءِ فإنه لا يُنقلُ
أحلامنا تزن الجبالَ رزانةً وتخالنا جِنًّا إذا ما نجهلَ
فادفَع بكفّكَ إن أردت بناءنا ثهلانَ ذا الهضبات هل يتحلحلُ (٢)

وعند جرير فى نحو قوله : —

ألسنا نحنُ قد علمتْ مَعَدٌّ غداةَ الرَوعُ أجدرَ أن نَغَارا
وأضربَ بالسيوفِ إذا تلاقتْ هوادى الخيل صاديةً حرارا
وأحمدَ فى القِرى وأعزَّ نصراً وأمنعَ جانباً وأعزَّ جارا (٣)

وصنعة الأخطل ظاهرة جداً فى رائيته التى تشبة حوليات زهير بن أبى سلمى ومنها قوله : —

حُشد على الحقِّ عيّافو الخنا أنُفٌ وإن ألمّت بهم مكروهةٌ صبروا
لا يستقلُّ ذوو الأضغانِ حربَهمُ ولا يُبَيَّنُ فى عيدانِهم خوَرُ

---

(١) راجع النقائض ص ٤٢٧ — ٤٣٢ عن جرير وص ٥٤٦ — ٥٤٨ عن الفرزدق . ونقائض جرير والأخطل ص ١٣٤ . (٢) النقائض ١٨٢ — ١٨٥ . (٣) نفسه ٢٥٣ .

شُمسُ العداوةِ حتى يُستَقادَ لهم وأعظمُ الناسِ أحلاماإذاقدروا[١]

٩ — ومسألة المعانى تحتاج إلى ملاحظة خاصة ، وإنما أقصد بالمعانى هنا الأفكار والحقائق النظرية والواقعية ، فإلى أى حد تصح هذه الأفكار التى دارت فى النقائض الأموية ؟ وهل كميتها تكفى لملء هذه الدواوين الضخمة ؟ وإذا كان هناك اختراع وافتراء فهل يجوز ذلك فى هذا الباب ؟ أما عن كميتها فقد قلنا من قبل: إنها كانت قليلة فاضطر الشعراء إلى تكرارها ، نعم إن هذا التكرار كان فى صور مختلفة أحياناً ولكنها صور ضاقت عن التنوع الكافى والتجديد المقبول[٢] وأما عن صحة هذه المعانى فقد رأيت جريراً مثلا يرمى جعثن بغير حق ، والفرزدق يشنع بأم جرير تشنيعاً باطلا ، والأخطل يفخر بأيام ليست له . وأما عن ذلك البهتان والمبالغة فكان التوجيه يبرر بعضها كمعانى السيف ، وأسر حاجب ابن زرارة ، والغدر بالزبير بن العوام ، وادعاء يربوع يوم ذى قار ونحو ذلك . على أن الكذب فى الشعر لا يتسع لكل ما ادعى هؤلاء وحادوا فيه عن جادة الصواب .

وهناك هذه الأفكار القيمة والحكم الخالدة ، ولا أراها كثيرة تلائم كثرة النقائض بل هى قليلة إلا أبياتاً سائرة صارت مثلا معروفة وإلا أبياتاً مضمنة حكما قرآنية كقول الفرزدق : —

ولستَ بمأخوذ بلغو تقوله إذا لم تَعمَّد عاقدات العزائم

على أن الأفكار القيمة ، والنظريات الاجتماعية ، والحقائق المقررة إنما كثرت

---

(١) نقائض جرير والأخطل ص ١٥٥

(٢) راجع المثل السائر لابن الأثير طبع بولاق ص ٤٩٠ وما والاها

فى الشعر العربى بعد ذلك العهد وحين تقدمت الحضارة العباسية فأثمرت أبا تمام وأبا العتاهية ، وابن الرومى ، والمتنبى ، والمعرى وأضرابهم .

١٠ — وهل كانت العواطف التى بعثت هذه النقائض كلها ، فكانت بغضاً وحنقاً فى الهجاء ، وكانت حباً ووهاً فى النسيب ، وكانت تحدياً وتعالياً فى الفخر أكانت عواطف صادقة ؟

كان نسيب جرير كما لاحظنا طبيعياً مع عفافه ، بمعنى أنه كان يصور حب الرجل للمرأة أو هذا الشعور الإنسانى الطبعى الذى يستكن فى نفس الرجل نحو المرأة لذلك كان رقيقاً شجياً بخلاف نسيب الفرزدق فكان صنعة أو جافياً غليظاً ليست فيه رقة جرير ولا صدقة وكذلك الأمر فى الأخطل وكان فخر الفرزدق بقومه صادقاً طبيعيا وكذلك فخر جرير بقومه أمام تغلب و بيربوع أمام درام . بقى فخر جرير بقيس والفرزدق بتغلب ، والمفروض أنه لا يبلغ درجة سابقه فى الصدق والقوة ، ولكن الذى بعث فيه الحياة موقف التحدى والملاحاة بين المتناقضين . وكان هجاء جرير عاطفياً عنيفاً يمثل السخط الحقيقى ويؤدى هذه الرسالة التى بعثه بها أهله إلى المربد يذود عنهم كل من هجاهم ، وسيأتى القول فى ذلك . ولكن المسألة التى نريد التنبيه عليها الآن هى أن هذه المهاجا قد استحالت أحياناً إلى نوع من العبث الفنى والمباراة الأدبية لا غير دون أن تعبر عن حقد أو سخط يدلنا على ذلك تلك القصة التى نلقناها عن ابن خِلِّكان [1] حين قصد الرصافة جرير والفرزدق إلى هشام بن عبد الملك مرتدفين على ناقة ، فنزل جرير لقضاء حاجته فجعلت الناقة تتلفت فضربها الفرزدق وقال : —

---

(١) جـ ١ ص ٣٠٠ من وفيات الأعيان .

إلامَ تلفَّتينَ وأنتِ تحـــتى وخـــيرُ الناس كلهـمُ أمامى
متى تردى الرصافة تـستريحى مِن التهجير والدَبَر الدوامى

ثم قال : الآن يجىء جرير فأنشده البيتين فيقول : —

تلفَّتُ أنهـــا تحت ابن قين إلى الـكِيرَين والفأس الـكَهام
متى تردُ الرُصافةَ تخزَ فيهـــا كخزيك فى المواسم كلَّ عام

فجاء جرير ، والفرزدق يضحك ، فقال : مايضحكك يا أبا فِراس ؟ فأنشده البيتين الأولين ، فأنشـده جرير ، البيتين الآخرين ، فقال الفرزدق : والله قد قلتُ هذا . فقال جرير : أما علمت أن شيطاننا واحد ؟ !

إذا صحت هـذه الحـكاية دلت على أن المناقضة كانت فى بعض الأحيان تستحيل صنعة فنية كما يفعل المتبارون فى الغناء والملاحاة بالمواويل ، دون حقد ، بدليل ما كان يعرف كل لصاحبه من قيمة فنية .

١١ — وهناك قوة الجدل والتحام الشعراء بالملاحاة فى المعانى والأحداث وعناية كل بالاحتجاج لنفسه وتأييد وجهة نظره حتى فى الأمور المقررة التى لاتقبل جدلا كضربة الرومى وأسر حاجب بن زُرارة ، وهذا الجدل كان حتما ليظفر كل بالنصرة لنفسه ولرهطه فى هـذه البيئة الثائرة الناقدة التي تلتقط كل كلمة يقولها شاعر ، من ذلك ماقال الفرزدق فى لاميته : —

إن الذى سمكَ السماء بنى لنـــا بيتاً دعائمه أعزُّ وأطـــولَ

قال له جرير : —

أخزى الذى سمكَ السماء مجاشعاً وبنَى بناءكَ فى الحضيض الأسفلِ
بَيْتاً يُحَمَّمُ قينـكم بفنائه دَنِساً مقاعده خبيثَ المدخـل

ولقد بنيتَ أخسَّ بيت بُيتنى فهدمتُ بيتكمُ بمثلىْ يَذْبُل[1]

ولما قال الفرزدق أبياته فى وراثته الشعر : —

وهبَ القصائدَ لى النوابغُ إذمضوا وأبو يزيدَ وذو القروح وجرولُ[2]

قال له جرير : —

حَسْبُ الفرزدق أن تَسَبَّ مجاشع وبعُدَّ شِعْرَ مُرَقِّش ومُهَلهِل

لما وضعتُ على الفرزدق ميسمى وضعا البعيث جدعتُ أنفَ الأخطل

أعددتُ للشعراء سما ناقِعاً فسقيتُ آخرَهم بكأس الأول

إنى انصببْتُ من السماء عليكمُ حتى اختطفتكَ يافرزدقُ من عَل

من بعدِ صكّتىَ البعيث كأنه خَرِبٌ تنفّجَ من حذار الأجدل

ولقد وسمتُك يا بعيث بميسَمى وضعا الفرزدق تحت حدِّ الكلكل[3]

ولما قال الفرزدق : —

فِدًى لسيوفٍ من تميم وفَى بها رادُنى وجلّت عن وجوه الأهاتِمِ

شفَين حزازات النفوس ولم تدعْ علينا مَقالا فى وفاء للائم[4]

قال له جرير : —

فغيرُك أدى للخليفة عهدَه وغيرُك جلّى عن وجوه الأهاتِمِ

فإن وكيعاً حين خارت مُجاشع كفى شعبَ صدعَ الفتنة المتفاقم

لقد كُنتَ فيها يافرزدقُ تابِعاً وريش الذُنابَى تابع للقوادم[5]

ولما قال ابن مَيَّادة : —

فجرْنا ينابيعَ الكلامِ وبَحرَهُ فأصبحَ فيه ذو الروايةِ يَسبَحُ

---

(١) النقائض ص ٢١٣ . (٢) نفس المرجع ص ٢٠٠ .

(٣) نفسه ص ٢١٨ . (٤) ص ٢٧١ . (٥) ص ٢٩٩ .

obeikandi.com

وما الشعرُ إلا الشعرُ قيسٍ وخِندفٍ ... وقولُ سِواهم كُلفةٌ وتملحُ

قال عقال بن هاشم : ـ

لئن كان في قيس وخِندِفَ ألسُنٌ ... طِوالٌ وشِعرٌ سائرٌ ليس يُقدحُ

لقد خرَّق الحي اليمانونَ قبلَهم ... بحورَ الكلامِ تُستقى وهي تطفحُ[1]

ولما قال الأخطل : ـ

حتى أصابتْ سُليما من عداوتنا ... إحدى الدواهي التي تُخشى وتُنتظر

فأصبحتْ منهمُ سِنجار خاليةً ... والمُحلبيّاتُ فالخابورُ فالسُرَرُ

كرُّوا إلى حَرَّتيهمْ يعمرونَهما ... كما تكرُّ إلى أوطانِها البقرُ[2]

قال له جرير : ـ

موتوا من الغيظِ غمًّا في جزيرتكم ... لن تقطعوا بَطنَ وادٍ دونَهُ مضرُ

إني نفيتك من نجد فما لكمُ ... نجدٌ ، ومالكَ من غور به حَجرُ[3]

وهكذا ، ولم تخل النقائض الجاهلية والإسلامية الأولى من هذا الجدل إذ كان أصلا من أصول المناقضة ، ولكنه جدل لم يبلغ من القوة ، والدقة ، والتربص مبلغه في عهد الأمويين للرقي العقلي ، ولشدة المحادة ، ولعناية النقاد والناس جميعاً بهذا الفن وارتقابهم الفائز فيه ، ذلك فوق العصبيات الحادة ، والنزعات السياسية ، والمنافسةِ الشعرية التي خضع لها الشعراء .

١٢ ـ على أن كثرة النقائض والتحام الشعراء أدَّى إلى أخذ الشعراء بعضهم من بعض معانيِ وعبارات وأبياتاً ، إما استحساناً لها ، وإما لملاءمتها مقتضى الحال ،

---

(١) الأغاني ج ٢ ص ١٠٨ دار الكتب . (٢) نقائض جرير والأخطل ص ١٥٩

(٣) المرجع السابق ص ١٧٣ .

و إما لسيرورتها ودوراتها على الألسن وشدة تأثيرها فى الأذهان ، فجاءت خلال الكلام عرضاً أو عمداً ، من ذلك اعتزاز الفرزدق بالخلافة والنبوة إذ يقول :

إنَّا و إخوتَنا إذا ماضمَّنا ... بالأخشبين منازلُ التجمير
عرفَ القبائلُ أننا أربابُها ... وأحقها بمناسِكِ التكبير
جعلَ الخلافةَ والنبوة ربنا ... فينا وحُرمةَ بيتِه المعمورِ[1]

وقال جرير للأخطل :

إنّ الذى حرمَ المكارم تغلبا ... جعل النبوّةَ والخلافةَ فينا
مُضرٌ أبى وأبو الملوك فهل لكم ... يا خُزرَ تغلب من أب كأبينا
هذا ابنُ عَمّى فى دِمشقَ خليفةً ... لو شئتَ ساقكمُ إلىّ قطينا[2]

وقال الفرزدق فى اعتزازه ببنى أسد بن خزيمةَ بن مُدركة بن الياس من مضر : —

و إذا بنو أسد رمت أيديهمُ ... دُوَلى ورجّــع قَرمُهم بهَدِيرِ
خشعَ الفِحالة تحتهُ ورأت له ... فضلا على متفضلين كثيرِ[3]

وقال جرير فى ذلك المعنى :

و إذا بنو أسد علىّ تحدّبوا ... نصبَتْ بنو أسدٍ لمن رادانى
والغرُّ مِن سَلَفَى كِنانةَ إنهم ... صِيدُ الرءوس أعزّةُ السلطانِ
مالتْ عليكَ جبالُ غورِ تهامةٍ ... وغرقْتَ حيثُ تناطح البحرانِ[4]

وقال الأخطل فى كليب بن يربوع :

---

(١) نقائض جرير والفرزدق ص٩١٢ (٢) الأغانى ج ٨ ص ٦٠ دار الكتب .
(٣) نقائض جرير والفرزدق ص٩١٤ (٤) نفسه ص٩٠١

الآكلون خبيث الزاد وَحدهم والسائلون بظهر الغيب ما الخبرُ[١]

فقال جرير فى بنى تغلب :

والآكلونَ خبيثَ الزاد وَحدهم والنازلون إذا واراهم الخَمَرُ[٢]

ونحو ذلك كثير بجده من رجع إلى دواوين النقائض .

١٣ — وكان أسلوب الموازنة مِن سمات النقائض الأموية ، لجأ إليه الشعراء للاحتجاج والدقة فى التحدى ، والمقابلة كقول الفرزدق :

أتعدِل أحساباً لئاماً أدِقَّةً بأحسابنا ، إنّى إلى الله راجعُ[٣]

أخذاً من قول جرير :

أتعدِلُ أحساباً كِراماً حُماتها بأحسابِكم ، إنى إلى الله راجعُ[٤]

وقال جرير :

أحسبتَ تومَك بالوقيطِ كيومِنا يومَ الغَبيطِ بِقُلةِ الأرحال[٥]

وقال للأخطل :

هلاَ طعنتَ الخيلَ يومَ لقيتَها طعنَ الفوارسِ مِن بَنى عُقفانِ

فدعِ الحكومةَ لستم مِن أهلها إن الحكومة فى بنى شيبانِ[٦]

ويقول جرير للفرزدق موازناً بين موقفيهما من قيس وتغلب :

فخرتُ بِقيس وافتخرتَ بتغلبٍ فسوف ترى أى الفريقين أربَحُ

فأما النصارى العابدون صَليبَهم فخابوا وأما المسلمون فأفلحوا[٧]

---

(١) نقائض جرير والأخطل ص١٦٤ (٢) نفس المرجع ص١٧٣

(٣) نقائض جرير والفرزدق ص٧٠١ (٤) نفسه ص٦٩٢ .

(٥) نفسه ص٣٠٥ (٦) نقائض جرير والأخطل ص٢٠٨

(٧) نقائض جرير والفرزدق ص٤٠٦

ويقول للأخطل :

انا كلَّ عامٍ جزيةٌ ، تتّقى بها ... عليكَ ، وما تلقى من الذلِّ أبرَحُ

وما زال ممنوعاً لقيسٍ وخِندفٍ ... حِمًى تتخطّاه الخنازيرُ أفيحُ

إذا أخذت قيسٌ عليك وخندف ... بأقطارها لم تدرِ من أين تسرح[1]

فلما سمع الأخطل هذا البيت الأخير قال : لا أين ، سدّ واللهِ عليَّ الدنيا .

فلما أنشد قوله :

فما لكَ فى نجدٍ حَصَاةٌ تعدها ... ولا لكَ فى غَوْرَىْ تِهامةَ أبْطَحُ[2]

قال الأخطل : لا أبالى والله ألا تكون لى ، فتح لى والصليبِ القولَ ، ثم قال : —

ولكنْ لنا بر العـــراقِ وبحرُه ... وحيث ترى القرقورَ فى الماء يَسْبَحُ

إذا ابتدرَ الناس السجالَ وجدتنا ... لنا مقدحًا مجدٍ وللناس مَقـــدح

وإنا لمدودونَ ما بين مَنبِـــجٍ ... فغافِ عمانٍ فالحِمَى لى أفيحُ[3]

١٤ — وكان للنقائض الأموية قيمة ممتازة ، ومنزلة رفيعة ، وصيت بعيد عما كان لها فى الجاهلية وصدر الإسلام وذلك لأمور أشرنا إلى بعضها فى التمهيد ، منها ما كان لهذه النقائض من صلة بالسياسة العامة للدولة الأموية إذ قامت على علاقات القبائل بالدولة والانتصار لها أو عليها كما مضى ، ومنها ما أحيت من عصبيات قبلية اشتد أوارها فأعقب أياماً ، ومنافسات ، وأحداثاً خطيرة استغلها الأمويون فكانت عليهم وبالا كما كان بين قيس وتغلب وبين اليمنية والمضرية وبين الشام والعراق والحجاز وفى داخل القبائل وقد وضحنا ذلك من قبل .

---

(١) نقائض جرير والفرزدق ص٥٠٦ (٢)و(٣) نقائض جرير والأخطل ص XI

ومنها ما أثارت حولها من نشاط نَقْدِىّ قسم العلماء والأدباء ، واللغويين شيعاً، وجَعَلَ من شعراء النقائض أنفسهم نقاداً بعضهم لبعض ، حتى شغل العصر بهؤلاء الفحول وما أقاموا للشعر القديم من دولة ، ثم ما لا بَس ذلك من مثالب أخرى اجتماعية وخلقية تراها فى الفصل التالى . معنى ذلك أن النقائض الجاهلية عاشت فى ظل الأيام ، والإسلاميةَ الأولى عاصرت الغزوات فى حياة الرسول ، وأما الأموية أو الإسلامية الحقة فقد كانت مشغلة العصر، وعمادَ حياته ، وأداة سياسته وصحيفة حياته الأدبية الأصيلة فاستحقت عناية خاصة فى دراستها .

— ٢ —

وكان من الخير أن نفرد كلا من جرير وصاحبيه بدرس مفصل لما لهم من أثر خطير فى تاريخ هـــذا الفن ونضجه ، ولـكننا خشينا أن يكون ذلك أشبه بالاستطراد الذى يعدو على منهج كتابنا هذا فعدَلْنا عن هذه الدراسة المفصلة إلى كتاب آخر يتناول فحول القرن الأول أو شعراءه جميعاً . ومع ذلك فلا بد من الوقوف عند كل منهم وقفة قصيرة تتناول جانبه الفنى المتصل بالنقائض ، ولعل ذلك أنفع لموضوعنا وأوفق لمنهجنا هنا .

ذكرنا الميزات العامة لهذا الفن الأموى، وهى الميزات التى كانت حقاً مشتركاً بين هؤلاء الفحول جميعاً ، ونريد هنا أن نشير إلى بعض الخواص التى امتاز بهـا كل فى هذا الفن ، وما يفرق بينهم فيه لنختم بذلك هذا الفصل الثامن .

(١) ويمكن رد مُقوِّمات جرير التى أثرت فى نقائضه آثاراً خاصة إلى هوان أسرته وفقر قومه بالإضافة إلى أسرة الفرزدق ورهطه فكان يفاخر ويهاجى غير متكىء على مايتكىء عليـه خصمه ، فعمد إلى أخذ معانيه من مثالب خصومه

غالباً لا من مآثر أهله ، فكان بذلك هجّاء مفحشاً سفها أقعده أهله بالمربد لا يكسبهم دنيا سوى سبٍّ مَن سبهم ، فهذا شيء . وشيء آخر هو طبع جرير ورقته وذلك جعل شعره أقل من فخامة الفرزدق أولا ، ويسّر عليه تجويد النسيب والرثاء فغلب زميليه فى هـذين وصار أستاذ النسيب العربى ذلك النوع التقليدى الذى يفتح به القصيد وقد تلمذَ له فى ذلك البحترى . وهناك سبب آخر لهذه الرقة فى النسيب والرثاء هو حسن إسلام جرير فقد هذب نفسه وأكسبه الموعظة الحسنة فجوّد الرثاء ، ثم منعه الزنى والفجور فأصابه بشيء من طهارة النفس وكبت العاطفة الجنسية فصار ينسب متأثراً برقة طبعه ، وبميله الطبعى إلى المرأة ميلا إنسانياً طبعياً دون حاجة ليكون كالمجنون ، وبهذه العاطفة المكبوتة نوعا ما التى فيها شيء من جميل بثينة ، لذلك أسف على أن شغله الهجاء عن أن ينسب نسيبا تحن به العجوز إلى شبابها . ولكن حاجته إلى الرعاية والمال حملته على المدح ، فمدح ابن الزبير ، والحجاج وبنى أمية ، وقيساً وغيرهم حتى يعيش ملحوظ المكانة مكفىّ المئونة . هذا من الناحية العامة .

وأما من حيث صياغته الفنية فقد كان محافظا أكثر من الفرزدق على نسق القصيدة الجاهلى ، إذ غلب عليه الابتداء بالنسيب الرقيق ، وكان نسيبه أحياناً يأخذ شكلين : شكلا خاصاً به مستقلا يرضى به فنه ويعد نفسه ، وشكلا تقضياً يتصل فيه بخصمه ساخراً أو مكذباً ، كما رأينا فى تحليل الميميتين فى مصرع قتيبة بن مسلم إذ نسب جرير لنفسه أولا ثم أخذ ينقض على الفرزدق نسيبه المصطنع . نسيب جرير ، إذاً ، يمكن النظر إليه من وجهين : وجه جاهلى من حيث الابتداء به والتزامه فى أغلب النقائض ، ووجه إسلامى من حيث رقته وعفافه ، ويشبهه فى ذلك ذو الرُّمة الذى كان إسلامياً فى نسيبه وجاهلياً فى وصفه الطبيعة .

وهناك جانب جاهلى فى جرير أو أشد من الجاهلى هو إفحاشه فى الهجاء وهذا يمثل سخطه الذى يحمله على السباب والتعرض للمحارم وذكر العورات. ومع ذلك فقد كان من الناحية العملية صالحًا يخشى الله واليوم الآخر، فكأن سبابه مسألة فنية يضطر إليها دون أن يكون فاجراً أو فاسقاً لذلك هجا الفرزدق بالزنى ومحالفة الأخطل النصرانى، كما هجا الأخطل بكفره، وشربه الخمر، وعدوله عن الإسلام، وأكله لحم الخنزير إلى نحو ذلك.

وميزة أخرى غلبت على شعر جرير هى سهولة إنشائه وعدم تعمله وعبادته الشعر، فجاء فنه طبعيًا سهلا خفيفا مكشوف العاطفة وإن لم يسلم أحيانا من الصنعة والعنت، ومن الغريب أن عنته أنتج أسهل قصائده وهى بائيته فى الراعى.

وهذه الميزة السابقة أكسبت شعره سيرورة حتى جرى على أكثر الألسنة وظفر ببعد الصيت أكثر من زميليه حتى كان أشعر عند العامة كما يقول بعض النقاد، وعلى هذا نفسر الموازنة بين بيت جرير: —

ألستم خيرَ مَن ركبَ المطايا وأندى العالَمين بطونَ راحِ ؟

و بيت الأخطل:

شَمُسُ العداوة حتى يُستقادَ لهم وأعظمُ الناسِ أحلامًا إذا قدروا

والحكم بأن بيت جرير أحلى وأسير، و بيت الأخطل أجل وأرزن.

كذلك يمكن تفسير رواج مرثية جرير لزوجته خالدة بنت سعد حتى نُدب بها على بعض هوالك الفرزدق وهى النقيضة التى مطلعها:

لولا الحياءُ لهاجنى استعبارُ ولزُرتُ قبرَكِ والحبيبُ يزارُ

ولقد نظرتُ وما تَمتُّع نظرة فى اللحد حيث تمكّنَ للمحفار

فجزاكِ رَبكِ فى عشيرك نظرةً ... وسقى صداك مجلجلٌ مـدرار
ولَّهتِ قلبى إذ علتنى كَبْرةٌ ... وذوو التمائم من بنيكِ صغار[1]

ونحو قوله فى النسيب : —

ألا حَيِّ رَهبى ثم حَيِّ المطاليا ... فقد كان مأنوساً فأصبح خاليا
فلا عهدَ إلا أن تَذكّر أو ترى ... ثُماما حَوالَى منصِب الحيم باليا

إلى أن يقول : —

قِفا فاسمعا صوت المنادى لعـله ... قريبٌ وما دانيتُ بالظنِّ دانيا
إذا ما جعلت السيَّ بينى و بينها ... وحرّةَ ليـلى والعقيق اليمانيـا
رغبتُ إلى ذى العرش مولى محمد ... ليجمعَ شعباً أو يقرِّب نائباً[2]

ونحو قوله : ـ

ولو وُزنتُ حلومُ بنى نُمـــير ... على المـــيزان ما وَزنت ذبابا
فغض الطراف إنك من نمـير ... فلا كعباً بلغت ولا كلابا
إذا غضبت عليك بنو تميم ... حسبتَ الناسَ كلهم غضابا
ألسنا أكثر الثقلين رَجْلا ... ببطنِ مِنًى وأعظمه قِبابا[3]

وهكذا يمتاز جرير برقة النسيب ، وصدق الرثاء ، وخبيث الهجاء ، مع تجويد الفخر ، وجمال الأسلوب وجزالته .

(ب) أما الفرزدق فقد نشأ فى أسرة غنية ذات مآثر محفوظة ، وقوم ذوى حسب ضخم ، ورجع إلى أعمام ، وأخوال ، وآباء مذكورين ، فاتخذ من ذلك مادة لفخره واتخذ منه معانية فامتاز بالفخر وعُرف به ، ذلك إلى سلامة موقفه

---

(١) النقائض ص ٨٤٢ . (٢) نفسه ص ١٧٢ . (٣) نفسه ص ٤٤٥ .

فى قومه واعتزازه بهم أكثر من جرير الذى أشرك معهم قيس عيلان إلى حد كبير، فكان الفرزدق يدّعى دائما زعامة تميم والمحامى وراءها ، وتجاوز به الأمر إلى أن يمتن على قومه بالدفاع عنهم وعدم وجود من يعدله فى ذلك حيث يقول : —

أرُونى مَن يقومُ لكم مَقامى إذا ما الأمر جَلَّ عن العتاب
إلى مَن تَفزعون إذا حَثوتم بأيديكم علىَّ مِن التراب[1]

يضاف إلى ذلك جفاء طبعه وعنجهية فيه جاهلية جعلته أشد تحللا من شعائر الدين وأميلَ إلى الحرية وتجاوز الحدود إلى مقارفة الفسوق والعصيان والفخر بذلك ، والاجتراء على المحارم فكان يمثل فى حياته وشعره جانبا يقابل ما يمثله جرير ، كان ضخم الألفاظ غريبها ، فخم العبارات ، يتجاوز قوانين النحو المشهورة وقد تلمذ عليه المتنبى فى ذلك . ثم لم يلتزم هذه الديباجة الغزلية التى غلبت على جرير ، بل كثيرا ما كان يهجم على موضوعه دون التقدم إليه بالنسيب و إذا نسب جاء شعره جافياً غليظا متأثراً بروح الفخر الذى لزمه ولاءم طبعه ، وذلك أن فسوقه ومقارفته الآثام جعل نسيبه خاليا من صدق الشعور وأحاله وصفاً وقصصاً وفخرا ، بعكس نسيب جرير الذى كان شكاية وحزناً مما هو ثمرة التقى والحرمان ، و إن اصطنع الفرزدق الجلال والوقار أحياناً كما بينا فى درس ميميته . كذلك لم يؤهله طبعه الجاهلى للتجويد فى الرثاء والعتاب وسائر العواطف الرقيقة و إنما أهّله لأن يهدد معاوية ويفخر عليه ، ويهجو بعض الخلفاء والولاة ويقضى شطراً من حياته منفياً مهددا مطرودا ويخاطب معاوية بقوله : —

---

(١) الديوان ص ١١٤

أبوكَ وعمى يا معاوىَ أورثا ... تراثاً فيحتازُ التراثَ أقاربُه
فما بالُ ميراثِ الحتاتِ أخذتَه ... وميراث حربٍ جامدٌ لك ذائبه
فلو كان هذا الأمر فى جاهلية ... علمت مَن المرءِ القليل حلائبه
ولو كان فى دين سوى ذا شئتم ... لنا حقّنا أو غَصَّ بالماء شاربه[1]

وكل ذلك وغيره جعل شعره وقفاً على الخاصة وحرمه الذيوع والسيرورة و إن لم يحرم الأمثال والأبيات المأثورة . و إذا كان جرير محافظاً على الديباجة القديمة مجددا فى نسيبه و رقة أسلوبه ، فإن الفرزدق كان على عكس ذلك إذ حافظ على الغريب ، وضخامة الأسلوب والتعقيد أحيانا ، ولكنه تحرر من التزام النسيب ، وهناك ما يفرقة عن جرير فقد ظهر على شعره أنه شعر جهد ومشقة وقصد إلى تفخيم الألفاظ وضامتها تجد ذلك واضحاً فى كل شعره مثل : —

ومأثرةُ الأعضادِ صُهبٌ كأنما ... عليها مِن الأينِ الجِسادُ المذوَّفُ
بدأنا بها من سِيفِ رَملِ كُهيلَة ... وفيها نشاط من مِراح وعَجرف
وقد علم الجيرانُ أن قدورَنا ... ضوامِن للأرزاق والريحُ زَفزَف
نعجّل للضيفانِ فى المحل بالقرى ... قدورا بمعبوط تُمَد وتغرَف
وما حُل من جَهلٍ حُبَى حلمائنا ... ولا قائل بالعُرفِ فينا يعنّف
وما قامَ مِنا قائمٌ فى نَدِينَا ... فينطِقَ إلا بالتى هى أعرفُ
و إنى لمن قومٍ بهم تُتّقَى العِدَى ... ورأبُ الثأى والجانبُ المتخوَّفُ
لنا العزةُ الغلباء والعددُ الذى ... عليه إذا عُدَّ الحصَى يُتحلَّفُ
ترى الناسَ ماسِرنا يسيرون خلفنا ... و إن نحنُ أومأنا إلى الناسِ وقّفُوا[2]

---

(١) النقائض ص ٦٠٨ .

(٢) النقائض ص ٥٥٧ .

معنى ذلك امتياز الفرزدق بالفخر ، وضخامة الأسلوب ، وكثرة الأيام والمآثر التى ردَّدها و بعضها جاهلى كالمعاقرة ، وقد استطاع تجويد الهجاء وعرض صور قبيحة فى أثنائه لنسوة كليب وأم جرير خاصة . وهناك وصف الطبيعة وقد جلى فيه الفرزدق ، كما لاحظنا فى قوله :

وماءٍ كأن الدِمْنَ فوقَ جِمامِهِ ... عَباءٌ كَستهُ من فروجِ المخارمِ
رياحٌ على أعطانِهِ حيث تلتقِي ... عفا ، وخلا من عهـده المتقادم
وردتُ وأعجاز النُجوم كأنها ... وقد غار تاليها هجائن هاجم[1]

ووصف الجيش فى نحو قوله : —

سَمونَا لِنجرانَ اليمانى وأهلِهِ ... ونجرانُ أرض لم تُدَيَّثْ مقاولُه
بمختلفِ الأصوات تسمع وسطَهَ ... كرِزٌّ القطَا لايفقهُ الصوت قائلهُ
لنا أمرُه لا تُعرفُ البُلْقُ وسطه ... كثير الوَغامن كلِّ حىٍّ قبائله[2]

وله قصص غزلى فى نقيضته : —

ألستُم عائجين بنـــا لعنَّا ... نرى العرَصاتِ أو أثرُ الخيامِ

يقول فيها : —

و بيضٍ كالدُمَى قد بِتُّ أسرِى ... بِهِنَّ إلى الخلاء عن النيـامِ
ثلاث واثنتان فهن خمس ... وسادِسة تميلُ إلى الشمامِ
ظِباءٌ بَدَّلَتْهُنَّ الليـــالى ... مكانَ قُرونهن ذُرى جمامِ
ترَى قُضُبَ الأراكِ وهنَّ خُضْرٌ ... يمَحْنَ بها وعيدان البَشامِ
ذُرَى بَرْد بكرنَ عليه عَذبٍ ... وليس بكورُهن على الطعامِ

---

(١) النقائض ص ٣٤٦ (٢) نفسه ص ٦٩٠

ولو أن امرأ القيس بنَ حُجْرٍ بدارةِ جُلجُلٍ لرأى غرامى [1]

وهكذا يستمر مطيلا حتى ينتهى من قصته التى تشبه نسيب عمر بن أبى ربيعة

(ج) ولفهم ميزات الأخطل الفنية يجب أن نلاحظ أولا أنه من عبيد الشعر وصناعه وأنه امتداد لسلسلة زهير وبنيه والحطيئة وأضرابهم ممن كانوا يعكفون على القصيد يجوّدونه ، ويهذّبون أطرافه ، ويحذفون فضوله ، ويحسنون تقسيمه ويدققون فى صوره وعباراته حتى يبدو محكما متلاحم العناصر جزلا حَوْلِيًّا ؛ وهذه صفات الأخطل الأسلوبية الغالبة مما جعله لا فى سهولة جرير ، ولا فى ضخامة الفرزدق ، وإنما هو أسلوب عمِلَ فيه العقل وأحكمته الأناة حتى تأثر به جرير فى بعض نقائضه معه .

فذلك أمر . وأمر آخر هو أن الأخطل تغلبى من هؤلاء القوم الذين بقوا على مسيحيتهم ولم يسلموا ففرضت عليهم الجزية ، ولكنهم عاشوا فى أكناف الدولة الإسلامية ينافسون قيس عيلان خاصة منافسة سياسية واقتصادية فاحتموا بالخلفاء وكان الأخطل وافدهم ولسانهم الذى أجاد مدح الخلفاء وصار شاعر البيت الأموى أو شاعرَ أمير المؤمنين عبدالملك بن مروان ، وبذلك ثبت لقيس أو لخليفها جرير فهاجاه فى سبيل هذه الخصومة وحالف عليه الفرزدق ، فأجاد المديح ، وشارك فى الهجاء ، ولما كان يشرب الخمر فقد أجاد وصفها ولعله تلميذُ الأعشى وأستاذ أبى نُوَاس وطبقته .

وهناك أمر ثالث ضيّق على الأخطل مذاهب المهاجاة والمفاخرة فخصمه جرير من مضر أصل قريش قبيلة النبوة والخلافة التى تحميه هو وقومه ، فلم يستطع

---

(١) النقائض ص ١٠

الأخطل أن يهجو جريراً من هذين الجانبين فى حين فخر عليه جرير بمضريته وبالنبوة والخلافة وهجاه بنصرانيته وحرمان قومه مكارم السلطان والإسلام كما أسبقنا .

وهناك عدم تورط الأخطل فى الفحش والإقذاع بدرجة زميليه ، وهو أمر واضح ، وقد يكون سببه أن الأخطل يتجه بشعره إلى مدح الخلفاء والأمراء فلم يشأ أن يخلط ذلك بكثير الهجاء ومقذعه وإن فعل ذلك أحياناً ، وإن كثر فى مدائح صاحبيه ، وقد يكون السبب أن الأخطل ، لنصرانيته ، لم يجرؤ على التشنيع بنساء قيس ويربوع المسلمات ففى ذلك حرج وعدوان على مكانة الدولة وتقاليدها المحترمة ، وقد يكون مرجع ذلك عدم افتتان الأخطل بهذا البذاء فلم يكثر منه توقراً ولاسيما أن مدرسته الفنية لم تتورط فى الفحش وإن لم تخل من هجاء مقذع فى بعض الأحيان ، فسارا الأخطل على نهجها ولم يكثر السباب والتشنيع ، على أن مهاجاة الأخطل مع جرير غلبت عليها النزعة القبلية دون الفردية الشخصية ، وتلك تستدعى الأيام ، والمثالب العامة ، من جبن ، وبخل ، أكثر من استدعائها جرح الأعراض ، وقذف المحصنات ، وتصوير العورات مما دار بين زميليه متصلا بنسوة كليب ومجاشع وبجعثن وأم جرير .

كل ذلك ضيق مجال الهجاء أمام الأخطل وقلّل من معانيه فاعتمد على التصوير الحسى ، سيمة مدرسته ، ليسد هذا النقص ، ويفوز الظفر ، مادامت المعانى المجردة قليلة وغير مؤثرة ، لذلك تجده يقول فى بنى كليب : —

قوم إذا استنبح الأضياف كلبهمُ ... قالوا لأمهم : بولى على النار

أمٌّ لئيمةُ نحلِ الفحلِ مقرفة ... أدَّتْ لِفحلِ لئيمِ النجلِ شحّار

يومَ الكلاب وقد سيقت نساؤكمُ ... سوق الجلائب مِن عُون وأبكار (١)

(١) نقائض جرير والأخطل ص ١٣٥ وما وليها

ثم يقول فى بنى يربوع :

وما اليربوعُ مُحتضِناً يدَيه ... بِمُغْنٍ عَنِ بَنى الخطفَى قِبالا
تُسَدُّ القاصـــاءُ عليه حتى ... يُنفِّقَ أو يموتَ بهـا هُزالا
فلا تدخُلْ بيوتَ بنى كُلَيب ... ولا تقـرَبْ لهم أبداً رِحالا
ترى فيها لوامـــع مُبرقات ... يكدن . . . بالحدقِ الرجالا
قصيراتُ الخطا عن كل خير ... إلى السوءاتِ مُسْمِحَةً عِجالا[1]

ويقول من نقيضة :

تاجُ المـلوكِ وصهرُهم فى دارم ... أيام يربوع مع الرُعيـــانِ
مُتَلَفِّفٌ فى بُرْدَةٍ حبَقِيَّـــةٍ ... بِفِنـــاءِ بيتِ مذَلَّةٍ وهوانِ
يغذو بنيهِ بِثَـــلةٍ مَذمومةٍ ... ويكونُ أكبرَ هَمِّهِ رِبْقـانِ
أجريرُ إنك والذى تسمو له ... كسِيفَةٍ فخرت بِجدِجِ حصَانِ
حملتْ لِرَبَّتِها فلما عُولِيَتْ ... نَسلتْ تعارضُها مع الأظعانِ[2]

كذلك يمتاز نسيبه بذكر الخمر معه ووصفها ، ولم يكن يلتزم هذه الديباجة التقليدية دائماً فقد بدأ إحدى نقائضه بقوله :

ما زال فينا رِباطُ الخيل مُعلَمَةً ... وفى كليبٍ رباطُ الذلِّ والعار[3]

واقرأ رائيته التى درسناها سابقاً ثم اقرأ نقيضته :

بَكرَ العَواذلُ يَبتدِرْنَ مَلامتى ... والعـــالمون فكلهم يَلْحانى
فى أنْ سُقِيتُ بشربةٍ مَقذِيَّةٍ ... صِرفٍ مُشَعْشَعَةٍ بماء شُنَانِ
فظللتُ أسقِى صاحبى مِن بَردِها ... عمـــداً لأرويَه كما أروانِى

---

(١) المرجع السابق ص ١٩٠ (٢) نفسه ص٢٢٢ (٣) نفسه ص١٣٤

وذكرتُ إذ جرت الشمالُ فهيّجت شـــوقاً لنا رَيّا وأمَّ أبانِ[1]

وقد رأيت فيما قدمنا كيف أجاد مدحَ عبد الملك حتى سارت أبياته فيه مثالا حُسد عليه عبد الملك :

الخائضُ الغمرِ والميمونُ طائرُه خليفةُ الله يُستسقَى به المطَرُ

الأبيات[2] .

كان الأخطل من طراز خاص يمتاز بتجويد نظمه، وإحكام مدحه ، ووصفه الخمر ، واعتماده على التصوير ، وتقليله من الفحش والإقذاع . وكان هجاؤه جريراً بالذلة ، والفقر ، وتقديم دارم على يربوع ، كما كان هجاؤه قيساً بالأيام التى كانت لتغلب عليهم مع قلتها .

— ٣ —

وإنما ننتهى من هذا الفصل بالموازنة بين فحول النقائض الأموية فى هذا الجانب المتصل بموضوعنا ، وليس من ثمرات الموازنة دائماً أن نُفَضّل شاعراً على آخر ، إذ أن النقد الأدبى يكون توضيحاً كما يكون ترجيحاً، وربما كان التوضيح والوصف أجدى على الباحث ، فليس يخلو شاعر من ميزة تفضله على نظيره مهما تكن قيمتها ، والتاريخ الأدبى حافل بروايات شتى تصور ما أثار هؤلاء الفحول من آراء نقدية ، واختلاف بين النقاد فى المفاضلة بينهم ، وبيان خضوع هذه الآراء للأمزجة ، والعصبيات ، والمواهب العلمية والفنية حتى لم يتفق أهل مجلس قديم على تفضيل واحد على الآخرين .

وكان لهؤلاء الفحول بعضهم فى بعض آراء نقدية مذكورة فى المراجع القديمة لا يعنينا هنا إيرادها وإن إشرنا إلى أكثر ذلك فيما مضى من فصول .

---

(١) نفسه ص١١٩ (٢) نفسه ص١٥١

وقد لاحظنا فى الصفحات الأخيرة أن جريراً يمتاز بالنسيب والرثاء ، والأخطل بوصف الخمر ومدح الملوك ، والفرزدق بالفخر ، أما الهجاء فكان قدراً مشتركاً بين ثلاثتهم ، وعنده نقف قليلا لنلاحظ أن الأخطل اتصل بصاحبيه كبير السن فلم يكن فى قوتهما ، وكان محرَجا فلم يستطع مجاراتهما فى الهجاء ، فقلت معانيه واعتمد على التصوير يسدّ به هذا النقص ، ولكنه كان مغلَّباً فيه على كل حال .

وكان جرير سفِهاً سَليط اللسان مُرّ الهجاء ، وقد ساعده سهولة أسلوبه وسَيْرورَة شعره فكانت معانيه على بساطتها تسير فى الناس وتحدث آثاراً ساحرة عجيبة .

أما الفرزدق فمع كثرة معانيه وتنوعها أعوزه الأسلوب السائر السمح الذى يجعل لهجائه آثاراً بعيدة ، وصِيتاً عَريضا .

على أن فخرَ الفرزدق يسند هجاءه ، وهوانَ حسبِ جرير مع ثبوته الأدبى لهؤلاء الخصوم يدل على قوة شكيمته و براعته الفنية .

ومهما يكن من أمر فنرجو أن تتاح لنا فرصة للتوسع فى هذا الدرس الفنى لفحول النقائض الأمويين .

الفصل التاسع

قيمة النقائض الأموية

— ١ —

ماذا أفَدنا من هذه النقائض ؟ وماذا أنكرنا منها ؟

هذه هى المسألة الأخيرة التى نتناولها ، بالنظر ، فى هذه الفصول ، وهى أيضاً، بحسب المنهج التاريخى لموضوعنا ، تأتى آخر ما ندرس ، إذ كانت ثمرة الدراسة التاريخية كما هى ثمرة الدراسة الفنية منذ ارتقت النقائض إلى ذروتها فى عهد الأمويين .

ولما كانت النقائض فناً ممتازاً فى تاريخ الأدب العربى ، وشغل من عصوره، ومادته ، ورجاله ، قدراً خطيراً ، كان من الطبعى أن نسأل عن قيمة هذا الفن وما خلّف لنا من فوائد أو مضار .

وأول جانب ندرسه من حيث فوائده هو الجانب اللغوى .

من الأمور المقررة أن ألفاظ اللغة الدائرة فى عصرٍ ما إنما هى تراث الماضى البعيد وثمرة عصور سحيقة تعاقبت عليها بالزيادة ، والنقص ، والتحريف ، والتصحيف ، سواء فى المعانى والألفاظ والعبارات والأساليب ، لأن كل عصر يتخذ (مادة) اللغة وسيلة للتعبير فيكيفها ، إلى حد ما ، بحسب أغراضه ، ويضفى عليها روحه ، ومواهبه ، ودنياه الحسية والمعنوية لذلك يجمع العصر اللغوى الواحد

خليطاً من القديم والحديث ، ويُحْيي مجموعات من الألفاظ ويميت أو يضعف أخرى حسب حاجته الكلامية .

ولما كانت النقائض الأموية نهضة فنية خاصة نشطت بعد فتور ، وقويت بعد ما كانت ضعيفة ، واعتمدت على فنى الفخر والهجاء أكثر من غيرهما ، كان من الطبعى أن يكثر استعمال السباب ، والبذاء ، هجاء ، وألفاظ الفخامة والتهويل والاعتزاز . فخراً ، فهذا شيء بدهى ، وإذا كانت (الأحساب) وقفاً فى الجاهلية على النجدة ، والمروءة ، والكرم ، والشجاعة فإن هذه (الأحساب) زادت فى الإسلام معانى البلاء فى الفتوح ، ونصرة الدين ، والقربى من أسرة النبوة والخلافة ، والمشاركة فى المواقف السياسية والدينية ، كذلك (المثالب) اتسع معناها فشملت عكس ما ذكرنا ، وكان معنى « انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً » يفهم على حقيقته فى الجاهلية ، ثم فسر فى صدر الاسلام تفسيراً آخر ، ولكنه عاد إلى معناه القديم فى بعض البيئات الاسلامية التى أعادت الحمية الجاهلية سيرتها الأولى .

ولما كانت النقائض كثيرة العدد مديدة الطول كثرت قوافيها فاضطر الشعراء إلى إحياء قوافٍ قديمة وحديثة سداً لحاجة النظم واستكمالا لأبواب المناقضة والملاحاة فظهرت ثروة لغوية أكسبت المعاجم مادة غزيرة ، ووضعت أمام الكتاب والشعراء والخطباء ذخيرة كلامية نافعة ، وهناك معان جديدة تولدت أثناء هذا الحوار المتواتر كموت الهوى فى قول جرير : —

ولقد أرى بِكَ ، والجديدُ إلى بِلًى ، موتَ الهوَى وشِفاء عين المجتلى[1]

---

(١) النقائض ٢١٢ .

وقوله : —

فلما التقَى الحيّانِ ألقيت العصا وماتَ الهوى لما أصيبَتْ مقاتله[١]

وكقول الفرزدق : —

وما تنفكُّ تُبصر فى طريقٍ كُلَيبيًّا عليـــه مزادتان[٢]

فلهجت بنو مجاشع بإنشاد هذا البيت لخفته وصورته الساخرة المضحكة حتى قال جرير لبنى مجاشع مشيراً إلى هذا البيت :

أغرَّكم الفرزدقُ من أبيكم وذكرُ مزادتين على حمار[٣]

كذلك الانتفاع بمعانى القرآن الكريم وأساليبه كما قدمنا فى الفصل الماضى.

وقد رأينا فى النقائض آثار اللهجة التميمية القديمة كقول الفرزدق : —

إذا عجزَ الأحياءُ أن يحملوا دما أناخ إلى أجدافِنا كل غارم[٤]

فى رواية لكلمة (أجدائنا) .

وقد وجدنا فى النقائض شذوذ الفرزدق النحوى كقوله : —

وعضُّ زمان يا بنَ مروانَ لم يَدَعْ من المال إلا مُسحتاً أو مُجرَّف[٥]

برفع (مجرف) مما أتعب النحاة ، وكقوله : —

بخير يدَى من كان بعدَ محمد وجاريه والمظلوم لله صائمِ[٦]

بجر صائم ، والوجه الرفع .

---

(١) النقائض ص ٦٣٠ .
(٢) نفسه ص ٣٤٨ .
(٣) نفسه ص ٢٤٨ .
(٤) ص٥٥٦ .
(٥) ص ٣٤٥ .
(٦) ص٢٧٩ .

ووجدنا معاظلته وتعقيده الذى جعل التعبير ألغازاً لغوية عسيرة الفهم والتوجيه كقوله : —

أبى مَن إذَا ما قيلَ من أنتَ مُعتزٍ إذا قِيلَ مِمَّن قومُ هذا المُراجم[1]

وهناك بعض الصور الفنية الجميلة التى ترد خلال النقائض كقول الفرزدق فى ماء مرّ به فجرا : —

وردتُ وأعجازُ النجومِ كأنها وقد غار تاليها هجانٌ هاجم[2]

ولفخامة شعر النقائض وبداوة لغوله حىّ الغريب من اللغة ولا سيما على لسان الفرزدق الذى قيل فيه لولا شعره لذهب ثلث اللغة ، وقد سجلت النقائض أسماء (الأيام) العربية ، والجاهلية خاصة مما دعا الشراح إلى إيراد أخبارها فكانت مادة للتاريخ والقصص غزيرة نافعة . واستطاع النظم أن يضبطها هى وأسماء الأماكن ، والمدن ، والقرى ، وإن ثنى أو جمع مفردها كالكواظم فى (كاظمة) وهكذا .

— ٢ —

ومن الجانب الأدبى تُعدُّ النقائض رُقيّاً عظيما للشعر القديم وخاصة الفنون التى كانت قوامها ، وذلك لأن النقائض قامت على أساس المنافسة والتحدى فاجتهد شعراؤها فى تجويدها من حيث المعانى ، والألفاظ ، وَالصور ، وَالأساليب حتى كانت آخرَ ما انتهى إليه الشعر الإسلامى المحافظ ، وَيمكن اعتبار النقائض، إلى حد كبير ، امتداداً ناضجاً للشعر الجاهلى وتطوراً خطيراً له ، وربما كانت

(١) النقائض ص ٣٤٦ . (٢) نفسه ص ٣٣٨ .

تأريخًا للحياة الجاهلية نفسها أكثر من الشعر الجاهلى فى أكثر من جهة كالأيام ، والحوادث ، وشخصيات القبائل القديمة ورجالها كما يلى ، وقد شبه هؤلاء الفحول بفحول جاهليين كالأعشى ، وزهير ، والنابغة وظهر الروح الجاهلى فى شعرهم واضحًا كقول الفرزدقُ : —

وقد علم الجـــيرانُ أن قدورنا ... ضوامِنُ للأرزاق والريحُ زَفزَف
نُعَجِّلُ للضيفان فى المحل بالقِرى ... قدوراً بمعبوطٍ تُمَدُّ وتُعرَفُ
تُفرَّغُ فى شِيزَى كأن جِفانَها ... حِياضُ جِبًى مِنها مِلاءٌ ونُصَّف
ترى حولَهُنَّ المعتفين كأنهم ... على صنَمٍ فى الجاهلية عُكَّف
وما حُلَّ مِن جَهْلٍ حُبَى حُلمائنا ... ولا قائلٌ بالعُرفِ فينا يُعَنَّفُ[1]

وقد لاحظنا أن الفخر والهجاء امتازا بخواص جعلتهما أشد فنون النقائض خضوعا للاستحالة والقوة ، كالطول ، والإفحاش ، والاستقصاء ، وقوة الجدل والاحتجاج .

كذلك خلفت لنا النقائض ثروة نقدية ذات مذاهب لغوية وأدبية ، واجتماعية ، سجلتها الكتب القديمة وبخاصة أغانى أبى الفرج الأصفانى فى سير هؤلاء الفحول وغيرهم ممن اتصلوا بهم كذى الرُمة ، والراعى ، وإن لم يتفق النقاد على رأى حاسم فى المفاضلة بين جرير وصاحبيه ، فكان يونس يقدم الفرزدق على جرير مرة ، ثم يقدم عليهما الأخطل مرة أخرى ، وكان الرواة يؤثرون الفرزدق والشعراء يفضلون جريرا ، وأبو عمرو يفضل الأخطل وهكذا كثر الكلام حولهم متأثرا بثقافة النقاد ومواهبهم وظروفهم .

---

(١) النقائض ص ٥٦٣ .

كذلك ظفرنا من النقائض وحدها بفهم الأساليب الشعرية المختلفة التى وصفناها فى الفصل الماضى ما بين شعر محكّك مصنوع وشعر سهل طبعى ، وثالث فخم جليل ، وعندى أن النقائض كانت خير معرض لدراسة هذه الأساليب لأنها صورتها فى أقوى صفاتها وأوضحها ما دامت المنافسة قائمة ، والموازنة يسيرة لوحدة الموضوع والأسلوب .

كذلك نجد فى النقائض الفرق بين هـذا الشعر الذى غلبت عليه المحافظة و بين ذلك الشعر الذى غلب عليه التجديد و إنما أقصد الشعر الغزلى والسياسى .

كان شعر النقائض جزلا فخماً غريب الألفاظ وكان شعر الغزل والسياسة سهلا مأنوساً مألوف الألفاظ ، وكانت النقائض تأخذ معانيها من الماضى كثيرا بعكس هذين فـكانت معانيهما إسلامية حديثة من واقع الحياة الجارية ، وكانت النقائض مشغلة الفحول فى حين شغل بالسياسة والغزل مَنْ هم دونهم مكانة وجلالا . وقد نما الغزل فى الحجاز ، والنقائض فى العراق ، وغلب الشعر السياسى على العراق أيضاً .

وجد النسيب فى النقائض والسياسة ثانوياً ولـكنه عاش سيدا فى الحجاز ، ولم تخل النقائض من السياسة ولـكن العصبيات كانت أشد تأثيرا فيها ، وطبعا لها بطابعها الجاهلى العنيف .

استطاعت النقائض أن تمد (المربد) عكاظ الإسلام بمادة غزيرة هى، فيما يخيل إلى ، أضخم وأكثرُ من مادة عكاظ الجاهلية فقد كانت حلقات أدبية تعقد فى المربد وينشد فيها جرير والفرزدق نقائضهما ، وينقلها الرواة وغـيرُهم بين الشاعرين ، وتنتظر القبائل شعر هذين فإذا به يسير فى أقطار العالم العربى حافلا بشخصيات القبائل ، والرجال ، والنساء ، والشعراء ، وقد نهض جرير والفرزدق

بتمثيل قوميهما تمثيلا قوياً ، ونافحا عنهما أشد منافحة حتى قال جرير للراعى وابنه جندل : « أما والله يابنَ بَرْوَع لتأتينَّ بنى نمير بأعباء ثقال ، إن أهلى ساقوا بى و براحلتى حتى وضعونى بقارعة الطريق بالمربد ، والله ما أكسبهم دنيا ولا أخرى إلا لأسُبَّ من سبهم من الناس ، و إن عُبيدا بعثه أهله على رواحلهم من أكناف خُلُصَ وهَبُودَ يلتمس عليها الميرة والخيرَ وأيمُ اللهِ لأُوقِرَنَّ رواحِله مما ساء نسوةَ بنى نمير[1] » .

وقال الفرزدق : —

أنا ابنُ تميم والمحامى وراءها إذا أسلم الجانى ذِمارَ المحارم[2]

وفى المربد اتخذ كلّ زياً خاصاً تناقضا حوله كما مر .

مثلت النقائض ، بمكانتها هذه ، الحياة الأدبية بأفخم وأقوى جوانبها ، بالشعر المحافظ القوى ، وذلك لرقى الشعر ، وسيرورته ، وصلته بالسياسة ، والاجتماع ولحفاوة الناس بهذا الفن ، وتمثيله أعظم نشاط فى العصر الأموى ، حتى إن مؤرخ الأدب الأموى إنما يصطدم أول مايصطدم بشعر الفحول أولا و بنقائض جرير وزميليه ثانياً .

— ٣ —

والنقائض تصور لنا جوانب شتى من الحياة السياسية الأموية لذلك تعد مصدراً تاريخياً قيما . وقد بكرت النقائض بتمثيل ذلك منذ اختلف على ومعاوية على الخلافة الإسلامية ووقف كعبُ بن جُعَيل مع معاوية يقول : —

---

(١) النقائض ص ٤٢٨ .

(٢) ص ٣٧٩ .

أرى الشام تكرهُ مَلك العِراقِ وأهـــلُ العراق له كارهونا
وكلٌّ لصـــاحبه مبغضٌ يرى كلَّ ما كان من ذاك دينا
وقالوا : عليٌّ إمامٌ لنـــا فقلنا : رضينا ابنَ هندٍ رضينا

فيرد عليه النجاشي الحارثي عن عليٍّ بقوله :

دَعنَّ معـــاوى مالن يكونا فقـــد حقق الله ما تحذرونا
أتاكم على بأهـــل العراق وأهل الحجاز فما تصـــنعونا
فإن يكْرَهِ القومُ مَلْكَ العراق فقِدْماً رضينا الذى تكرهونا[1]

وهى مناقضة تلخص لنا موقف العراق من الشام ، وعلى من معاوية ، وما استتبع ذلك من حرب انتهت بخدعة التحكيم ، وظهور الأحزاب ، وفوز الأمويين . فإذا تقدمت الأيام وقام بالأمر يزيد بن معاوية خرج عليه ابن الزبير ونصره على أهل الشام الخوارج والمرجئة والشيعة ، وكان عُظْم الخوارج من تميم إذ ذاك فقاتلوا مع ابن الزبير حتى مات يزيد بنُ معاوية وذلك قول جرير فى شطره الثانى :

عَنِ المنـــبر الشرقى زادت رِماحُنا وعن حُرمةِ الأركان يُرمَى حَطيمُها[2]

وأما المنبر الشرقى فهو منبر البصرة حين غلب عليها سلَمةُ بن ذؤيب الرياحى أيام فتنة ابن الأشعث[3] . فلما كانت وقعة المرْج تناقض حولها اليمنية والقيسية بين عَمرو بن مِخلاة الكلبى وزُفَر بنِ الحارث الكلابى كما قدمنا[4] و بين جوّاس الكلبى ومَعبد بن عَمرو الكلابى[5] وهى مناقضة تصوّر لنا موقف

---

(١) الأخبار الطوال ص ١٦٢ .
(٢) النقائض ص ١١٨ .
(٣) النقائض ص ١١٨ .
(٤) نقائض جرير والأخطل ص ١٧ — ١٩
(٥) نفس المرجع ص ١٩ — ٢١ .

اليمن مع الأمويين وموقفَ القيسية عليهم كما تصوّر لنا أن الأمويين لم يشكروا لبنى كلب نصرهم إياهم وذلك حيث يقول جواس الكلبي : —

ضَرَبْنا لكم عَن مِنبَرِ المُلكِ أهلَهُ (بِجَيرُونَ) إذ لا تَستطيعون مِنبَرا
وأيامَ صِدقٍ كلّها قد علمتُم نصرَنا ويومَ المَرْجِ نصراً مؤزّرا
فلا تكفُروا حُسْنى مضَتْ مِن بلائنا ولا تمنَحونا بَعْدَ لِينٍ تَجبُّرا

كذلك تدل المناقضة بين زُفر بن الحارث الكلابي القيسي و بين جوّاس الكلبي[1] على هرب زُفر ذلك اليوم وأسفِه وعزمه على معارضة الأمويين والثأر لقتلى قومه يوم المرج كما تدل على شماتة كلب بقيس عيلان ، وقد رأينا موقف تغلب مع مروان هذا اليوم من قول الأخطل لجرير :

وقد كان يومَا راهطٍ من ضلالكم فَناءً لأقوامٍ وخَطباً مِن الخَطْبِ[2]

وفيه قُتل الضحاك بن قيس الفهرى من قيس عيلان .

فإذا كان عهد عبد الملك وقد حميت المناقضة واشتبك فيها فحولها الثلاثة رأيناها تسجل لنا حكومة نشيطة ، وصراعاً بينها و بين معارضيها ، وعصبيات تستغلها السياسة العليا وولاة وأمراء ذوى سياسة خاصة ممتازة ، وصلات بالروم وغيرهم وفوزاً للخليفة مُؤَزَّراً ، وأسرة حاكمة مُوَقَّرة حازمة . ظهر ذلك فى شعر الأخطل كقوله من نقيضة ، فى عبد الملك :

يَعلو القناطرَ بينها و يهدمُها مُسَوَّمٌ فوقهُ الراياتُ والقَتَرُ
حتى استقلّ بأثقال العراق وقد كانت له فيهم أيدٍ ومُدَّخَرُ
فى نَبعةٍ مِن قريش يعصِبون بها ما إن يُوازى بأعلى نبتها الشجرُ

---

(١) نفسه ص ٣٤ — ٣٦ .

(٢) نفسه ص ٩٨ وانظر الحاشية

وتتبيّن من هذه النقيضة أموراً سياسية أو متصلة بالسياسة إلى حد بعيد ، فبنو أمية أهل حزم وحصافة وحق ملكى :

لم يأشِروا فيه إذ كانوا مَواليه ولو يَكون لقومٍ غيرهم أشِرُوا

وهم أعداء قيس الزبيرية بزعامة زفر بن الحارث الكلابى :

بنى أميَّة إنى ناصحٌ لكمُ فلا يَبِيتَنَّ فيكم آمناً زُفَرُ
واتخذوه عدواً إن شاهدَه وما تغيّبَ مِن أخلاقِه دَعَرُ

وقد وقف الأخطل مع أمية على الأنصار :

بنى أمية قد ناضلتُ دونكمُ أبناءَ قومٍ هُمُ آوَوا وهم نَصرُوا
أحمتُ عنكم بنى النجار قد علمت عُليَا مَعدٍّ وكانوا طالما هدروا

ووقف قومه مع أمية على قيس فقتلوا عُميرَ بنَ الحُبابِ السلَمى يوم الحَشّاك :

وقد نُصرتَ أميرَ المؤمنينَ بنا لما أتاك ببطنِ الغوطةِ الخبَرُ
يعرّفونك رأسَ ابنِ الحبابِ وقد أضحى وللسَّيف فى خيشومه أثرُ
أمستْ على جانبِ الحشّاك جيفتُه ورأسُه دونَه اليحمومُ والصورُ[1]

ونرى من النقائض الحارث بن عبد الله بن أبى ربيعة المخزومى أمير البصرة يهدم دارَى جرير والفرزدق لتهاجيهما فيلومانه معاً ، أما الفرزدق فيخلط لومه بعزته:

أحارِ دارى مرّتين هدمتها وكنتَ ابنَ أختٍ لا تُخافُ غوائله
فقبلك ما أعيَيْتُ كاسرَ عينِه زياداً فلم تقدِر علىّ حبائلُه[2]

وأما جرير فاحتجّ بكتاب الله وهجا الفرزدق وزوجه النوار :

أحارِ خذ مَن شِئتَ منّا ومنهم ودعنا نقِسْ مَجداً تُعَدُّ فواضِلُه

---

(١) نقائض جرير والأخطل ص ١٥٤ (٢) نقائض جرير والفرزدق ص ٦٠٧ .

فما فى كتابِ الله تهديمُ دارِنا بتهديم ما خور خبيثٍ مداخِله
وفى مخدعٍ منه النوارُ وشربُه وفى مَخدع أكيارُه ومراجِله[1]

وهذا الحجاج الثقفى والى عبد الملك على العراق وقاتل ابن الزبير تذكره النقائض فى قول جرير من نقيضة : —

أرى الطيرَ بالحجاج تجرى أيامِناً لكم ياأميرَ المؤمنين وأسعُدا
رجعتَ لبيت اللهِ عهدَ نبيِّهِ وأصلحتَ ما كان الخُبيبان أفسدا[2]

والخُبَيبان عبد الله ومصعب ابنا الزبير ، وكان عبد الله نقض الكعبة لما وحرقت ، وأخل الحِجْرَ فيها ، فلما ظفر الحجاج هدمها و بناها على بنائها اليوم ، وأحرق البيتُ ليلة مات يزيدُ بن معاوية .

وقد مر القول فى العصبيات الكبرى وأثرها فى سياسة الدولة وتصوير النقائض لذلك تصويراً واضحاً ، فنقائض جرير تصوّر العصبية القيسية على تغلب أدارم وأمية أحياناً ، ونقائض الفرزدق تصور عصبية تميم على قيس ونزعة العراق للاستقلال عن الشام ، ونقائض الأخطل صحيفة تغلب على قيس و يربوع ومع أمية ما دامت تحمى تغلب وتساير صوالحها .

وهناك الأيام الجاهلية والإسلامية التى أحصت النقائض كثرة منها ضخمة وقد ذكرنا منها ما يكفى فى الفصول السابقة ، ونشير هنا إلى يوم مرج راهط ، وصفين ، وعبد الله بن خازم السلمى وفيه يقول الفرزدق : —

كأنكَ لم تسمعْ تميما إذا دعَتْ تميمٌ ولم تسمعْ بيوم ابنِ خازم
وقبلك عجَّلنا ابنَ عَجْلَى حِمامَهُ بأسيافنا يصدعْنَ هامَ الجماجم[3]

---

(١) نفس المرجع ص ٦٨٣ .
(٢) النقائض ص ٤٨٦ .
(٣) نفسه ص ٣٧٢ .

وكان صاحب خراسان قتله ابن الدَورقيّة وهو وكيع بن عُمير القريعى ، وذلك الشعر كان فى عرض تصوير حادث قتيبة بن مسلم ، قتله وكيع بن حسان ابن أبى سُود بن كليب ابن يربوع : —

لقد شهدتْ قيسٌ كان نصرُها قُتيبةَ إلا عضَّها بالأباهمِ
أتغضبُ أن أذنا قُتيبة حُزَّنا جِهاراً ولم تغضبْ ليوم ابنِ خازم
وما منهُما إلاّ بَعَثْنَا بِرأسِـــه إلى الشَّامِ فوق الشاحِجاتِ الرواسم (١)

ذلك أيام هشام بن عبد الملك سنة ٩٦ هـ .

وتدلنا النقائض على أن عبـد الملك صالح قيساً فغضب الأخطل لذلك وأخذ يغرى عبد الملك بقيس وزعمائها حتى كان من ذلك يوم البِشْر الذى صاح منـه شاعر تغلب وأخذ يهدد الأمويين : —

لقـد أوقع الجحافُ بالبِشرِ وقعة إلى اللهِ منهـــا المُشتكى والمعوَّلُ
فإلا تُغـــيِّرها قريشٌ بِملكِها يكنْ عَنْ قُريشٍ مُستمازٌ ومَزحَلُ
ونعرُزْ أناساً عَزَّةً يكرهونهـــا فنحيا كِراماً أو نموتُ فَنُقتَلُ
فإن تحملوا عنهـم فما مِن حَمّالةٍ وإن عظمت إلا دمُ القومِ أثقَلُ
وإن تعرِضوا فيها لنا الحقَّ لانكنْ عن الحقِّ عُمياناً بل الحقَّ نسـألُ (٢)

فهذه أمثلة جزئية تدل على مقدار ضئيل لتصوير النقائض عصرها السياسى وليس فى وسع هذه الصفحات استقصاء ذلك الجانب .

— ٤ —

وربما كان تصوير النقائض لعصرها الاجتماعى أوسع وأوفى ، ذلك لأن

---

(١) ص ٣٧٤ .
(٢) نقائض جرير والأخطل ص ٦٣ .

الفحول لم يفرغوا للسياسة فراغ شعراء السياسة الذين ألممنا بهم فى غير هذا المكان[١] وإنما عاشوا حياةً اجتماعية ، بدوية ، جاهلية ، تؤثر فيها العصبيات القبلية والتقاليد الاجتماعية ، ولا حاجة بنا هنا إلى القول فى العصبيات بعدما قدمنا فى الفصل الأول من هذا الباب ، وحسبُنا أن نذكر هذه العصبية التى فرقت بين تغلب وقيس النزاريتين وجمعت بين تغلب واليمن ، والتى جمعت بين الأخطل التغلبى والفرزدق التميمى على جرير التميمى ففرقت بين دارم ويربوع وكانت النقائض ديوان ذلك فى أكثر نُصُوصها .

وكانت النقائض معرضاً اختلطت فيه التقاليد الإسلامية والجاهلية معاً ، من مفاخرة (بالمِربد) ومعاقرة[٢] يفخر بها الفرزدق :

ألم تعلَموا أنى ابنُ صاحبِ صَوءر وعندى حُساما سيفهِ وحمائلُه[٣]

و ينكرها عليه جرير : —

ولا يستوى عقر الكَرُوم بصوءر وذو التاج تحت الراية المتسيِّفُ[٤]

والحج أ، والأسرى ، والجزَى ، وصلاح جرير وعفته ، وفجور الفرزدق وسفاهته ، والصلاة ، والصوم ، والنبوة ، والخلافة ، ثم الردافة[٥] فى يربوع : —

والرِدفِ إذ ملك الملوكَ ومَن له عِظمُ الدسائع كلَّ يومِ فِضالِ

والإجازة : —

لنا حوضُ النبى وساقياهُ ومَن ورِثَ النُّبوة والكِتابا

ومِنا مَن يُجير حجيج جمع وإن خاطَبْتَ عزكمُ خِطابا[٦]

---

(١) تاريخ الشعر السياسى للمؤلف .
(٢) النقائض ص ٤١٣ و ٩٤١ و ٩٩٩
(٣) نفسه ص ٦٢٥ .
(٤) نفسه ص ٥٨٠
(٥) نفسه ص ٢٩٨ .
(٦) نفسه ص ٤٥٠

كذلك أشارت إلى كثير جداً من الحوادث الاجتماعية المتصلة بالسياسة وغيرها كحادثة ضرب الروى المشهورة [١] ومقتل أعْيَن أبى النوار [٢] وحُمَيدة الماليكية امرأة مَعبد السَّليطى مع حوط بن سفيان : —

حُمَيدَةُ كانت للفرزدق جارةَ ينادم حَوطاً عندها والمقطَّعَا [٣]

حتى رُجمت فى مقبرة بنى شَيْبان .

وهناك أحساب القبائل ومثالبها ومن بين هاتين تتبين شخصيات القبائل ورجالها ، كحسب دارم ، وفقر يربوع وشجاعتها ، ومجد قيس ،وكذلك الأنساب كضبة أخوال الفرزدق ، و بيوت شيبان [٤] .

وهذه الطوائف ذات الألقاب الخاصة السائرة كقول الفرزدق : —

و إذا الرَبائع جاءنى دُفَاعُها موجاً كأنهمُ الجرادُ المرسَلُ
هذا ، وفى عَدَويتى جُرثومةٌ صَعِبٌ منا كبها نيافٌ عَيطَلُ
و إذا البراجمُ بالقُروم تخاطروا حولى بأغلبَ عِزُّهُ لا يُنزلُ [٥]

الربائع ثلاثة ربيعة الكبرى ، وربيعة الوسطى ، وربيعةالصغرى، والعدوية فكيهة بنت مالك من زيد مناة فولدت صُدَيًّا وَزَيْداً ويربوعا فغلبت على بنيها فنسبوا إليها ، والبراجم خمسة من بنى حنظلة بن مالك : قيس ، وغالب ، وعمرو ، وكُلفةُ ، والظُلَيم .

ثم الأحمال فى قول جرير :

أبَنى قُفَيرةَ من يُوَرِّعُ وِردَنا أم مَن يقومُ لشدةِ الأحمال [٦]

---

(١) النقائض ص ٣٨٣ (٢) نفسه ص ١٢٥
(٣) ص ٨٣٠ (٤) ص ٥٨٦ — ٥٨٧
(٥) ص ١٨٦ (٦) ص ٣٠٤

والأحمال من بنى يربوع هم سليط ، وعمرو ، وصُبير ، وثعلبة ،وأمهم السفعاء الباهلية . والصِمّتان فى قوله : —

سَعَرْنا عليك الحربَ تغلى قدورَها فألاَّ غداةَ الصِمّتين تُديمها (١)

والصمتان معاوية بن مالك بن علقة بن غزيّة وأخوه : والكملة من شعر الفرزدق : —

وهم الذين عَلموا عُمارةَ ضربةً فوهاء فوق شئونه لا توصل (٢)

عمارة بن زياد العبسى أحد الكملة الأربعة ، والأراقم فى قوله : —

وما لقيت قيس بن عيلانَ وقعةً ولا حرَّ يوم مثل يوم الأراقم (٣)

والأراقم هم جُشْم وهم رهط مهلهل ، وعمرو بن كلثوم ، وعمرو بن ثعلبه ، رهط الهذيل بن هُبيرة ، وحنش بن مالك ، ومعاوية والحارثُ بنو بكر بن حبيب بن غَنْم بن تغلب . والعواتك فى قول جرير . —

بنو المجد قيسٌ والعواتكُ منهم ولَدْنُ بحوراً للبُحور الخَضارم (٤)

والعواتك من بنى سُليم منهن أم هاشم والمطلب وعبد شمس بنى عبد مناف وأمهم عاتكة بنت مُرّة ، وعاتكة بنت فالج بن ذكوان أم جد الرّسول . هاشم بن عبد مناف بن زهرة جد رسول الله من قِبل أمه آمنة ، وسائر العواتك أمهات الرسول فهن تسع . والأجارب فى قوله : —

قتل الأجاربُ يا فرزدقُ جارَكم فكلوا مزاوِد جاركم فتمتّعوا (٥)

والأجارب خمس قبائل من بنى سعد وهم ربيعة ، ومالك ، والحارث ، وعبد العُزّى ، والحرام . ونحو ذلك كثير (٦)

---

(١) النقائض ص ١١٩ (٢) ص ١٩٣ (٣) ص ٣٧٣

(٤) ص ٤٠٣ (٥) ص ٩٦٩

(٦) راجع الأكابر والأحاليف والأقارع والأعياس والعنابس مستعينا بالفهرس جـ ٣ من النقائض

وقد رأينا كيف رمى جرير صاحبيه من ناحية الدين ، فالفرزدق زان، يحالِفُ النصارى ، والأخطل يسجد للصليب ، ويشرب الخمر ، ويأكل لحم الخنزير ويدفع الجزية ، ولا يعرف شعائر الإسلام .

وأما أعيان القبائل فقد تردد ذكرهم خلال النقائض ، ومنهم الجاهلى والإسلامى ، فالهذيل التغلبى أوقع ببنى يربوع يوم (إزاب) وذلك حيث يقول الأخطل من نقيضة : ـ

ولقد سما لكم الهُذيلُ فنالكم ... بإزابَ حيثُ يقسِّم الأنفالا
فى فَيلقٍ يدعو الأراقِمَ لم تكن ... فُرسانُها عزلا ولا أكفالا [1]

ويقول ذاكراً أعمامه : ـ

أبنى كُلَيبٍ إن عمَّىَّ اللذا ... قتلا الملوك وفكَّكا الأغلالا
وأخوهما السفّاح ظمَّأ خيلهُ ... حتى وردْن جُبا الكُلاب نهالا [2]

عماه هما عُصم بن النعمان بن حنش قاتل شرحبيل بن عمرو الكندى وعمرو ابن كلثوم قاتل عمرو بن هند . ويقول جرير : ـ

كذبَ الأخيطلُ إن قومى فيهمُ ... تاج الملوك وَرايةُ النعمان
منهم عتيبةُ وَالمحِلُّ وَقعنَبٌ ... وَالحَنتَفانِ وَمنهم الردْفانِ [3]

يريد عتيبة بن الحارث بن شهاب ، وَالمحل بن قدامة بن ثعلبة بن يربوع ، وَقعنبَ بن عِتاب بن الحارث الرياحى ، وَالحنتفان أوس بن رياح اليربوعى ، والردفان عتاب بن هرْمِىّ الرياحى وَابنه عوف وَقيس بن عتاب ابنا عتاب ابن هرمىّ .

---

(١) نقائض جرير والأخطل ص ٧٧ .
(٢) نفس المرجع ص ٧٣ .
(٣) النقائض ص ٨٩٧ وراجع ٢٩٨ .

وأما الفرزدق فقد أكثر من ذكر رجاله إذ يقول : —

إن الأقارعَ والحُتاتَ وغالباً وأبا هنيـدةَ دافعوا لمقامى[1]

يريد الأقرع بن حابس ، والحتات المجاشعى ، وغالباً أباه ، وأبو هنيـدة صعصعة جده ، وهنيدة كانت تقول من جاء من نساء العرب بأربعـة كأربعة يحل لى أن أضع خمارى معهم فلها صِرمتى ، أبى صعصعة ، وأخى غالب ، وخالى الأقرع ، وزوجى الزِبْرِقان .

ويقول : —

زيد الفوارس وابن زيد منهم وأبو قُبيصـة والرئيس الأول[2]

ولا ينسى جرير أسرهم ذا الجدين بسطام بن قيس الشيبانى فيقول : —

أقمنا بمـا بين الشَرِيّةِ والمَـلا تُغنى ابنَ ذى الجدّيْن فينا سلاسلُه[3]

والنقائض تدل على مقدار الثروة الضخمة التى كانت فى يد الخلفاء والأمراء بمـا لابسها من جوائز الشعراء ، وتفاوت القبائل والأقاليم فى الثروة ، والمنافسة الاقتصادية بين قيس وتغلب فى بلاد الجزيرة ، وهـذه الأرستقراطية الأموية القائمة على عناصر الجنس والمال ، وهذه كلها أيضاً إشارات إلى ما يمكن أن تغذونا به النقائض من معارف اجتماعية واقتصادية لذلك العصر الذى أنشئت فيه .

— ٥ —

وقد استدعت النقائض شروحا تعد مصـدراً خصباً جداً لدراسات لغوية ، وأدبية ، واجتماعية ، وسياسـية ، لا نجد أكثرها فى غير هـذه الشروح وبخاصة

---

(١) النقائض ص ٢٦٤ . (٢) نفسه ص ١٨٨ . (٣) نفسه ص ٦٣٧ .

شَرْح نقائض جرير والفرزدق . ولنذكر لذلك أمثلة تاركين للدارس الرجوع إلى هذه الشروح .

من ذلك شرح أبيات غير أبيات النقائض نفسها وذلك بيت زفر بن الحارث الكلابى : —

وقد ينبت المرعى على دِمَن الثرى وتبقى حزازات النفوس كما هيا

قال الأصمعى : والمعنى فى هذا البيت ، يقول قد يصلح نبات الدِمَن بعد فساده وخبثه إذا غسلته الأمطار وذهب ما فيه من الوباء ، وما فى النفس من الحزازات لا يذهبها شىء[1] .

ومن الأمثلة فى شرح أبيات النقائض بيت للفرزدق : —

فقلت أظَنَّ ابنُ الخبيثةِ أننى شُغلتُ عن الرامى الكِنانةَ بالنَبْلِ

يريد ، بهذا ، جريراً بهجاء البعيث وغيره كما صنع صاحبُ الكِنانة وهو أن رجلا من أسَد ورجلا من فَزارة رامِيَين التقيا ومع الفزارى كنانة جديدة ، ومع الأسدى كنانة رَثّة فلم يدر الأسَدى كيف يأخذها من الفَزارى ، فقال له الأسدى أنا أرمى أم أنت ؟ فقال الفزارى : أنا أرمى منك ، أنا علّمتُك الرمى . فقال له الأسدى : فإنى أنصبُ كنانتى وتنصب كنانتك حتى نرمى فيهما ، فنصب الأسدى كنانته فى خطر قد سمّياه فجعل الفزارى يرميها فيقرطس حتى أنفد سهامه كل ذلك يصيبها ولا يخطئها ، فلما رأى الأسدى أن سهام الفزارى قد نفدت قال : انصب لى كنانتك حتى أرميَها فنصبها له فرمى نحو الكنانة ثم عطفه وسدّده نحوه حتى قتله ، فضربه الفرزدق مثلا يعنى أن جريراً يهجو البعيث ويعرّض بالفرزدق وغيره من بنى مجاشع[2] .

---

(١) النقائض ص ٧٧٦ .

(٢) نفسه ص ١٢٨ .

فإذا ذكرنا الأيام وأحاديثها هنا فقد ذكر القصص العربى الجامع بين الشعر والنثر وذكرنا قسطاً كبيراً من النثر الجاهلى والإسلامى يبحث عنه كثيراً مؤرخو الأدب العربى .

وعند بيت الفرزدق : —

أتانى ورَحلى بالمدينـــة وقعةٌ لِآل تميمٍ أقعـدتْ كل قائمِ [1]

بسط الشارح بإسهاب موقف القيسية ، والتميمية ، واليمنية فى خُراسان آخر عهد الوليد وأول عهد هشام سنة ٩٦ هـ وما أعقب موت الوليد من اضطراب أدى إلى قتـل (قتيبة) وما تخلّل ذلك من تدبير وكيد ، وأهم من ذلك تلك الخطبة التى خطبها قتيبة فى القبائل العربية لأنها لم تبايع له فسبها ومدح السفد ، ولعل هذا الإسهاب غير وارد فى مراجع تاريخية كبيرة . كذلك ذكر الشارح [2] سبب التحام جرير والأخطل مسهباً . وعند قول الفرزدق : —

ومنّا الذى أعطى يديه رَهينـة لِغارَى مَعَدٍّ يوم ضرب الجماجم
كفى كلَّ أم ما تخافُ على ابنها وهنّ قيـــامٌ رافعاتُ المعاصِم
عشيةَ سار المِربدان كلاهما عَجاجةَ موتٍ بالسيوف الصوارم [3]

يفصل الشارح ما سماه حديث مسعود ، وما أعقب قتـل الحسين من ندم يزيد ثم ما أعقب موت يزيد من فتن وهرب ابن زياد وعبث أهل العراق به ، وموقف مسعود بن عمرو المحاربى من حماية ابن زياد ، وقتل مسعود وما إلى ذلك مما يندر أو يستحيل وجوده فى غير هذا الشرح .

وقد أورد الشارح قصة الفرزدق مع النوار وزواجه عليها والتجاءها إلى جرير لتغيظ الفرزدق ، وقصة حَدْراء وموتها [4] ونحو ذلك كثير .

---

(١) النقائض ص٣٤٩ . (٢) نفسه ص٤٩٤ .
(٣) نفسه ص ٧٢٠ . (٤) نفسه ص ٨٠٣ — ٨٢١ .

على أن شرح أبى عبيدة ملىء بآثار شعرية ونثرية لشعراء وأدباء مغمورين ، وبأسماء بقاع ، ومدن ، ونجوم ، وجبال ، وأنهار ونحوها مما دلت عليه الفهارس .

— ٦ —

ومع ذلك كله وغيره لم تكن النقائض خيراً مطلقاً للأدب والأخلاق والحياة الاجتماعية الماضية والحاضرة .

وأول ما يلقانا من مساوئها هذا الهجاء الفاحش والأدب المكشوف الذى آذى الأخلاق ، ونال من الحرمات ، وأفصح عن العورات وصوّرها صوراً قبيحة مزرية جعلت النقائض وصمة خلقية واجتماعية شنيعة ، فبدلا من وقوف الهجاء عند نفى المحامد المعروفة كالكرم والنجدة والمواهب النفسية الكريمة ، رأيناه يشنع بالمرأة ، ويبغضها إلى الرجل ، وينحط بها إلى درك مهين .

وَمهما يقل رجال النقد الأدبى من الفصل بين الأدب وَالأخلاق وَأن مهمة الأدب التعبيرأو « الفن للفن » فليس من شك أن مثل هذه الصور تؤذى الشعور المهذب وَتنافى رسالة الأدب العظيم ، لذلك تأذّى الناس بالهجاء الأموى خاصة وَاضطر الحارث بن أبى ربيعة المخزومى وَالى البصرة من قبل ابن الزبير أن يهدم دارى جرير وَالفرزدق لتهاجيهما ، وَلعل شيئاً من التوقر وَالتجافى عن الدنس اللغوى كان من بواعث إقلال الأخطل من الفحش فى الهجاء فصار دوَن زميليه فى هذا الباب .

ومع ذلك فإن التأريخ الأدبى وَالاجتماعى لا يعفينا من قراءة هذه النصوص وَوَصفها استكمالا لمهمتنا ، وَوَفاء لموضوعنا .

وَثانى ذلك ما أذكت النقائض من نار العصبيات الجاهلية فى ظل الإسلام فأثارت أحقاداً كانت كامنة وإحَناً كانت مستترة ، وَرأينا القبائل تتناحر

بالسيف واللسان ،والشعر ينشر المخازى ويُعيد الأيام الجاهلية حَذَعة . وإثمُ ذلك يعود كثيره إلى هؤلاء الذين مزّقوا أعراضهم وفرقوا بين عشائرهم ، فاشتد موقف تغلب من قيس ، واليمنية من المضرية ، وكان بيت من الشعر للأُخطل سبباً فى وقعة البشر التى تعد من شر أيام قيس على تغلب صرخ منها الأخطل بعدما أشعلها على قومه ناراً موقدة . ومن سوء الحظ أن هذا الشعر كان يجد قبولا فى نفوس العشائر وصدى فى سلوكها استجابة للحمية وامتداداً للسفاهة الجاهلية فتنابذ الرجال واستخذى النساء ، وكان ذلك شراً وبيلا .

وثالث ذلك أن هذه المفاخرة والمناقضة جعلت هؤلاء الفحول يلتفتون كثيراً إلى الماضى البعيد يستمدون منه موادهم فتخطوا حدود التاريخ الإسلامى إلى أيام الجاهلية وتقاليدها ونشروها ، ثم تشبثوا معها بالأساليب القديمة ، والصور البدوية ، والألفاظ الغريبة ، وعادوا بالشعر إلى الوراء أو وقفوا به محافظين لم يضفوا عليه روح عصرهم تماماً ففقد عناصر التجديد القوى واستطاع شعراء الغزل والسياسة أن يسبقوهم فى هذه الناحية ، فكان فن النقائض نافعاً من حيث إحياء القديم والاحتفاظ بالجزالة والقوة العربية للأساليب الشعرية ، ولكنه وقف عند ذلك فى أغلب الأحيان وصار شعراؤه الفحول يقرنون بالفحول الجاهليين .

الفصل العاشر

خاتمـــة

- ١ -

رأينا أن النقائض فن من الشعر خاص،له شرائطه من حيث اتحاد الموضوع والبحر والقافية وتقابل المعانى وطرق نقضها بحيث يقف الشاعر من خصمه موقف المحادّة والملاحاة يريد أن يفسد عليه معانيه و يظفر به فى باب الجدل ، والمفاخرة ، والمهاجاة ، ورأينا أن هذا الفن يوجد فى النثر أيضاً و إن لم تتضح فيه الخواص الموسيقية وضوحها فى النظم ومثلنا له بما دار بين الكتاب والخطباء . وَكانت النقائض الشعرية مجالا تناوَل فنون الشعر العربى الغنائى و إن كان الفخر وَالهجاء أشدها ظهوراً .

وَقد لاحظنا أن هذا الفن قديم العهد وجد منذ طفولة الشعر العربى قبل الإسلام ، وكان وجوده ، فيما استظهرنا ، نتيجة عَدْوَى نفسية أدبية جمعت بين نفسى الشاعرين المتناقضين فى مجال فنى خضعتا له فتشابهت قيثارتاهما وألحانهما و إن تخالفت غاياتهما .

وَعلى الرغم من مقوماته التى ذكرناها فى الباب الأول فقد عاش فى الجاهلية، أكثر ما عاش ، فى ظل (الأيام) و بقى صحيفتها السائرة حتى ظهر الإسلام

فصارت النقائض من عوامل النشاط الأدبى الذى استدعته الحياة الجديدة وقامت مكة والمدينة كلٌّ تحادّ الأخرى وتنازعها النفوذ والسلطان حتى سكنت مدرسة مكة ، ثم توارت فى هذا التيار الجارف الذى طمّ بفتح مكة واستقرار الإسلام .

وكان من الطبعى أن يهدأ صخب النقائض تحت الراية الإسلامية لميل الدولة إلى الوحدة ، ودفن الأحقاد والضغائن القديمة استجابة لروح الإسلام الكريم وقد تحقق ذلك فترة أعقبتها الحرب الأهلية بين على ومعاوية فى سبيل الخلافة فبدت بشائر النقائض و إن تكن خافتة ، أو كانت ، من الناحية الفنية ، بصيصاً ضئيلا ما لبث أن توارى فى عهد معاوية الذى اجتمعت عليه الأمة لحسن سياسته ، وارتقاب هذا الجليل الإسلامى من الشعراء الذين سينهضون بفن النقائض فى أرقى أطواره ، و يبلغون به مستوى يشغلون به الناس جميعاً ، من رُواة ، ونقاد وعلماء ، وخلفاء ، وأمراء ، وقبائل ، وأسر ، رجالا ونساءً .

وقد توافرت فى العهد الأموى ، كما قلنا ، عوامل سياسية واجتماعية وأدبية بعثت النقائض ، وقوّتها ، وأكسبتها سيرورة ، وجذبت إليها كثرة من الشعراء ، وأخضعت لسلطانها الفحول حتى كثرت قصائدها ، وطالت وظهرت فيها السمات الإسلامية واضحة أصيلة ، و بعدت آثارها ، ونضجت قرائح شعرائها ، فأخصب خيالهم ، وتنوعت معانيهم ، وتمايزت أساليبهم ، واجت فيها النزعة الجدلية قوية ذات ضروب شتى ، وقامت حولها مدارس نقدية حتى عادت النقائض مدرسة الجيل الإسلامى الجديد ومشغلته فى المدن والأقطار وحتى انتهت إلى ميادين القتال ، وخلفت لنا آثاراً قيمة ، وهنات منكرة ، أشرنا إلى أهمها منذ حين .

— ٢ —

استمرت النقائض الأموية حامية الوطيس بين جرير وزميليه خاصة حتى أذا مات الأخطل سنة خمس وتسعين هجرية أيام الوليد بن عبد الملك بقيت حادة بين شاعرى تميم إلى أن ماتا أوائل القرن الثانى ، أواخر عقده الأول أو بعد ذلك بقليل ، فسكنت نأمة هذا الفن وانتهت حياته القوية الرائعة إلى الآن فلم يبعث من جديد بعثة قوية وإن بقيت شواهدة تبدو فى تاريخ الشعر .

أقُضِيَ على هذا الفن نهائياً ؟ وما سبب خفوته من ذلك الحين ؟

لا يمكننا البت بأن النقائض إنما توجد مرة واحدة فى تاريخ الشعر العربى فقد تبعثها أسباب قوية أو ضعيفة ، ولكن الذى يظهر لى أنها لن تحظى بما حظيت به أيام الأمويين ، إن لم يكن فى كمها ، ففى كيفها ، وخصائصها التى شغلت بها عصراً بأكمله طولا وعرضاً .

ترى لماذا لم يستمر هذا الفن بعد موت جرير وصاحبيه أوائل القرن الثانى ؟

قد يعود ذلك إلى أن فحولة هؤلاء أيأست غيرهم من الشعراء أن يقودوا سيارتهم فسكتوا بعد موتهم كما كانوا مُتَوارِين فى حياتهم .

وقد يعود إلى أن السياسة لم تعُدْ فى حاجة إلى استغلال هذا الفن الذى ملّه الناس ، أو كادوا ، فلم يأخذ به الشعراء أنفسهم فمات .

وربما كان السبب أن هذه العصبيات الفرعية بين قيس وتغلب وتميم ، وفى داخل تميم ، قد فترت ، ولم تجد من يؤرّثها بعد أن ماتت صحفها ، فلم يتقدم أحد ليخلف هؤلاء الفحول فى هذا الميدان .

ولعل هـذا الفن كان بغيضاً إلى الناس لسوء آثاره وما لا بسه من هنات فاحشة زهَّدت فيه الشعراء فانصرفوا عنه طائعين .

وقد يكون لعَفاء المِربد ، وزال مجده ، وعدم العناية بالمفاخرات القبلية أثر فى ضعف النقائض وموتها .

على أن الجيل الإسلامى من الشعراء أخذ ينقرض ، ويتقدم إلى المسرح جيل مُحْدَث مُتَحضِّر فيه طائفة من الموالى لم يرقهم هذا الفن البدوى الأعرابى الذى مضى زمنه ، فنبذته أذواقهم وتقدموا هم بطابعهم الحضرى البغدادى ولا سيما أن الموالىَ لم يعرفوا هذه النعرة العربية القبلية فأنكروها وأنكروا كل عربى وصاح أبو نواس فى وجه التقاليد القديمة .

ولعلَّ لِكل تلك الأسباب أثراً فى سكون هذا الفن العتيد .

— ٣ —

وعلى الرغم من هذا الخفوت الذى أصاب النقائض فإنها ستبقى موضوع دراسات فنية تاريخية خصبة قيمة جداً ، يرى فيها اللغويون حاجتهم اللفظية ، والمعنوية ، والصورية المألوفة والغريبة . ويجد الأديب أو فى مادة لدراسة الشعر القديم : فنونه ، وأساليبه ، وفحوله ، وما يلابسه من نقد وتاريخ أدبى . وأما الرجل الاجتماعى فيجد فى النقائض مرآة صادقة تعرض عليه صورة الأمة العربية فى جاهليتها وإسلامها تامة الرسوم ، واضحة العادات ، بيّنة المعارف ، فيها الأخيار والأشرار ، والمؤمنون والجاهلون .

وليس للمؤرخ السياسى غِنًى عن قراءة النقائض وما استلزمت من شروح فقد تستطيع أبيات من الشعر وصف العصر الأموى وصفاً يُعجز الكتاب

والباحثين ، وقد يجد فى شرح النقائض من حوادث مفصلة وأنباء دقيقة لايجدها فى مَرَاجع أخرى .

وقد رجوتُ ، ولا زلتُ أرجو ، أن يتاح لى أو لغيرى من الجهد والوقت ما نستأنف به البحثَ فى دواوين النقائض لتحقيقها ، وترتيبها ، وشرحها ، وحُسن عرضها ، تيسيراً للانتفاع بذخرها التى لا تنتهى ، ولكنْ مَن لنا بتحقيق الرجاء ، وموافاة الأمانى ؟ !

* * *

أما بعد فقد طال السُرى ، وانتهينا إلى حيث يحسن السكوت ، فلنترك القلم شاكرين الله على ما أعان ، راجين ـ وما أكثر ما نرجو ـ أن يكون فيما قدمنا فى هذه الفصول حفز للباحثين ومتاع للقارئين .

أحمد الشايب

obeikandl.com